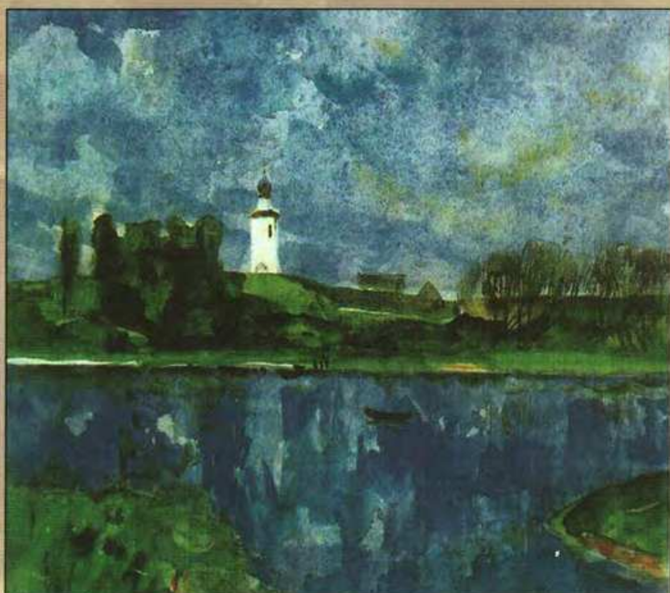
التكوين

مكسيم غوركي

اعتراف

أين الله

رواية



ترجمة: د. فيروز نيوف

مراجعة: د. نوفل نيوف

مكسيم غوركي

اعتراف

أين الله

رواية

ترجمة : د. فيروز نيّوف

مراجعة : د. نوفل نيّوف

دار التكوين

العنوان الأصلي للكتاب

ИСПОВЕДЬ

М. ГОРЬКИЙ

كلمة عن الرواية
وترجمتها إلى العربية

الأديب البروليتاري الروسي مكسيم غوركي (1868 ـ 1936)، كاتب الثورة الشيوعية، وصاحب رواية "الأمّ"، كتب رواية "اعتراف" خلال عامي 1907و1908. وقد صدرت هذه الرواية عام 1908، أي قبل مائة عام من الآن، في طبعتين، الأولى: ضمن كتاب سنويّ في بطرسبورغ؛ والثانية: كتاباً مستقلاً في برلين.

على أن رواية غوركي هذه جاءت في مرحلة من تاريخ روسيا شديدةِ الخصوصية والتعقيد. إذ تغطّي تلك المرحلةُ السنواتِ التي أعقبت إخفاق ما عُرِف بثورة 1905، وما شاع خلال تلك السنوات من اشتداد قبضة النظام القيصري على الحراك الثقافي، والسياسي، والاجتماعي عموماً. ففي تلك الأثناء جرت مراجعات، وارتدادات، وتقلُّبات كثيرة، متداخلة، وشائكة، تناولت الأسس الفلسفية والأيديولوجية... التي كانت الإنتلِجينسيا الروسية تحاول صقلَها، وتبنّيها، وأقلمتَها... وَفق الظروف المحلية، والمناخات السائدة، ومتطلّبات المرحلة من وجهات نظر مختلفة، ومتناقضة، تمثّل جُماع المشهد البانورامي الروسيّ آنذاك.

وجدير بالذكر، فيما يخصّ رواية مكسيم غوركي هذه، أن الجبهة الثوريّة اليساريّة، بما فيها جناحُها الماركسيّ المتشدّد، وهو

الجناح الذي كان غوركي أحد الأعلام في صفوفه، عَرَفَتْ تشقّقات وتصدُّعات كثيرة، عكست عمق تلك المراجعات والصراعات الفكرية والسياسية عموماً.

وقد تجلّى ذلك، جزئياً على الأقلّ، في ظهور تيارات أو جماعات أسمت نفسها تارة "الباحثون عن الله"، وتارة "بُناةُ الله"، وأخرى "مبدعو الله"... وكان الأديب الروسي مكسيم غوركي، في المرحلة المعنيّة، واحداً من أولئك الباحثين، قريباً في أفكاره هذه من لونَتْشارسكي الذي صار أوّل وزير للثقافة في الدولة السوفيتية بعد الثورة الشيوعية في روسيا عام 1917.

وتعرّض غوركي، بسبب رواية "اعتراف"، لانتقادات حادّة استمرّت سنوات، وخصوصاً من جانب فلاديمِر لينين، زعيمِ الجناح الراديكالي في الحركة الثورية الروسية يومها، قائد ثورة 1917 الشيوعية فيما بعد. ولئن دافع مؤلّف "اعتراف" عن موقفه، قائلاً إنه أراد في هذه الرواية أن يبيِّن "الطرق التي يستطيع الإنسان أن يسلكها للانتقال من الفردية إلى فهم العالم فهماً جماعياً"، وأن بطل الرواية، بسعيه لـ "خلق إله"، يرمي إلى تنظيم حياة الشعب تنظيماً جماعياً، عبر توحيد الناس قاطبة في سبيل غاية مشتركة هي تحرير الإنسان من العبودية الداخلية والخارجية، فإن لينِن شجب فكرة "البحث عن الله" من أساسها، جملة وتفصيلاً، ورأى فيها خطوة على طريق إنشاء دين جديد. ورسائل لينِن إلى غوركي حول هذه المسألة متوفّرة ومستفيضة، خُلاصتُها أن فكرة الله تأبيدٌ للطغيان، وسلاحٌ في أيدي النظام القيصري لتثبيت دعائمه في روسيا أمداً طويلاً.

وإذا ما التفتنا إلى جانب آخر من قصة هذه الرواية، كان لا بدّ من

الإشارة، بعُجالة كبيرة، إلى ما تعكسه من أصداء أفكار الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه (1844 ـ 1900)، ولا سيَّما قولته الشهيرة "لقد مات اللهُ!"، وما جرّته من نقاشات وكتابات في مجالات الفلسفة، والأدب، واللاهوت...



سبق للقارئ العربي، قبل عشرات السنين، أن قرأ رواية مكسيم غوركي هذه، "اعتراف"، ولكن تحت عنوان مثير، هو "أين الله؟". وهذه الرواية التي نقلها الأستاذ نظير زيتون، مشكوراً، سنة 1934 من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية لاقت في زمانها انتشاراً وشهرة. لقد كان المترجم ابن زمانه حقّاً، بلغته العربية الجزلة، وأسلوبه الرشيق، واسترسالاته الذاتية، وجُمَله التراثية، ومفرداته الدينية، وتسجيعاته... ولكنه كان ابن زمانه أيضاً في نظرته إلى الترجمة وفق معايير ذلك الزمان. فقد كانت النظرة إلى الترجمة غير ما هي اليوم، من حيث الأمانة، ومراعاة الدقة، والابتعاد عن الحذف، والاستبدال، والتفسير، والإضافات...

ومن يقارن رواية "اعتراف" التي نضعها بين أيدي القرّاء العرب اليوم (وهي أوّل ترجمة من الروسية)، وبين ترجمتها بقلم الأستاذ زيتون تحت عنوان "أين الله؟"، يكن قادراً على أن يتبيّن دواعي إعادة ترجمتها من لغتها الأمّ بالصورة التي تجدونها في هذا الكتاب.

د. نوفل نيّوف

دمشق ـ تموز 2008

... اسمحوا لي أن أقصَّ عليكم قصة حياتي. إنها لن تكلفكم كثيراً من الوقت، ويحسن بكم أن تعرفوها.

أنا، من وجدوني في نبات القُرّاص، لقيطٌ، إنسان غير شرعي، مجهول الوالدين. أُلقيَ بي في مزرعة السيد "لوسيف"، في قرية "سوكوليه"، من قضاء "كراسنوغلينسكي". لقد تركتني أمي، أو أحد آخر سواها، في حديقة السادة على درجات مُصلّى صغير كانت ترقد فيه رُفات السيدة العجوز "لوسيفا"، فعثر عليّ هناك البستانيّ دانيلا فيالوف، حين جاء إلى الحديقة ذات صباح باكر، وإذا به يرى طفلاً مقمّطاً بالخرق، يتحرّك عند باب المصلّى، يتمشّى حولَه هرٌّ رماديٌّ اللون.

عشت في كنف دانيلا إلى أن بلغت الرابعة من عمري. لكنه كان معيلاً كثير الأبناء، فكنت أقتات أينما اتُّفِق. وحين لا أجد طعاماً، أستسلم للبكاء، ثمّ أنام على الطّوى.

وعندما بلغت الرابعة من عمري، تولّى الشماس لاريون أمري، وهو رجل وحداني رائع، فأخذني ليتسلّى بي. كان لاريون رجلاً رَبْعَ القامة، مكوّر الجسم، مستدير الوجه، أمغر الشعر. وكان صوته ناعماً كصوت النساء، وكذا كان له قلبُ أنثى يُغدِق الحنان على الجميع. كان يحب الخمرة ويشرب كثيراً، وحين يكون صاحياً يظل صامتاً، عيناه شبه مغمضتين دائماً، ويبدو بمظهر المذنب أمام

الجميع. وإذا ما شرب راح يردِّد التراتيل والأشعار الدينية ملء صوته، رافعاً رأسه، ويبتسم لأيٍّ كان.

كان لاريون يتجنّب الناس، ويعيش عيشة الفقراء، بعد أن تخلّى عن نصيبه للكاهن، يقضي الصيف والشتاء في صيد السمك، ويتسلّى بنصب الأفخاخ للطيور المغرِّدة. وقد علمّني ذلك أيضاً.

كان يحب الطيور، وهي أيضاًلم تكن تهابه. ما أعذب تلك الذكريات، حين كان طائر الزّحّاف، وهو طير بريّ تماماً، يتقافز على رأس لاريون، متعثراً بخصلات شعره الأرجوانية، أو يقف على كتفه يتفحّص فمه وهو يحني رأسه الذكي. وأحياناً كان لاريون يستلقي فوق المقعد، وينثر في شعره ولحيته حبَّ القنّب، فتجتمع السميلات، والحساسين، وطيور سن المنجل، والدغناش لتعبث في شعر الشمّاس، وتمشي فوق خديه، وتنقر أذنيه، ثم تحطّ على أنفه، فيما هو مستلقٍ، يقهقه، ويزمّ عينيه، ويتحدّث إلى الطيور بنبرةٍ حنون. لطالما حسدتُه على ذلك، فقد كانت الطيور تخشاني.

كان لاريون يتمتّع بروح رقيقة، وكانت الحيوانات جميعها تدرك ذلك، على أنني لم ألمس ذلك عند البشر، وأنا لا أقول هذا القول بقصد إدانتهم، بل لمعرفتي أن الإنسان لا يحيا بالحنان.

كان لاريون يمرّ بأوقات صعبة في الشتاء. فهو بحاجة إلى الحطب، ولكنه لا يملك مالاً ليشتريه، إذ يكون قد هدر المال على الخمرة. أمّا عُزبته البائسة فباردة كأنها قبو، ولا شيء سوى زقزقة العصافير وتغريدها، فيما نستلقي، أنا ولاريون، على ظهر

الوِجاق[1] البارد، نتدثر بكل ما تقع عليه أيدينا، وننصت للغناء... ولاريون يصفر للعصافير - وكم كان بارعاً في ذلك! - بل وكان هو نفسه، بأنفه الكبير المعقوف، ورأسه الأحمر، يشبه طيراً. وكان يقول لي:

- اسمع يا موتكا - إذ كانوا قد عمّدوني باسم ماتفي - اسمع!

ويستلقي على ظهره، عاقداً يديه تحت رأسه، ثم يكوِّر عينيه، ويمضي ينغِّم بصوته الناعم مقاطع من قدّاس الصلاة على الموتى. وعندها تصمت الطيور وتنصت، ثم تنخرط هي نفسها في الغناء متقاطعة الأصوات، لكنّ صوت لاريون يعلو عليها، فتلتهب الطيور حماسة، ولا سيَّما الشحارير، والزرازير، والحساسين. وكان لاريون يمضي في الغناء إلى أن تملأ الدموع مقلتيه، وتنهمر عبر جفونه على خديه، حتى يغدو لون وجهه المبللِ بالدمع رماديَّ اللون.

كنت أحياناً أشعر بالرعب من جَرّاء هذا الغناء، فقلت له ذات مرة بصوت خفيض:

- ما لك، يا عمَّاه، تغنّي طول الوقت عن الموت؟

فتوقّف حالاً، وقال لي ضاحكاً، وهو ينظر إلي:

- لا تخف، يا غشيم! لا ضير في الغناء عن الموت، فهو غناء جميل! إن أجمل الصلوات قدّاس الجنّاز، ففيه رأفة بالإنسان وشفقة

---

[1] الوجاق مدفأة كبيرة تبنى في الجدار، مطليّة بالطين، فيها فتحة كفتحة الفرن، وكان الروس ينامون على سطحها لينعموا بالدفء في الليالي القارسة. — م.

عليه. ذلك أن الناس عندنا لم يعتادوا أن يشفقوا على أحد إلاّ على الموتى!

أتذكّر تلك الكلمات جيداً مثلما أتذكّر كلّ أحاديثه. ولكنني، بالطبع، لم أكن أدرك مرماها في ذلك الحين. فنحن لا نفهم ذكريات الطفولة إلا قبيل سن الشيخوخة، في أكثر سنوات المرء لحكمة.

وأذكر أيضاً أني سألته يوماً: لماذا لا يساعد الله مخلوقاته إلا قليلاً؟

فشرح لي قائلاً:

- ليس ذلك من شأن الله! بل أنت من عليك أن تساعد نفسك، فقد وهبك العقل! إنما الله موجود ليخفّف عنك رهبة الموت، أما الحياة فأمرها موكول إليك!

لقد نسيت هذه الكلمات باكراً، وتذكّرتها متأخّراً، ولهذا السبب عرفتُ من الويلات أكثر مما ينبغي.

كان رجلاً رائعاً! كلّ الناس يمتنعون عن الصراخ، وعن الكلام وهم يصطادون السمك، خشية أن يخيفوه، أمّا لاريون فكان لا يكفّ عن الغناء، وأحياناً يقصّ عليّ مختلف سِيَر القديسين، أو يحدّثني عن الله، ومع ذلك كان السمك يُقبل عليه. كذلك يتوخّى الناس الحذر في صيد الطيور، أمّا لاريون فلا يني طول الوقت يصفر لها، ويشاكسها ويتحدّث معها، ورغم ذلك — عجباً - كانت الطيور تُقبل على أفخاخه وشباكه. وكذلك هو الأمر فيما يخصّ النحل. ذلك أن من يربّون النحل سنوات طويلة، تراهم يصلّون حين يقومون بفصل أسرابه، أو بأيّ فعل آخر، حتّى

إذا ما فشلوا مرّة استدعوا الشمّاس فيضرب النحل، ويدوسه، ويكيل له شتائم فاحشة، ولكنه في النهاية ينجز العمل على أكمل وجه. لم يكن لاريون يحب النحل، لأنه تسبّب في عمى ابنته، عندما تسلّقت، وهي في الثالثة من عمرها، قفير نحل، فلسعتها نحلة في عينها. ثمّ تورّمت العين وعميت، فأصيبت العين الثانية، وتوفيت الصغيرة بسبب الصداع، فجُنَّت أمها...

حقاً، ما كان لاريون يشبه أحداً من الناس في تصرفاته. لقد كان عطوفاً عليَّ وكأنه أمّي، في حين لم يمنَّ عليَّ أهل القرية بالعطف. فحياتهم صعبة، وأنا غريب، ولا حاجة لأحد بي. وقد أنال لقمة أحد منهم بغير وجه حقّ...

عوّدني لاريون على ارتياد الكنيسة، ورحت أساعده في أعماله: فأُنشِد معه في الخورس، وأشعل الشموع، وأقوم بكل ما يلزم. وكنت أيضاً أساعد الحارس (فلاسي) في الحفاظ على نظافة الكنيسة، وقد أحببت عملي هذا كلّه، ولا سيّما في الشتاء. إذ كانت الكنيسة مصنوعة من الخشب، حسنة التدفئة، لا يشعر المرء فيها بالبرد.

كنت أفضّل قُدّاس العشاء على قُدّاس الصباح، إذ يكون العمل قد طهّر الناس مع قدوم الليل، فيتخلّون عن همومهم، ويقفون بهدوء وخشوع، تتَدفّأ أرواحهم مثل الشموع بنيرانها الصغيرة، وعندها ترى أن همّ هؤلاء البشر واحد، على الرغم من اختلاف وجوههم.

كان لاريون يحبّ الصلاة في الكنيسة، فيغمض عينيه، ويلقي برأسه الأمغر إلى الخلف حتّى تبرز تفاحة آدم في عنقه، ثم يسترسل

في الإنشاد والترتيل. ويبلغ به الأمر أن يسهوَ فيزيد، حتّى يضطر الكاهن لتدارك ذلك بالإشارات من خلف الهيكل متسائلاً: لمَ هذا الإفراط؟ وكان قارئاً رائعاً أيضاً، يرتّل بصوت عذب، رنّان، ونبرة حنون، مفعمة بالبهجة والسرور.لم يكن الكاهن يحب لاريون، ولا لاريون يحبّ الكاهن. فقد قال لي غير مرّة:

ـ أيّ كاهن هذا! إنه ليس كاهناً، وما هو إلا طبل تقرعه الفاقة والعادة بالعصيّ. فلو كنتُ كاهناً لما أبكيت الناس وحدهم، بل ولأبكيت الأيقونات المقدسّة أيضاً!

وهذا صحيح، فالكاهن لم يكن يليق بهذا المقام. لقد كان وجهه ضخماً، أسودَ كأنه ملفوح بالبارود، وفمه عريض، خال من الأسنان، ولحيته شعثاء، قليل الشعر، أجلح، طويل اليدين. وكان صوته أجشّ، يلهث كمن أبهظ كاهله حمل ثقيل. كما كان طمّاعاً، ودائم الغضب، لأنه يعيل أسرة كبيرة، فيما القرية فقيرة، وأراضيها مجدبة، وليس فيها أيّ نوع من الحرَف.

وفي الصيف، حين يُعَدُّ البعوضُ نفسُه غنيّاً، كنّا أنا ولاريون نقضي أيامنا ولياليناً نصطاد الطيور في الغابة، أو السمك في النهر. وكان يحدث أن تبدوَ حاجة على حين غرّة تستدعي حضور الشمّاس، فلا يجدونه، ولا علم لأحد بمكانه. عند ذلك يرسلون كلّ غلمان القرية في طلبه، فتراهم يركضون كالأرانب، ويصيحون:

- يا شمّاس! يا لاريفون[2]! هيّا إلى البيت!

---

[2] ـ تحريف اسم لاريون على لسان أبناء الأرياف تلك الأيام. ـ م.

ولا يجدونه إلا بشق الأنفُس... وهنا يصبّ الكاهن شتائمه، ويهدِّد بالشكوى، بينما الفلاحون يضحكون.

كان للاريون صديق اسمه سافيلكا ميغون، وهو لصّ مشهور، وسكّير مدمن، كثيراً ما كانت تتناوله الأيدي بالضرب جزاء له على سرقاته التي قادته مراراً إلى السجن. ولكنه في ما خلا ذلك رجل نادر المثال. كان ينشد الأغاني، ويروي الحكايات بطريقة لا يسعك أن تتذكّرها إلا ويأخذك العجب.

لقد استمعتُ إليه مرّات كثيرة، والآن لا تزال صورته ماثلة أمامي كأنه حيّ: أعجف، كثير الحركة، له لحية لا تزيد شعراتها عن ثلاث، رثّ الثياب، وجهه صغير متطاول، بينما جبينه كبير يعلو عينَي لصّ ماجنتين ترفّان كثيراً، كأنهما نجمتان داكنتان.

اعتاد أن يصطحب معه قارورة فودكا، أو أن يورّط لاريون بشراء واحدة، فيجلسان إلى الطاولة متقابلين، ويقول سافيلكا:

- هيّا، أيها الشمّاس، أنشد لنا "التوبة"!

ثم يحتسيان كأساً... وبعد قليل من التمنّع يشرع لاريون بالإنشاد، فيما يظل سافيلكا جالساً كالوتد، ترفّ عيناه، وتهتزّ شعرات لحيته، وتترقرق عيناه بالدموع، ثمّ يمسح جبينه بيده، ويزيل دموعه عن خدَّيه بأصابعه وهو يبتسم.

وفجأة يثب مثل كرة، ويصيح:

- رائع جداً يالاريا! كم أحسد الله على هذه الأغاني الجميلة التي ألّفوها من أجله! يا للإنسان، يا لاريا؟ يالحقيقة الإنسان، كم هو خيِّر وغني الروح، آ؟ ما أصعب عليه إرضاء الله! ولكنْ تفضّل،

انظرْ إليه! أنتَ، يا إلهي، لم تعطني شيئاً، أما أنا فأهبك روحي كلَّها!

- لا تجدّف! ـ يقول له لاريون.

فيصيح سافيلكا:

ـ أنا؟ معاذ الله! بل ولم يخطر لي ذلك على بال! وأين تراني أجدّف؟ أبداً! إنني أغبط الله، ليس إلاّ! أمّا الآن، فأنا سأغني لك!

وينهض سافيلكا، ويمدُّ يده، ويبدأ ينشر علينا سحره. كان يغني بصوت خافت، يغنّي كمن يبوح بسرّ، ويفتح عينيه على سعتهما فتتقّدان بنور متميّز، ولا تنقطع عن الحركة أصابعُه العجفاء في يده الممدودة، كأنها تبحث عن شيء في الفراغ. ويُلقي لاريون بظهره إلى الحائط، مستنداً بيديه على المقعد الخشبي، وينظر إلى سافيلكا مشدوهاً، فاغراً فاه، فيما أستلقي أنا فوق الوِجاق، وقلبي يتجمّد بحزن لذيذ. أما سافيلكا فيكسوه لون كامد، ولا يبقى إلا بريق أسنانه كأسنان الفأر، ولسانه الذي يتحرّك مثل لسان الأفعى، فيما ينضح جبينه بقطرات كبيرة من العرق. وينساب صوته بلا نهاية، يسيل رقراقاً مثل جدول في الحقول. وعندما ينتهي من الغناء يترّنح، ويمسح وجهه بكفه، ثم يحتسيان كأساً، ويلوذان بصمت طويل. ويطلب إليه سافيلكا:

- هيّا، يا لاريا، أسْمِعْنا "موج البحر"!

وهكذا يقضيان المساء بطوله، يواسي كلٌّ منهما صاحبه، إلى أن تأخذ الثمالة منهما مأخذها. وعندها يمضي ميغون يروي حكايات فاحشة عن الكهنة والإقطاعيين والقياصرة، يضحك الشمّاس وأنا أيضاً، فيما سافيلكا لا يكلّ، ينسج حكاية

مضحكة إثر أخرى، حتى نوشك أن نختنق من الضحك.

ولكن غناءه الأروع يكون في الأعياد قرب الحانة، عندما يقف أمام الملأ ويزّم عينيه بشدة تجعل التجاعيد تظهر على صدغيه، ثمّ ينطلق بالغناء. فإذا ما نظرت إليه خُيِّل إليك وكأن الأغنية تدخل إلى صدره من صميم الأرض، حتى لكأن الأرض هي التي تملي عليه الكلمات، وتمنح صوته القوّة. يحيط به الرجال واقفين وجالسين، منهم من ينظر إلى الأرض وقشّةٌ في فمه، ومنهم من ينظر إلى فم سافيلكا ووجهه يشعُّ نوراً. أما النساء فيبكين وهنّ يصغين إليه.

وعندما يفرغ من الغناء يتوسّلون إليه:

- زدنا، أيها الأخ!، ويقدمون له الشراب.

كانت تُحكَى عن ميغون قصّة تقول إنه ذات يوم سرق شيئاً من القرية، فقبض عليه الرجال وقالوا له:

- لقد قُضيَ أمرك! إننا الآن سنشنقك، فلم نعد نحتمل أفعالك!

ويُزْعَم أنه أجابهم:

- كفاكم يا رجال، ما أسوأ ما تبيّتون! فأنتم سلبتم منّي ما سرقت. وهذا يعني أنكم لم تخسروا شيئاً. تستطيعون دائماً أن تكسبوا شيئاً جديداً، ولكن أين لكم أن تجدوا شخصاً مثلي؟ من سيواسيكم من بعدي إذا متّ؟

قالوا له:

- لن يفيدك الكلام!

وحين أخذوه إلى الغابة ليشنقوه، راح يغني في أثناء الطريق.

كانوا في البداية على عجلة من أمرهم، مسرعين، ثم تخلّوا عن العجلة، حتّى إذا ما وصلوا إلى الغابة وكان الحبل جاهزاً، ظلّوا ينتظرون حتى يُنهي أغنيته الأخيرة، ثم قال بعضهم لبعض:

- دعوه يُغنّي أغنية أخرى تكون له بمثابة الصلاة على روحه.

وغنّى أغنية أخرى امتدّت حتّى طلوع الشمس، فالتفت الرجال من حولهم، وإذا بالنهار يبزغ صافياً من الشرق، فيما يقف ميغون بينهم مبتسماً، ينتظر الموت بلا خوف. وعندها أحسّوا بالحرج قالوا:

- دعوه، يا شباب، في ستين داهية! فإننا إذا ما شنقناه تحمّلنا ذنبه، ووقعنا في ورطة لا تنتهي.

ثم قرروا ألا يمسّوا ميغون بسوء، وقالوا له:

- إننا ننحني لك كرمى لموهبتك، ولكن، مع ذلك، ستنال منّا نصيبك من الضرب جزاء سرقاتك.

وضربوه ضرباً خفيفاً، ثمّ عادوا أدراجهم إلى القرية برفقته.

قد تكون الحكاية كلّها رواية من نسج الخيال. ففيها إطراء كثير للبشر، وتجميل لصورة سافيلكا. ولنتصوّرْ أيضاً أنه ما دام البشر يروون حكايات بهذا الجمال، فهذا معناه أنهم ليسوا سيئين بقدْر ما نظنّ، وهذا هو بيت القصيد!

لم يقتصر لاريون وسافيكا على الغناء، بل كانت تدور بينهما أحاديث عديدة مختلفة، وكثيراً ما تكون عن الشيطان الذي يبغضانه.

وأذكر أن الشمّاس قال ذات مرة:

- إن الشيطان تجسيد لغضبك، وانعكاس لجهلك الروحي...

- أتعني بذلك حماقتي؟ ـ سأله سافيلكا.

- حماقتك تماماً، ولا شيء سواها!

فيقول ميغون ضاحكاً:

- قد تكون هذه هي الحقيقة فعلاً! فلو كان الشيطان حيّاً لقبض عليّ منذ زمن بعيد!

لم يكن لاريون يؤمن بالشياطين قَطّ. فأنا أذكر كيف كان على البيدر يصيح بالفلاحين المنشقين عن الكنيسة، وهو يتجادل معهم:

- ليس ذلك شيطانياً، وإنما هو بهيمي! فالخير والشر موجودان في الإنسان، إن أردتم خيراً وجدتموه، وإن أردتم شرّاً كان الشرّ منكم عليكم! إن الله لا يرغمكم على فعل الخير أو اقتراف الشر، فمشيئته جعلتكم مخيّرين وأحراراً في أن تفعلوا الخير أو أن تقترفوا الشرّ بملء إرادتكم. أما شيطانكم فهو الحاجة والجهل! فالخير إنساني حقّاً، لأنه إلهيّ، أما الشر فيكم فليس شيطانياً، بل هو بهيمي!

فيصيحون رداً عليه:

- يا لك من هرطوق أمغر!

ويظلّ مصرّاً على رأيه، ويقول:

- ولهذا يوصف الشيطان بأن له قرنين وأرجلَ تيس، لأنه يمثل الجانب البهيمي في الإنسان.

كان لاريون يتكلّم أحسن ما يتكلّم عن المسيح، فيقول: كنت أبكي دائماً وأنا أرى قسمة ابن الله المُرّة. فمنذ أن جادل العلماء في الهيكل وحتى يوم الجلجلة كانت صورته تَمْثُلُ في خيالي، فيتراءى لي طفلاً طاهراً ورائعاً في حبه الدفين للناس،

بابتسامته الطيبة الموجهة للجميع، وكلمته العطوفة المواسية، لقد كان في كل مكان طفلاً بجماله الباهر!

و يقول لاريون:

- كان المسيح يتحدّث إلى حكماء الهيكل أيضاً وكأنه طفل، ولهذا بدا لهم متفوّقاً عليهم بحكمته البسيطة. فتذكّرْ ذلك، يا موتيا، تذكّره وحاول أن تحتفظ الطفولة في روحك ما حييت، لأن الحقيقة كامنة فيها.

وأسأله:

- ويسوع، أيعود قريباً؟

فيجيبني:

- نعم، لقد اقترب موعد عودته! اقترب، فنحن نسمع أن الناس عادوا يبحثون عنه من جديد!

والآن، عندما أتذكّر كلمات لاريون، يتراءى لي أنه كان يرى أن الله هو خالق الكائنات العظيم البديع، ويَعدُّ الإنسان مخلوقاً لا يحسن شيئاً، ضلّ سبيله في الحياة الدنيا، وكان يشفق عليه بوصفه وارثاً غير كفؤ للنعم العظيمة التي منَّ الله بها عليه في هذه الأرض.

كان إيمان سافيلكا ولاريون واحداً. أذكر أن أيقونة ظهرت في قريتنا على نحو عجيب. فذات صباح خريفي باكر جاءت امرأة إلى البئر طلباً للماء، وإذا بها ترى بريقاً في ظلمة قاع البئر. فاستدعت المرأة الناس، وحضر الخفير، وأتى الكاهن، وجاء لاريون سريعاً، وأنزلوا رجلاً إلى قاع البئر، فرفع من هناك أيقونة "العذراء التي لا تحترق". وعندها أقاموا الصلاة حالاً، وتَقرَّر بناء

كنيسة فوق البئر. ثم أخذ الكاهن يصيح:

- تبّرعوا، أيها الأرثذوكسيون!

والخفيرُ أيضاً راح يأمر بالتبرع، وأعطى ورقة من فئة ثلاثة روبلات. فحلّ الفلاحون محفظاتهم، وراحت النساء يجلبن الأبسطة وغيرها من الخردة بحماسة، وعمّت البهجةُ القريةَ، فكنت مسروراً كأنني في يوم قيامة المسيح.

ولكنني لاحظت، ونحن بعدُ في الصلاة، أن وجه لاريون حزين، وهو لا ينظر إلى أحد، فيما كان سافيلكا يتنقّل بين الجموع مثل فأر، ويبتسم ساخراً. وفي الليل ذهبت لمشاهدة الأيقونة التي وضعوها فوق البئر، ينبعث منها دخان شبيه بنور شفّاف سماويٍّ الزرقة، كأن أحداً خفياً كان يفيض عليها بأنفاسه الرقيقة، ينفخ فيها الدفء والضياء، فشعرت برهبة لذيذة.

وحين عدت إلى البيت، سمعت لاريون يقول بحزن:

- لا وجود لهذه لعذراء!

فيما يمطّ سافيلكا الكلام قائلاً:

- أدري - ي - ي! لقد كان موسى موجوداً قبل المسيح بوقت طويل! يا لهم من محتالين! يقولون معجزة، آ؟ يا لغريبي الأطوار!

- يستحقّ كلٌّ من الخفير والكاهن السجنَ جزاء ذلك! - قال لاريون بصوت خفيضٍ، خفيض. - لكي لا يقتلوا الله في نفوس الناس إرضاءً لأطماعهم!

شعرت باستياء من جَرّاء هذا الحديث، وسألت لاريون وأنا جالس فوق الوجاق:

- عمَّ تتكلم، أيها العمّ لاريون؟

صمتا، وراحا يتهامسان، وبدا عليهما الاضطراب. ثم صاح سافيلكا:

- ما بك؟ أنت تشكو من غباء الناس، و في الوقت نفسه لاتستحي، وتصنع من ماتفييكا أحمق آخر؟ لماذا؟

ثم وثب سافيلكا، وقال لي:

- انظر ياموتكا، ها هي أعواد الثقاب! وها أنا أدعكها في يديّ... هل ترى؟ أطفئ النور يا لاريون!

فأُطفِئَ المصباح، وإذا بي أرى يَدَيْ سافيلكا تشعّان في الظلمة بدخان أزرق كالأيقونة العجيبة.كان ما رأيته مرعباً ومحزناً.

كان سافيلكا يقول كلاماً ما، فيما حشرت نفسي في زاوية الوجاق، وسدَدْت أذنيَّ بإصبعيّ. وعندها لحق بي الاثنان ومعهما زجاجة فودكا، وظلا يحكيان لي، يقاطع أحدهما الآخر، عن العجائب الحقيقية، وعن انتهاكات النصّابين لعقيدة الناس، حتى غفوت وأنا أستمع إلى تلك الأحاديث.

وبعد ظهور الأيقونة بيومين أو ثلاثة جاء إلى القرية عدد كبير من الكهنة ورجال الحكومة، فصادروا الأيقونة، وعزلوا الخفير من منصبه، وهدّدوا الكاهن بالمحاكمة. وحينها اقتنعت بأنها خدعة، رغم أنه كان صعباً عليّ أن أصدّق أن ذلك كلّه ما كان إلا لابتزاز دراهم الفلاحين وأبسطة نسائهم.

منذ بلغت السادسة من عمري بدأ لاريون يعلّمني على طريقة الأكليروس، حتى إذا ما افتُتحت مدرسة في قريتنا بعد شتاءين، أرسلني لاريون إليها. في بادئ الأمر ابتعدت عن الشمّاس بعض الشيء. ولمّا كان التعليم قد أعجبني، مضيت أقرأ الكتب بحرارة،

فكان لاريون يسألني عن دروسي، ثمّ يستمع إليّ ويقول:

- ممتاز، يا موتكا!

وذات يوم قال لي لاريون:

- إنَّ دماً طيباً يجري في عروقك، يبدو أن والدك لم يكن غبياً!

فسألته:

- وأين هو الآن؟

- من يدري!

- وهل هو فلاح؟

- لا يمكن قول شيء سوى أنه رجل. أمانسبه فمجهول. لكنْ هيهات أن يكون فلاحاً! لأن قسماتِ وجهك وبَشَرتَك، فضلاً عن طبعك، تشي بأنك من السادة.

لقد انطبعت كلماته العفوية هذه في ذاكرتي، ولم تحمل لي الخير. فما إن ينعتني أحد في المدرسة باللقيط حتى أثور، وأصرخ مخاطباً رفاقي:

- أنتم أبناءُ الفلاحين، أما أبي فمن السادة!

لقد اقتنعت بذلك كل الاقتناع، حيث كان لا بد لي من شيء أذود به عن نفسي ضدّ سخرية الآخرين، ولم يكن في ذهني سوى هذا السلاح. لكنهم مقتوني، فصاروا يطلقون علي النعوت، ورحت أدخل معهم في عراك. فقد كنت صبيّاً قوياً، أُحسِن القتال. وأخذ الأهالي، آباء وأمّهات، يشكونني إلى الشمّاس قائلين:

- أدّبْ لقيطك!

بينما كان بعضهم يشدّونني من أذنيّ كما يحلو لهم، ولا يشتكون.

قال لي لاريون حينها:

- قد تكون، يا ماتفيّ، ابن جنرال، لكنّ ذلك قليل الشأن! لأن كل الناس يولدون بطريقة واحدة، وهذا يعني أن الجميع متساوون.

غير أن الوقت كان قد فات، لأنني كنت في حوالي الثانية عشرة من عمري آنذاك، وكانت الإهانات تجرحني بعمق. وهذا ما نفّرني من الناس، فعدت أقرب من الشماس من جديد، وأمضينا الشتاء بطوله نتجوّل معاً في الغابة، نصطاد الطيور، وساءت دراستي في هذه الأثناء.

أنهيت المدرسة وأنا في الثالثة عشرة من عمري، فتساءل لاريون عمّا يصنعه بي؟ كنّا أحياناً نتنزّه في الزورق، أنا أدير المجذافين، ولاريون يوجّه الدفة، ويأخذني بأفكاره فيطوف بي جميع دروب المصير البشري، يحدّثني عن المستقبل الذي يمكن أن يكون لي في الحياة.

تارة يراني كاهناً، وتارة أخرى جندياً أو بائعاً، وكلّ ذلك لا يعجبني.

فيسألني:

ـ من إذاً، يا موتكا، ستكون؟

ثم ينظر إليّ ويقول ضاحكاً:

- لا بأس. لا تخف! إذا لم تسقط فإنك ستنجو! ولكن تجنّب الخدمة العسكرية، فهي نهاية الإنسان!

في آب، بعد عيد القديس "أوسبينيف" بوقت قصير، ذهبت مع لاريون إلى بحيرة "لوبوشن" لصيد أفراخ سمك القرموط، وكان لاريون ثملاً قليلاً، فاصطحب معه الخمرة. وراح يجرع من القارورة جرعات صغيرة، ثمّ يتنحنح ويغني ملء صوته.

كان زورقه سيئاً، صغيراً ومخلخلاً، أتى لاريون فيه بحركة حادّة جعلت الماء يتدفق إلى الزورق فانقلب، وسقطنا في الماء.لم تكن تلك أول مرة، فلم أشعر بالخوف. ولما عمْتُ رأيت لاريون يسبح إلى جانبي، ويهزُّ رأسه قائلاً:

- اسبح إلى الشاطئ، وسأدفع أنا هذه العربة اللعينة إلى هناك!

كانت الضفة قريبة، والتيار ضعيفاً، فسبحت بكل طمأنينة، وإذا بي أشعر وكأن شيئاً أمسك برجليّ، أو أنني صادفت تياراً بارداً، فالتفتُّ إلى الخلف لأرى زورقنا يسبح مقلوباً، وما من أثر للاريون. لا أثر له في أيّ مكان!

صعقني الرعب وكأن حجراً أصاب قلبي، فأصابني تشنّج، وأخذت أغطس نحو القاع.

في تلك الساعة كان ناظر المزرعة، يغور تيتوف، يجتاز الحقل بعربته، فرأى كيف انقلب بنا الزورق، ورأى اختفاء لاريون. وعندما بدأت أغرق كان تيتوف يخلع ثيابه على الضفة، فانتشلني من الماء. أما لاريون فلم نعثر على جثته إلاّ في الليل.

سرعان ما شعرت بالظلمة والبرد من حولي، ما إن خمدت روحه الحبيبة. وعندما دفنوه كنت مريضاً، طريح الفراش، فلم أتّمكّن من وداع هذا الإنسان الغالي إلى مثواه الأخير، وما إن تعافيت حتّى

كان أول ما فعلته أنني ذهبت إلى قبره، وجلست هناك، حتّى أنني لم أتمكّن من البكاء من شدة حزني. كان صوته يرنّ في ذاكرتي، وأحاديثه تستعيد الحياة، لكنّ ذلك الإنسان الذي يمكن أن يضع يده الحنون على رأسي لم يعد موجوداً على هذه الأرض. وصار كل شيء غريباً ونائياً... فأغمضت عيني، وبقيت جالساً... وإذا بشخص يمسكني من يدي، ويساعدني على النهوض. نظرت فوجدته تيتوف. قال لي:

- هيا بنا، فليس لك ما تفعله هنا!

وأخذني معه. فمشيت.

قال لي:

- يبدو، أيها الصبيّ، أن قلبك طيّب، لا تنسى من أحسن إليك.

لكن هذه الكلمات لم تخففّ عني. فبقيت صامتاً، وتابع تيتوف:

- كنت قد فكّرت، منذ أن عثروا عليك، أن آخذك طفلاً لأربيّك، لكن الوقت لم يسعفني حينها. ولعل الله أراد ذلك، ما دام قد وضع حياتك بين يديّ من جديد. فلتعش معي إذاً!

حينها، كان سيانَ عندي أن أعيش أو لا أعيش، ولم يكن يهمنّي مع من أعيش وكيف. وهكذا انتقلت من حال إلى حال، دون أن أنتبه إلى ذلك.

بعد مضي فترة من الزمن انتبهت، فوجدت تيتوف رجلاً طويل القامة، متجهّماً، حليق الرأس مثل جندي، وله شاربان كبيران وذقن حليقة. كان يتكلم على مهل، كمن يخشى أن يقول ما لا

ضرورة له، أو لا يثق بما يقول. كان يشبك يديه وراء ظهره دائماً، أو يضعهما في جيبيه كأنه يخجل منهما. أعرف أن الفلاحين في القرية، وحتى في المنطقة كلها، لا يحبّونه. وقد تعرض للضرب بالعصا في قرية "مالينِنِا" قبل قرابة سنتين. يقولون إنه يحمل المسدّس دائماً. كانت زوجته، نَستاسيا فاسيليفنا، امرأة جميلة، ولكنها مريضة، نحيلة الجسم، تمشي بصعوبة، ليس في وجهها قطرة دم، وعيناها كبيرتان، تتقدان بلا ألق، وتشيان بشيء من الخوف. وكان لهما ابنة اسمها "أوليا" تصغرني بثلاث سنوات، هزيلة وشاحبة مثل أمها.

بيتُهم يخيّم عليه الهدوء، فالسجّاد السميك على الأرض يمتصّ وقع الخطوات، وأهل البيت يتحدثون قليلاً وبما يشبه الهمس، وحتى ساعة الحائط تُصدر تكّاتها بحذر. وأمام الأيقونات مصابيح مشتعلة دائماً، وفي أرجاء المنزل تنتشر صور ملصقة مختلفة ليوم الحساب، وتعذيب القديسين، وآلام القدّيسة بربارة. وفوق سرير في الزاوية يستلقي هرٌّ هرِم، سمين، رماديّ اللون، يتأمّل كلّ ما حوله بعينين خضراوين، ويراعي الهدوء. وسط هذا السكون الحذر ظللت مدّة طويلة لا أتمكّن من نسيان غناء لاريون، وعصافيرنا.

اصطحبني تيتوف إلى مكتبه، وبدأ يعلّمني التعامل مع الأوراق. ورأيت، وأنا أعيش عند تيتوف، أنه يراقبني، ويظلّ صامتاً كمن ينتظر أن أقوم بفعل مريب. كان ذلك يحرجني.

لم أكن مرحاً يوماً. وفي ذلك الحين أصبحت متشائماً تماماً، فما من أحد حولي أكلّمه، بل ولم أكن راغباً بذلك أصلاً.

كنت متكدّر النفس، لاتعجبني عائلة تيتوف بهدوء حياتها

المريب. فشرعت أتردّد على الكنيسة، أساعد الحارس فلاسي والشمّاس الجديد، وهو شابٌ جميل الطلعة، من أسرة معلّمين، غير متحمّس للصلاة، يتملّق الكاهن فيقبّل يده، ويتبعه أينما ذهب، مثل كلب. عبثاً كان يصيح في وجهي، فلستُ أقلّ منه معرفة بأداء الصلوات، وأقوم بكل شيء خير قيام.

يومها دخلت الجزء الأصعب من حياتي، لقد أحببت الله.

كنت ذات مرّة، قُبيل صلاة الليل، أرتّب الشموع أمام أيقونة العذراء، وإذا بي أرى مريم وطفلها ينظران إليّ بجدية وحنان... فبكيت، وركعت على ركبتي أصلّي... ربما من أجل لاريون. لا أعرف إن كنت أطلتُ صلاتي أم لا، غير أني شعرت بارتياح، فقد انتشر الدفء في قلبي وانتعشت.

كان فلاسي يعمل في المذبح، يتمتم كلماته الغامضة. وعندما دخلت عليه، نظر إليّ وسألني:

- ما لك مسرور، أم أنك وجدت كوبيكاً؟

أعرف لماذا سألني هذا السؤال، فكثيراً ما كنت ألاقي نقوداً على الأرض، لكنّ كلماته بدت لي هذه المرة مزعجة، وكأنه وخزني في قلبي. فقلت له:

- لقد صلّيت لله.

فسألني:

- ولأيّ منهم؟ فلدينا هنا أكثر من مائة إله! وأين الحيّ منهم؟ أين الحقيقيّ، لا المصنوع من خشب! فلتبحث عنه!

كنت أعرف قيمة كلماته، ولكنها آذتني حينها. كان فلاسي طاعناً في السن، لا يكاد يقوى على الحركة، ركبتاه

مقوّستان، يتمايل في مشيته دائماً، كأنه يسير على حبل، ليس في فمه سن واحد، وجهه كامد يشبه خرقة قديمة تنظر إليك منها عينان مجنونتان. وكان ملاك موته طاعناً في السن أيضاً، لا يقوى على رفع يده على هذا العجوز الذي بدأ يفقد عقله، وسيطر عليه الهذيان قبل وفاة لاريون ببعض الوقت. كان يقول:

- لستُ حارساً لكنيسته، بل للبهائم. فأنا راعٍ، وكما ولدت راعياً سأموت راعياً! قريباً سأرحل عن الكنيسة إلى البرّيّة.

كان معروفاً أنه لم يرع الماشية في حياته قَطّ. وكان يقول:

- الكنيسة كالمقبرة، مكانٌ ميت، أما أنا فأريد أن أتعهّد شيئاً حيّاً، أريد أن أرعى البهائم، فقد كان أجدادي رعاةً، وأنا أيضاً كنت راعياً حتى بلغت الثانية والأربعين من عمري.

كان لاريون يضحك منه، وذات مرة سأله ضاحكاً:

ـ في قديم الزمان كان هناك إله للبهائم يدعى فيليس، ألا يكون جدّك؟

فأجبره فلاسي على أن يروي له قصة فيليس بالتفصيل، حتى إذا ما فرغ من سماعها، قال:

- أَجَلْ، إنه جدّي! فأنا أعرف منذ زمن بعيد من أكون، ولكنني أخاف الكاهن! مهلاً، أيها الشمّاس، ولا تخبره بذلك! سأخبره بنفسي عندما يحين الوقت، بل...

كان هذا ما استقرّ عليه رأي العجوز .

وبالرغم من معرفتي بجنونه، فإنه يربكني. أقول له:

- حذارِ من عقاب الله!

فيخفق بفكّيه اللحميين:

- أنا نفسي إله! أجَلْ!

وفجأة تعثر بدرجة السلّم، وكاد أن يسقط، فرأيت في ذلك إشارة.

لقد أحببت كلّ شيء كَنَسي حبّاً جمّاً، وانغمست في الكنيسة بكلّ حرارة قلبي الطفولي. فصار كل شيء فيها مقدساً في نظري، ليس الأيقونات وحدها، بل والكتب والشمعدانات والمبخرة، وحتى فحمها أصبح عزيزاً على قلبي! كنت ألمس كل شيء بتهيُّبٍ وفرح رهيب، ويتجمّد قلبي حين أدخل المذبح، وأجدني مستعدّاً لأن أقبّل بلاط الأرض فيه، إذ أشعر أنني تحت شعاع عين الله التي توجّه خطواتي، وتمنحني قوّة ليست من هذه الدنيا، وتدفّئني بنور ساطع يبهر الأبصار، حتى لا يعود الإنسان يرى شيئاً سوى نفسه. كنت أقف في الكنيسة وحدي، يحيط بي الظلام، بينما يغمر النور قلبي لأن الله فيه، ولا مكان لأحزان الطفولة، ولا لآلامي، ولا لأيّ شيء من حولي، لما هو حياة بشرية. كلّما اقترب الإنسان من الله ابتعد عن الناس، لكنني، بالطبع، لم أكن يومها أدرك ذلك.

رحت أقرأ كلّ ما كان في الكنيسة من كتب، كنت أقرأ فيمتلئ قلبي بوقع جمال كلمة الله، وتنهل روحي من عذوبتها بتعطش حتى انبثق في نفسي ينبوع من دموع الامتنان. كنت أوّل من يأتي إلى الكنيسة، فأركع على ركبتي أمام أيقونة الثالوث المقدّس، وأذرف الدموع بسهولة وطاعة دون تفكير أو صلاة، فما من شيء أحتاج إليه لأطلبه من الله، لقد كنت أتعبّده بنزاهة.

أتذكّر كلمات لاريون:

- عندما تصلي شفتاك فإنهما تصليان للهواء وليس للّه، فاللّه يُنصت للأفكار وليس للكلام، كما يفعل البشر.

أما أنا فكنت أفتقر حتى للأفكار، أكتفي بالركوع على ركبتيّ، وبصمت أرتّل نشيداً بهيجاً، وأبتهج لمعرفتي أنني لست وحيداً في هذا العالم، وأنني تحت رعاية الله، وقريبٌ منه.

كانت تلك أياماً طيبة، أيامَ عيد هادئ بهيج. وكنت أحبّ أن أظلّ وحدي في الكنيسة، وأن لا يكون ثمة ضجيج ولا نأمة، فعندها أتلاشى في تلك السكينة، كأنني أبلغ الغيوم، فلا أعود أرى من عليائها بَشَرَاً، ولا ما هو بشريّ.

لكنّ فلاسي كان يزعجني وهو يجرّ قدميه فوق البلاط، ويرتجف كظلّ شجرة في مهبّ الريح، ويتمتم بفمه الخالي من الأسنان:

- لا شأن لي بالبقاء هنا، فأنا ما خلقت لهذا العمل! أنا الإله، راعي بهائم الأرض كلّها، نعم! سأرحل غداً إلى البرّيّة! لماذا جاؤوا بي إلى هنا حيث البرد والظلام؟ أهذا هو عملي؟

كان يقلقني بتجديفه، فيخيّل إليّ أنه يدنّس طهارة الكنيسة، ويسيء لله بوجوده في بيته.

لاحظ الجميع، في تلك الفترة، تقوايَ وتفانيّ في العبادة، فصار الكاهن، عندما يصادفني، ينخر بأنفه على طريقته، ويباركني، فيكون عليَّ تقبيلُ يده الباردة دائماً، والمبللة بالعرق. كنت أحسده على قربه من الأسرار الإلهية، ولكنني كنت أخشاه، ولا أحبه.

أما تيتوف فكانت عيناه الباهتتان، الصغيرتان كزرّين، لا تكفّان عن النظر إليّ. إذ كان، هو وأهل بيته قاطبة، يعاملونني

بحذر، وكأنني مصنوع من زجاج. وقد سألتني ابنته أولغا عدّة مرّات بصوت خافت:

- هل أنت قدّيس؟

كانت تشعر بالارتباك أمامي، حتى عندما أتحلّى باللطف وأنا أحكي لها سِيَرَ القدّيسين أو غيرها من المواضيع الكنسية. وفي أماسي الشتاء كنت أقرأ لهم الاستهلال، أو المفكّرة الدينية بصوتٍ عال، فيما تهبّ خلف النافذة عاصفة ثلجية هَوْجَاء، تدقّ على الجدرانّ، وتئزّ وتعوي من شدة البرد. وفي الغرفة يخيّم الهدوء، ويجلس الجميع دون حراك، فيحني تيتوف رأسه حتى لا يعود يظهر وجهه، وتنظر نستاسيا إليّ بعينين جامدتين، أمّا أولغا فيأخذها النوم، حتى إذا ما اشتدّ الصقيع ارتعدت والتفتت، ثم تبتسم لي بهدوء. وعندما لا تفهم كلمة كنسية ما، تسألني عنها، فيرنّ صوتها الناعم، ويعود الهدوء، ولا يبقى سوى صوت العاصفة الهدّارة تغنّي شاكية، وهي تجوب الحقول بحثاً عن الراحة.

أولئك القدّيسون الشهداء الذين ناضلوا في سبيل الله، ونذروا حياتهم وموتهم ليمجدّوا قوة الله، كانوا الأقرب إلى روحي. كما استأثر بقلبي المجذوبون، والمحسنون الذين يمحضون الناس حبّهم. لكنني لم أتفهم أولئك الذين كانوا يديرون ظهورهم للدنيا ويرحلون، طلباً لمرضاة الله، إلى الصحارى والكهوف، أولئك الزهّاد والنسّاك، ذلك أن الشيطان كان شديد القوّة أمامهم.

لم يكن لاريون يعترف بوجود الشيطان، ولكنْ كان عليه أن يُقرّ بوجوده، لأن سِيَرَ القديسين تجبره على ذلك، إذ لا يمكن، بدون وجود الشيطان، أن تفسّر سقوط الإنسان على الأرض. كان

لاريون يؤمن بأن اللّه وحده مَنْ خَلَق العالم، وهـو القهّار القـادر على كلّ شيء، ولكنْ مِن أين إذاً، جاء القُبحُ؟ تقول سِيَرُ القديسين إن الشيطان هو خالق كلّ قبيح. وقد اقتنعتُ بهذه الوظيفة للشيطان، أيْ أنّ اللّه يخلق حبَّة الكرز، فيخلق الشيطان العَلْقَم، ويخلق اللّه القُبّرة، فيخلق الشيطان البوم.

وكانت النتيجة أنني، رغم اعترافي بوجود الشيطان، لا أؤمن به ولا أخشاه، فقد كان الشيطان في نظري تفسيراً لوجود الشرّ، لكنّه في الوقت نفسه كان يزعجني، إذ أن وجوده يهين عظمة اللّه. وقد حاولت ألا أفكّر بذلك، غير أن تيتوف كان يدفعني دائماً إلى التفكير بالإثم، وقوّة الشيطان.

كنت مرّة أقرأ، وإذا به يسألني دون أن يريني عينيه:

- ما معنى "كامو"[3]، يا ماتفي؟

فأجيبه:

- تعني: إلى أين...

وبعد صمت يعود ليقول:

- كامو المفرّ من وجهك، وكامو المهرب من غضبك؟

فتتنهّد زوجته بعمق، وتزداد نظرتها إليّ خوفاً، وهي تتوقّع مني شيئاً ما. أمّا أولغا فتقترح عليّ، وهي ترفّ بجفني عينيها الزرقاوين:

- أنذهب إلى الغابة؟

ويسأل تيتوف:

- وهل كلمة "المفرّ" تعني "الذهاب"؟

---

[3] كلمة من اللغة السلافية القديمة. — م.

- نعم.

وأذكر أنه، ذات مرّة، أخرج يديه من جيبيه، وأخذ يفتّل بهما شاربيه الطويلين، بينما كان حاجباه يرتعشان على جبينه، ثم أخفى يديه بسرعة، وقال:

- كان الملك داوود يسأل: إلى أين أفرّ! مَلكٌ، ويخاف! يبدو أن الشيطان كان أقوى منه بكثير. نبيّ وانتصر عليه الشيطان... إلى أين أذهب؟ تذهب إلى مخالب الشيطان، ولا داعي للسؤال! هكذا، إذاً! هذا يعني أنّنا نحن، العبادَ، لا جدوى من مقاومتنا الشيطان، ما دام الملوك يقعون بين يديه.

كثيراً ما كان يسلك هذا الدرب، ورغم أنني لم أكن أفهم مرمى أحاديثه، فقد كنت أستاء منها دوماً. ولما ذاع خبر تقيتّي، أخذ تيتوف يعظني:

ـ صلِّ بحماسة من أجلي ومن أجل أسرتي كلها، يا ماتفي! أرجوك أن تصلّي! ولتكن صلاتك مكافأة لي على أنني آويتك، وضمنت لك الدفء والحنان.

ماذا يكلّفني ذلك؟ فصلاتي أصلاً كانت بلا مضمون، تشبه تغريد العصافير للشمس، فصرت أصلّي من أجله ومن أجل زوجته، وأكثر ما صلّيت من أجل أولغا التي كانت تترعرع فتاة صالحة، هادئة، جميلة وحنوناً. كنت أتوجّه إلى الله بمزامير داوود وغيرها من الصلوات التي أعرفها، وكنت أستمتع بترديد تلك الكلمات المنظومة، المسجَّعة، ولكنْ ما إن أذكر تيتوف، وأقول: "ربّ ارحم عبدك غيورغي ..." حتّى تبرد حرارة قلبي، وينضب نبع أدعيتي، ويتعكّر صفو بهجتي، كمن يشعر بالخجل أمام الله، ولا أعود

قادراً على الاستمرار! فأنهض على قدميّ، وأشيح بناظري لكي لا أرى وجه الأيقونة، لست أعرف أمنزعج أنا، أم خجِل. كان ذلك يقلقني، فلماذا يقع لي هذا يا تُرى؟ حاولت أن أفهم السبب فلم أستطع، إلا أنني كنت أشعر بالأسف حين تختفي بهجتي إثر اصطدامها بهذا الرجل.

ولما غدا الناس يلتفتون إليّ، غدوت ألتفت إليهم أيضاً.

كنت إذا خرجت إلى الشارع في الأعياد نظر الناس إليّ بفضول، بعضُهم يُلقي عليَّ التحية باحترام، وبعضُهم بسخرية، لكنّ الجميع كان يلاحظونني، ويقولون:

- ها هو تقيُّ قريتنا!

- لعلّك ستصبح قدّيساً، يا ماتفي؟

- لا تسخروا منه، يا شباب، لإنه ليس كاهناً، وإيمانه بالله ليس من أجل المال!

- أليس بين القدّيسين من كان فلاحاً؟

- أخذوا منّا كل شيء، ولم نحصل حتّى على فيء!

- وهل هو فلاح؟ إنه سيِّد متستّر!

بعضهم يكيل لي المديح، وبعض آخر يرميني بالإهانة.

كنت في ذلك الحين أتبع نهجاً خاصّاً، أتمنّى أن أعيش مع الجميع بسلام، شريطة أن يعاملني الجميع بلطف. وقد سعيت لتحقيق ذلك، غير أن السخرية كانت تحول دونه. كان ميغون أكثر من يضايقني. فإذا ما رآني ركع على ركبتيه، وانحنى أمامي، وراح ينوح:

- أنحني إجلالاً لقداستك! صلِّ من أجل سافيلكا، ألن يمنّ

الله عليه بشيء؟ علّمني كيف أُرضي الله، هل أتوقّف عن السرقة مؤقّتاً، أم أسرق كثيراً، ثمّ أُقدّم للكنيسة أكبر شمعة؟

وعندها يقهقه الناس، فأستغرب وأحزن وأنا أستمع لسخريات سافيلكا هذه.

أما هو فيتابع:

ـ انحنوا لهذا التقي، أيها الأرثوذكسيون! إنه يغشّ الفلاح في مكتب المحاسبة، ثم يتلو الكتاب في الكنيسة، فلا يعود الله يسمع بكاء ذاك الفلاح.

كنت حينها في السادسة عشرة من عمري، وأستطيع آن أحطّم خطمه جزاء لسخريته، لكنني، بدلاً من ذلك، صرت أتهرّب منه، فلاحظ ذلك، ولم يعد يكفّ عن مضايقتي. ثمّ ألّف أغنية، كان يمشي أيام الأعياد في الشارع ويغنيّها وهو يدندن اللحن على البلالايكا:•

يعانق الأسياد الفتيات
فتنتفخ بطونهن
ونتيجة لهوِ الأسياد
يَلِدْنَ أولاد كلاب
فيرمين بهم إلى الأسياد
لكنّ هؤلاء لا يطعمونهم عبثاً
فيُجلسونهم في مكتب المحاسبة
لغشّ الفلاحين البؤساء!

• البلالايكا آلة موسيقية وترية فولكلورية روسية. ـ م.

كانت الأغنية طويلة نال سافيلكا فيها من الجميع، ولكننا، تيتوف وأنا، كنّا أكثر من أصابته بالأذى. لقد كان سافيلكا يستفزّني إلى حدّ أنني ما إن أرى لحيته التافهة، وقبعته المائلة فوق أذنه، ورأسه الأجلح، حتى يرتعد جسمي كلّه غيظاً، وأتمنّى أن أنقضّ عليه فأكسِّره تكسيراً.

ولكنني رغم صغر سني يومها، كنت قادراً على كبح جماح عواطفي، إذ كان سافيلكا يتبعني مدندناً، فأتظاهر بأنني لا أضيق به ذرعاً، وأسير ببطء كأنني لا أسمع شيئاً .

أخذت أُكثر من الصلاة، شعوراً منّي بأنني لا أملك ما يحميني سواها، غير أن صلواتي صارت تنطوي الآن على كلمات الشكوى والمرارة:

- لماذا يا إلهي؟ هل هو ذنبي أنّ أبي وأمّي تخلّيا عنّي، فألقيا بي رضيعاً إلى الحرش، مثل هرّ؟

إلا أنني لم أجد لي ذنباً آخر، ذلك أن البشر مختلفون في حياتهم، إذ يعتاد كل منهم على عمله، ويجعل من هذه العادة قانوناً، فكيف لك أن تعرف حالاً ضِدّ مَن توجّهك هذه القوّة الغريبة؟

لكنني، رغم ذلك، بدأت أعتاد، لأنني كنت أزداد قلقاً ونفاد صبر.

كان صاحب المزرعة، قسطنطين نيكولايفتش لوسِف، رجلاً غنياً، يملك أراضي واسعة، وكان نادراً ما يأتي إلى قريتنا، لأنها كانت تُعَدُّ علامة شؤم بالنسبة لعائلتهم، ففيها خُنِقت أمُّه ذات يوم، وسقط جدّه عن جواده فمات، وفرَّت زوجته منه. لقد رأيت هذا

المالك مرتين: كان طويل القامة، مكتنز الجسم، يضع نظّارة ذهبية، ويرتدي سترة ضيّقة وقبعة حمراء الأطراف. يقال إنه موظّف ذو شأن عند القيصر، وأنه واسع العلم، يؤلّف كتباً. ومع ذلك فقد شتم تيتوف شتماً مقذعاً مرتين، وهدده ملوّحاً بقبضته أمام أنفه.

كان تيتوف صاحب السلطة والنفوذ في مزرعة "سوكوليه". وكانت القرية صغيرة، يزرع فلاحوها من الحنطة ما يسدّ الحاجات، أما ما تبقّى من الأراضي فكان يؤجّر للفلاحين. ثم تقلّصت المساحات المؤجَّرة، وأُمِر الفلاحون بزراعة القطن، بعد أن افتُتح معمل للنسيج على مقربة من القرية.

كان الشخص الثاني معي، إيفان مكاروفتش يودن، يجلس في زاوية المكتب، وهو رجل بليد، ثملٌ دائماً. كان، قبل ذلك، يعمل في قسم التلغراف، لكنهم طردوه بسبب السّكْر. أما هنا فتولّى جميع السجلاّت، والمراسلات، والعقود مع الفلاحين. وكان يطيل الصمت على نحو يبعث على الدهشة، وإذا ما كلّمه أحد اكتفى بهزّ رأسه، وتضاحك بهدوء، وقد يقول أحياناً:

- هكذا.

وهذا كلّ شيء.

كان ضئيل الجسم، هزيلاً، وجهه مستدير ومتوذّم•، لا يكاد المرء يرى عينيه، أصلع الرأس، يمشي على رؤوس أصابعه، دونما جَلَبة ويتعثّر، كأنه أعمى.

• الوذمة انتفاخ مرضي قد يترافق بالاحمرار. ـ م.

في عيد "عذراء قازان" • أسكر الفلاحون يودن فمات، وبقيت في المكتب وحدي مسؤولاً عن جميع الأعمال. فعيّن لي تيتوف مرتَّباً قدره أربعون روبلاً في السنة، وجعل ابنته أولغا تساعدني.

كنت أرى، حتّى قبل ذلك، أن الفلاحين يدورون حول المكتب كما تدور الذئاب حول فخّ، إنها ترى الفخّ نُصْبَ عينيها، لكنها تريد أن تأكل، والطعمُ يناديها، فتُلقي بنفسها إلى التهلكة.

وطبيعيّ أنه، عندما بقيت وحدي في المكتب، تكشّفت أمامي جميع السجلات والمخطّطات، وسرعان ما رأيت، بالرغم من قلة خبرتي، أن كلّ ما في مزرعتنا نهبٌ سافِرٌ، وأنّ الفلاحين غارقون في الديون والالتزامات، ولا يعملون لأنفسهم، وإنما لتيتوف. لا يمكنني القول إنني فوجئت، أو شعرت بالخجل. ورغم إدراكي سبب عواء سافيلكا، فإنني لم أَعُدَّه محقّاً، فلست أنا من اخترع النهب!

ورأيت أن تيتوف أيضاً ليس طاهر الذيل أمام سيده، فهو يملأ جيبه بقدْر ما يستطيع. لقدكنت أتعامل معه بشجاعة حتى قبْل ذلك التاريخ، إدراكاً منّي أنه محتاج إليّ لأمر ما، أمّا الآن فقد فهمت أنه محتاج إليّ لأتستّر على سرقاته أمام اللّه.

كان يناديني آنذاك بابنه العزيز، وكذلك كانت تفعل زوجته. وكانا يُلبسانني ثياباً حسنة، وبالطبع أقول لهما شكراً، ولكنني لا أشعر بالارتياح إليهما، ولم يُدْخِل حبُّهما الدفءَ إلى قلبي. على أن صداقتي مع أولغا كانت تتوطّد أكثر فأكثر، إذ أعجبتني

• قازان عاصمة جمهورية تترستان في شبه جزيرة القرم في روسيا الاتحادية . ـ م.

ابتسامتها الهادئة، وصوتها الحنون، وحبُّها للأزهار.

كان تيتوف وزوجته ذليلين أمام الله، يمشيان برأس منكّس، مثل حصانين مقيَّدَي الأرجل، وكأنهما يخفيان إثم السرقة العظيم وراء وجلهما الخَنوع. لم تكن تعجبني يدا تيتوف، إنه يخفيهما دوماً، وبذلك يبعث في أسوأ الظنون، فقد يكون خنق بهما شخصاً، أو أنهما ملطختان بالدماء؟

وكانا دائماً، هو وزوجته، يطلبان إليّ:

- صلّ من أجلنا، نحن الآثمَيْن، يا موتيا!

وذات مرة ضقت بهما ذرعاً فسألتهما:

- وهل أنتما أثقل إثماً من الآخرين؟

تنهّدت نستاسيا وخرجتْ، أما هو فأشاح بوجهه جانباً دون أن يجيب.

تراه في بيته شارداً على الدوام، لا يتحدَّث مع زوجته وابنته إلا قليلاً، وفي ما يخصّ العمل حصراً.لم يتلاسن مع الفلاحين يوماً، ولكنه كان متعجرفاً عجرفة أشنع من الشتائم. ولم يكن تيتوف يتنازل لهم في شيء، فهو إذا ما قال كلمة أصرّ عليها، لايتزحزح عنها، كأنه مطمور في الأرض حتى الحزام.

قلت له ذات مرة:

- ليتك تتساهل معهم!

فأجاب:

- لا تتنازل للناس ولو عن شبر واحد، وإلا ضعت!

وفي مرة أخرى أجبرني على تزوير الحسابات، فقلت له:

- إن هذا لا يجوز!

- لماذا؟

- إنه إثم.

- لست أنت من تجبرني على الإثم، بل أنا من يجبرك عليه. اكتب كما آمرك، لن يسألك أحد، فما أنت إلا يدي اليمنى! لا تَخَفْ، إنك لا تفعل ما يخالف تقواك! فما من أحد، لا أنا ولا غيري، يستطيع أن يعيش بعشرة روبلات في الشهر. عليك أن تفهم هذا!

فجال في خلدي: "يا لك من تافه!"

ثم قلت:

– يكفي! يجب أن ينتهي هذا كلّه. وإذا لم تتوقف عن العبث، فإنني سوف أفضح أفعالك أمام القرية.

رفع شاربيه إلى أنفه، وكشّر عن أسنانه، وحملق بعينيه المستديرتين، وأخذ كلّ منا يقيس صاحبه لنعرف من منّا أطول القامة.

فسألني بصوت خافت:

- أجادٌّ أنت؟

- جادّ!

رنّت ضحكة تيتوف رنينَ حُفنة من دراهمَ نثرَها على الأرض، وقال:

ـ حسناً، أيها التقيّ! لعلّ هذا ما أستحقّه، فقد سئمتُ من الدوران حول الموائد لألتقط الفُتات. لقد ضاقت الدنيا باللصوص فصاروا شرفاء!

ثم ذهب، وصَفَق الباب خلفه بقوّة جعلت الزجاج يئزّ في النوافذ.

خُيّل إلي وكأن تيتوف تقلّص منذ ذلك اليوم، وكفّ عن مضايقتي.

كان تيتوف بخيلاً كبيراً، ورغم أنه لا يمنع عن نفسه شيئاً، إلا أنه يعرف قيمة القرش. كان محبّاً للحلوى، شديدَ الطمع بالنساء. ولما كان واسع السلطة، فإن النساء لم يكنّ يتجرّأن على صدّه، وكان يستغلّ ذلك. على أنّه لم يكن يمسّ الفتيات، خوفاً من العواقب، على ما يبدو، أمّا النساء فما من واحدة منهنّ إلا ووقعت في شباكه ولو مرّة واحدة.

وقد حرّضني تيتوف غير مرّة على الاقتداء به، قائلاً:

ـ ما لك تخجل، يا ماتفي؟ إن إغواء المرأة كمنح الصدقة! ليس في القرية امرأة لا تفتقر إلى الحنان، لأن أزواجهّن رجال ضعفاء مرهَقون، فماذا ينتظرن منهم؟ أمّا أنت، فشابّ قويّ ووسيم. ماذا يكلفّك احتضان المرأة؟ ثم إنك ستستمتع أيضاً...

كان رجلاً سافلاً، يقترف نذالاته بطرق ملتوية.

سألني ذات مرة:

- ما رأيك يا ماتفي، هل التقيُّ قويّ عند الله؟

ما كنت أحبُّ أسئلته، فقلت له:

- لا أدري.

فكرّ قليلاً، وعاد ليقول:

ـ انظر، لقد أخرج الله لوطاً من سدوم، وأنقذ نوحاً، بينما هلَك آلاف الناس بالنار والماء. ثمّ يقول الله: "لا تقتل"؟ يتراءى لي أحياناً أن آلاف الناس هلَكوا بسبب وجود الأتقياء بينهم. فقد رأى الله أن بعض الناس يستطيعون أن يعيشوا أتقياء حتّى في ظلّ شرائعه

القاسية كلّ هذه القسوة. فلو أنه لم يكن في سدوم تقيّ واحد لرأى الله استحالة التقيّد بشرائعه، ولخفّف وطأتها، ولم يُهلك هذا العدد الكبير من البشر. يقولون عنه إنه واسع الرحمة، فأين نجد ذلك؟

لم أدرك وقتها أن هذا الرجل يبحث عن حرية الإثم، إلا أن كلماته كانت تثير غضبي.

أقول له:

- إنك تجدّف! فأنت تخاف الله، ولكنك لا تحبّه!

فأخرج يديه من جيبيه، وعقدهما خلف ظهره، واربدَّ لونه، علامةَ الغضب.

أجاب:

- لا أعرف إن كان هذا صحيحاً أم لا! لكنني أعتقد أنكم، معشرَ المصلّين، تُعَدُّون عند ربّكم معياراً لذنوب الآخرين. ولولاكم لَحارَ الله في تقييم الذنوب!

بعد ذلك ظلّ تيتوف يتجاهلني مدة طويلة، بينما بدأ ينمو في روحي حقد عليه لا يُطاق، لقد صار في نظري أسوأ من ميغون.

في الليل، عندما ذكرت اسمه في صلاتي، التهبت روحي غضباً، ولعلّي في تلك الساعة نطقت بأوّل دعاء يخصّ البشر:

- إلهي، لا أريد منك أن ترحم اللصّ، بل أطلب منك أن تعاقبه! فلا تدعْه يسرق الفقراء دون عقاب!

حتّى إن شدّة الحرارة في دعائي على تيتوف جعلتني أخاف عليه خوفاً عظيماً.

بعد ذلك بفترة وجيزة اصطدمت مع ميغون، حين جاء إلى

المكتب يطلب أليافاً (*)، وكنت وحدي، فسألته:

- لماذا تسخر مني، يا سافيلكا؟

كشّر عن أسنانه، وغرز عينيه الحادتين في وجهي، وقال:

- إن طلبي صغير، فأنا جئت أطلب أليافاً!

ارتعدت رجلاي، وانعقدت قبضة يدي تلقائياً، فأمسكت بعنقه وهززته قليلاً:

- بماذا أذنبتُ؟

لم يخَفْ ولم ينزعج، واكتفى بإبعاد يدي عن عنقه وكأنه هو الأقوى ولست أنا، وقال:

- يصعب على المرء أن يتكلّم وهم يخنقونه. فلا تلمسْني، لقد ذقت أشكالاً كثيرة من الضرب، ولن يجديَك نفعاً أن تضربني. ولا حاجة بك للعراك، وإلا نقضت جميع الوصايا.

كان يتكلم بهدوء، وخفّة، ولهجة مازحة.

صرخت به:

- ماذا تريد؟

- أليافاً.

رأيت أنني لن أتغلّب عليه بالكلام، وأن غضبي قد تلاشى، وما عدت أشعر إلا بالإهانة أمامه. فقلت:

- كلّكم وحوش! هل يجوز أن يسخر المرء من إنسان لأن والديه تخلّيا عنه؟

أما هو فيرشقني بكلمات مسجوعة كأنها حجارة:

(*) ألياف نباتية تصنع منها أحذية الفقراء. ـ م.

- لا تتصنع الفقر بهذه الطريقة، فنحن نعرف الحقيقة: أنت تأكل الخبز المسروق، لا لأنك أعمى أو مصاب بالحروق.

قلت:

- كذّاب، فأنا أكسِب لقمتي بعرق جبيني...

- طبعاً، لا يمكنك أن تسرق ولو دجاجة من غير تعب، هذا معروف!

ثم نظر إليّ وفي عينيه سخرية شيطانية، وقال مشفقاً:

- آه، يا ماتفي، لقدكنتَ طفلاً رائعاً! لكنك أصبحت فأرَ كتبٍ ومتزمّتاً، ومِثلُك مثلُ كلّ لصوص الأرض تقيم شريعة الله على أساسٍ ظالم، هو أن أيدي الناس ليست متساوية في الطول.

دفعتُه خارج المكتب. لا أريد فهم تسجيعاته، ظنّاً مني أنني ما دمت عبداً مخلصاً لله، فإن أفكاري أيضاً أكثر صحة من أفكار الآخرين. واعتراني إحساس بالوحدة والحزن، وشعرت بأن روحي أخذت تضعف.

لم أكن أستطيع الشكوى من الناس، لأنني لم أكن أسمح لنفسي بالنزول إلى هذا الحضيض، إما لعزّة نفسي، أو لأنني، رغم حمقي، لم أكن من الفرّيسيين. كنت أركع أمام أيقونة عذراء "أبالاك"، أتأمل طلعتها ويديها المرفوعتين نحو السماء. يومض اللهب في قنديلي، وظلٌّ هادئ يمسح الأيقونة، فيما ينساب هذا الظلّ على قلبي طيفاً بارداً، ويقوم بيني وبين الله شيء غير مرئي، وغير محسوس، يُثقِل عليّ. لقد فقدت بهجة الصلاة، وأصبحت حزيناً، وساءت أحوالي مع أولغا.

أما نظراتها إليّ فكانت تزداد حناناً، فقدكنت حينها في

الثامنة عشرة من عمري، شاباّ وسيماً، أجعدَ الشعر، أتمنى قربها ولكنني أخجل، إذ كنت حينها ما أزال بريئاً أمام المرأة، ولهذا كانت نساء القرية يضحكن مني. وخُيّل إليَّ أحياناً أن أولغا تبتسم بخبث أيضاً. وبلّذة فكّرت مراراً: "إنها ستكون نعم الزوجة لي".

كنا نجلس معاً في المكتب أياماً بطولها صامتَين، إلا إذا سألتني عن شيء يخصّ العمل أجبتها، ولا يتعدّى حديثنا ذلك.

كانت أولغا نحيلة الجسم، بيضاء البَشَرة، عينانها زرقاوان ساهمتان، ولكنها جميلة ورشيقة، غارقة في حزن هادئ وعصيٍّ عليّ.

ذات مرة سألتني:

- ما لك، يا ماتفي، أصبحت عبوساً؟

لم أحدّث أحداً عن نفسي من قبل، ولم أفكّر بذلك، بل ولم أكن توّاقاً إلى الكلام. وفجأة انفطر قلبي، فقلّبتُ مواجعي كلّها أمام أولغا. حدّثتها عن خجلي بسبب والدَيَّ، وعن سخرية الناس مني، عن وحدتي وخواء ر روحي، وحكيت لها عن أبيها كلّ شيءالم أكن أشتكي، بل كنتُ أُخرِج أفكاري من داخلي إلى الخارج، فقد تراكم منها الكثير، وكلّها سخيفة. كنت أتحسّر لكونها سخيفة. فقلت:

- أفضّل الذهاب إلى الدير!

تكدّرت أولغا، وطأطأت رأسها دون أن تجيبني. كان حزنها يروقني، لكنّ صمتها أحزنني.

غير أنها، بعد حوالي ثلاثة أيام، قالت لي بصوت خفيض:

ـ عبثاً تولي الناس كل هذا الاهتمام. ألا ترى أنّ كلاً منهم

يعيش منفرداً؟ طبعاً، أنت وحيد في هذه الدنيا الآن. أما عندما تصبح معيلاً لأسرة فإنك لن تحتاج إلى أحد، وستعيش مثل الجميع بين جدران بيتك.

أمّا أبي فلا تنتقدْه، فأنا أعلم أنه لا يحبه أحد، ولكن بمَ هو أسوأ من غيره، لا أعرف! أين نجد الحب؟

كانت كلماتها تعزّيني. إنني دائماً أنفّذ ما يخطر ببالي فوراً، وهكذا فعلت الآن، فقلت لها:

- هل تتزوجينني؟

فأشاحت بوجهها، وهمست:

- أتزوجك...

انتهى الأمر. وفي اليوم التالي حكيت لتيتوف ما جرى.

ضحك تيتوف ضحكة ساخرة، وعدّل شاربيه، وراح ينبش في روحي:

- أفضل طريق لك، يا ماتفي، هو أن تكون ابناً لي. قد تكون هذه مشيئة الله، أنا لا أجادل! فأنت شابّ جدّيّ، متواضع ومعافى، تصلّي لله من أجلنا، وأنت، بلا مجاملة، كنز بجميع المعايير! ولكنْ، لكي تعيش بنعيم يجب عليك أن تحسن تصريف الأعمال، وأنت لست عملياً. هذا شيء. أما الشيء الآخر فهو أنك ستُستدعَى لخدمة العلم بعد عامين، وسيكون عليك الالتحاق بالجيش. فلو أن لديك بعض المال، خمس مائة روبل مثلاً، لأعفيتك من الخدمة في الجيش، ولتدبّرتُ الأمر بنفسي. ولكنْ إذا لم تتوفر النقود، فإنك ستذهب، وتبقى أولغا وحيدة، لا هي زوجة، ولا هي أرملة...

راح ينشر قلبي بمنشارِ كلماته الثقيلة، فيما شارباه يرتجفان،

وتشعّ عيناه ببريق أخضر. وأتخيَّل الخدمة العسكرية فأشعر بحالة من الرعب والقرف، إذ أيّ جنديّ أنا؟ يكفيني صعوبةً أنّ عليّ أن أتعايش مع الناس في المهجع دائماً، وهذا لا يناسبني. فماذا عن السُّكْرَ، والشتائم، والإهانات؟ كلّ شيء في هذه الخدمة معادٍ للإنسان، أعرف ذلك. لقد سحقتني كلمات تيتوف. فقلت:

- إذاً، سأترهّب!

- لقد تأخَّرت! - ضحك تيتوف، - لن يقبلوك في الدير فوراً، ولكنك ستخدم في الجيش وأنت تلميذُ راهب. كلا، يا ماتفي، لا يمكن رشوةُ القدَر إلا بالمال!

وعندها قلت:

- أعطني النقود أنت، فلديك الكثير منها!

- آ - ا - ا، لقد حللتَ المشكلة ببساطة! لكنْ هل ذلك يناسبني؟ فكّرْ، فقد أكون اشتريت نقودي بإثم كبير، قد أكون بعتُ روحي للشيطان مقابل المال. وبيما كنتُ أتلطّخ بالآثام، كنتَ أنت تعيش تقيّاً، وما زلت تريد أن تعيش كذلك، وعلى حساب آثامي؟ من السهل على التقي دخول الجنة حين يحمله الآثم على ظهره. لكنني لا أرضى أن أكون حصاناً لك! يجب عليك أن تقترف الذنوب بنفسك، فقد يسامحك الله، ما دمت فعلت الخير من قبل!

نظرت إلى تيتوف، فخُيّل إليّ وكأنه أصبح أطول منّي بذراع، بينما أزحف أنا على مستوى قدميه. وأدركت حينها أنه يهزأ بي، فأنهيت الحديث. وفي المساء نقلت إلى أولغا كلمات والدها. فاغرورقت عيناها بالدموع، وارتعش وريد صغير أزرق بمحاذاة أذنها، فتردّد في قلبي صدى هذا الخفقان الحزين. قالت أولغا مبتسمة:

- وإذا لم يحصل ما نريد...
- بل سيحصل!

قلت لها بلا تفكير، ولكن كمن قطع بذلك على نفسه عهداً، أمام نفسه وأمامها، لا رجعة فيه.

ومنذ ذلك اليوم بدأتُ حياةً آثمة، إذ دخلتُ مرحلة مظلمة ثملة، وأخذت - وأنا بعدُ شابّ - أتخبّط مثل حمامة في سحابة من دخان حريق. كنت أشفق على أولغا، وأريدها زوجة لي. فأنا أحبّها، وأَهمُّ من ذلك أنني أرى أن تيتوف أقوى وأكثر ثباتاً مني في بعض الأشياء، وهذا ما كانت عزّة نفسي لا تحتمله. كنت أحتقر أعماله اللصوصية، وروحه القذرة. وإذا بي أكتشف فجأة أنَّ قوةً ما تعيش في هذه الروح، تنظر إليّ بتسلّط!

شاع في القرية خبر يقول إنني خطبت ابنة تيتوف ورفضوني، فغدوت موضع سخرية البنات، وثرثرة النساء، وتنكيتات سافيلكا. كان ذلك كله يستفزّني، ويعكّر روحي حتى يعمَّها الظلام.

فإذا شرعت بالصلاة، شعرت وكأن تيتوف يقف ورائي، يتنفّس في قَذالي، لذلك يختلط في صلاتي التشتت والتجديف، فلا أبتهل إلى الله، بل أفكّر في أموري، وماذا عساني أن أفعل؟ كنت أقول:

- ساعدني يا ربّ، وعلمّني كي لا أضلَّ سبيلك، ولا تتلطّخ روحي بالذنوب. أيُّها القويّ، واسع الرحمة، احفظ عبدك من الشرّ، وامنحه القوّة على صدّ الإغواء. لا تَدَعْ مَكر العدوّ يهزمني، ولا تحمِلْني على الشكّ في قوّة حبّك لعبدك!

وهكذا هبطتُ بالله من علياء روعته المكنونة، لأجعله يدافع

عن أعمالي الحقيرة. وبهذه الإهانة لله كنت قد بلغت درك الحقارة.

أما أولغا، فكانت كالشمعة تذوب حزناً يوماً بعد يوم. وأفكّر كيف ستعيش مع إنسان آخر، فلا أستطيع أن أتصوَّر إلى جوارها أحداً غيري.

يصنع الإنسان بقوّة حبّه شبيهاً له، ولهذا كنت أظنّ أن الفتاة تتفهّم روحي، وترى أفكاري، وأنني بحاجة إليها مثلما أحتاج إلى نفسي. ازدادت أمُّها كآبة، وغدت تنظر إليّ دامعة العينين، وهي صامتة، تتنهّد، فيما يخفي تيتوف يديه القذرتين، ويحوم حولي بصمت أيضاً، مثلما يحوم غراب فوق كلب يلفظ أنفاسه، ليقتلع عينيه ما إن تفارقه الحياة. مضى شهر تقريباً، وأنا لا أزال في الحالة نفسها، كأني وصلت شفا هاوية، ولم أعد أعرف كيف أجتازها. كانت تلك فترة عصيبة.

وذات يوم جاء تيتوف إلى المكتب، وقال لي بصوت خافت:

- ها هو الحظّ يبتسم لك، يا ماتفي، فاغتنمْه إذا أردت أن تصبح إنساناً!

أما الحظّ فهو أنه كان على الفلاحين أن يخسروا كثيراً من المال، لتربح المزرعة بعضَ الفُتات، ويحصل تيتوف على حوالي مائتي روبل.

وبعد أن كاشفني، سألني:

- هل ستجرؤ؟

ربما لو سألني بطريقة أخرى لما استسلمت له، لكنَّ هذه الكلمات جعلتني أنفجر.

- لا أجرؤ على السرقة؟ إنها لا تحتاج إلى الجرأة، بل إلى لنذالة. هيّا، فلنمتهن السرقة!

يتضاحك السافل ساخراً، ويقول:

- والإثم؟

- آثامي أحسبها وحدي.

فقال: حسناً! ولتعلم الآن أن كل يوم يمضي يقرّبك من العرس! كان يسعى لاصطيادي، أنا الأحمق، مثلما يستدرجون الذئب إلى فخٍّ فيه جَدْيٌ.

وانطلقنا.لم أكن غبياً في العمل، وكنت أتحلّى بالجرأة دائماً. شرعنا، أنا وهو، ننهب الناس وكأننا نلعب لعبة "الضاما"، إذا قام بفعل قمتُ بما هو أشرّ منه. وكلانا صامتان، نتبادل النظرات، في عينيه سخرية دائمة، وأنا في نظراتي الشرّ. لقد تغلّب عليّ هذا الرجل، لكنني، حتّى وأنا خاسر أمامه كلّ شيء، لم أكن أرضى أن أتراجع حتّى في أتفه الأشياء.

ورحتُ، وأنا أستلم الكتّان، أغشُّ في الوزن، وأخفي الغَرامات التي تُفرَض على الفلاحين لقاء إلحاق مواشيهم الضررَ بالمزروعات، وأستلّ قروشهم بشتّى الطرق، لكنني لم أكن أَعُدُّ النقود، ولا أستلمها باليد، لأن المال كلّه كان يذهب إلى تيتوف، وطبعاً لم يخففّ ذلك عنّي، ولا عن الفلاحين.

وباختصار،كنت حينها كالمسعور، ينتشر البرد في صدري، وإذا تذكرت الله أشعر وكأنني أحترق. وكثيراً ما كنت أُلقي باللوم على الله:

- لماذا لا تسندني بقوّتك في سقوطي، لماذا تحمّلني محنة فوق طاقة عقلي، أم أنك يا إلهي لا ترى كيف تهلك روحي؟

وأحياناً كنت أشعر بأن أولغا غريبة عني، فأنظر إليها بعدوانية وأفكّر:

"لأجلك، أيتها الشقيّة، أتاجر بروحي!".

ولا ألبث أن أخجل بعد هذه الأفكار، فأتودَّد إليها ما أستطيع. لكنِ افهموني، فأنا لم أكن أتعذّب، وأكزّ على أسناني بسبب أسفي على نفسي أو على الناس، وإنما بسبب حسرتي على استسلامي لرغبات تيتوف، ولا أستطيع التغلّب عليه. كنت، إذا تذكّرت كلامه عن الأتقياء، أتجمدّ تماماً، ويبدو أنه كان يدرك هذا كلّه.

كان يشعر بالظّفَر فيقول:

- عليك، أيها القدّيس، أن تفكّر بمأوى، لأن هذا المكان سيكون بيتاً ضيّقاً عليك وعلى زوجتك عندما ترزقان بأطفال.

لقد سمّاني قدّيساً. لكنني التزمت الصمت.

صار يكثر من وصفي بهذه الصفة، بينما كانت ابنته تزداد لطفاً وحناناً في تعاملها معي، وتدرك كم أُعاني.

تمكّن تيتوف من الحصول على قطعة أرض من مدير أعمال السيد لوسِف، بعد أن تذلّل له. ولمّا وهبوه تلك القطعة الجيدة على طرف القرية، بدأ ببناء بيت لنا، فيما كنت أزداد تفنّناً في الاحتيال.

كان العمل يسير بسرعة، ويتألّق البيت تحت أشعة الشمس، وكأنه علبة ذهبية صُنعت من أجل أولغا.

ها قد اكتمل بناء السطح، ولم يبقَ سوى تشييد الوِجاق كي

يصبح المنزل صالحاً للسكن في الخريف.

وذات مساء كنت عائداً من قرية "يَكيموفكا" التي صودرت فيها مواشي الفلاحين مقابل ديونهم. وعندما خرجت من الحرش، واتّجهت نحو القرية، رأيت بيتي يحترق في شَفَق غروب الشمس، ويذوب مثل شمعة!

ظننت أوّل الأمر أن الشمس تمازحني وهي تغمر بأشعّتها بيتي، وترفعه عالياً نحو السماء حيث تسطع، لكنني ما لبثت أن رأيت الناس يتراكضون، وسمعت صفير اللهب، وطقطقة الأخشاب.

التهب قلبي، ورأيت الله عدّواً لي، ولو كان في يدي حجر لرشقت به السماء. وأخذت أتأمّل ما سرقتُه وهو يتطاير رماداً ودخاناً في أرجاء الأرض، فأشتعل معه، وأقول:

- تريد أن تريني أنني أهلكت روحي في سبيل الهباء والرماد، أهذا حقاً ما تريده؟ إنني لا أصدِّق، ولا أريد لك أن تُذلّني، فما حدث لم يحدث بإرادتك، بل إن الرجال هم من أحرقوا البيت غضباً مني ومن تيتوف! إني لا أصدِّق بغضبك، لا لأني لا أستحقّه، وإنما لأنك أسمى من أن يليق بك هذا الغضب! أنت لم تمدَّ لي يد العون في الوقت المناسب، أنا الضعيف أمام الخطيئة. فأنت المذنب، وليس أنا. لقد دخلتُ عالم الخطيئة مثلما أدخل غابةً ظلماء موجودةً قبل أن أولَد، فكيف لي أن أجد مخرجاً منها؟

ما كانت تلك الكلمات الحمقاء لتعزّيني... ولم تبرِّر شيئاً، إلا أنها كانت توقظ في روحي عناداً غاضباً.

لقد ترمَّد بيتي قبل أن تخمد ثورتي. كنت ما أزال واقفاً على طرف الحرش، متّكئاً على شجرة، أتابع سجالي، فيما وجه أولغا

الأبيض يلوُح أمامي مغموراً بالدمع والأسى. فأقول لله بوقاحة، وكأني ندٌّ له:

إذا كنتَ قويّاً، فأنا قويّ أيضاً، هذا ما يقتضيه العدل.

ثمّ خمد الحريق، وخَيمًّ الهدوء والظلام، ولم يبقَ إلاّ بعض ألسنة النار تلمع في الظلمة مثل طفل توقّف عن البكاء، ولكنّه ما زال يشهق. كان الليل غائماً، والنهر ساطع كسكّين عوجاء ضائعة في البرّيّة، وكنت أتمنّى لو أرفع هذه السكّين، وألوّح بها لتنتشر صفيرها فوق الأرض.

عدت إلى القرية قرابة منتصف الليل، فوجدتُ أولغا ووالدها واقفَين بانتظاري عند بوّابة المزرعة:

- أين كنت؟ - سألني تيتوف.
- كنت على الجبل، أنظر إلى الحريق.
- ولماذا لم تسرع لإخماده؟
- هل تظنني ساحراً، ما إن أبصق في النار حتّى تنطفئ؟..

كانت عينا أولغا مُنْتفختَين من البكاء، وقد تلطّخت كلّها بالهُباب والدخان، فأثار هذا المنظر ضحكي.

سألتها:

- هل كنتِ تعلمين؟

فهطلت دموعها.

قال تيتوف بكآبة:

- لا أعرف ماذا سنفعل...

أجبته:

- علينا أن نعيد البناء من جديد!

لقد امتلأتُ حينها تصميماً، فكنت مستعدّاً لجرّ الأخشاب حالاً، وحَزْم الحطب، وكان بإمكاني في الحال أن أنجز جميع هذه الأعمال إنجازاً كاملاً، لأنني، برغم إنكاري مشيئةَ الله، كنت محتاجاً لأن أعرف إن كان فِعلُ الحريق موجَّهاً ضديّ أم لا؟

وعدت إلى السرقة. ما أشدّ ما تفنَّنْتُ في الاحتيال! كنت في ما مضى أنسى نفسي عندما أصلّي، أمّا الآن فكنت أفكّر وأنا مستلق، كيف أستحوذ على روبل آخر. وانغمستُ في ذلك انغماساً كلّيّاً، رغم معرفتي أنّ مَن أبكيتُهم في ذلك الوقت كثيرون، ومَن اقتنصتُ اللُّقمة من أفواههم كثيرون، ولعلّ أطفالاً صغاراً ماتوا جوعاً بسبب جشعي. أشعر الآن بالقرف والاشمئزاز، عندما أدرك ذلك، بل وأشعر أن الأمر مضحك، إذْ ما أشدَّ ما كنت عليه من جشع وحُمْق!

لم تعد وجوه القدّيسين تنظر إليّ بحزن وطيبة، كما كانت تفعل من قبل، وإنما صارت تراقبني مثلما يراقبني والد أولغا. وذات مرة سرقت نصف روبل من مكتب مدير الأعمال، يا للدرك الذي انحططت إليه!

ومرة وقع لي حدثٌ غير عادي، إذ اقتربتْ أولغا منّي، فوضعت يديها الرقيقتين على كتفيّ، وقالت:

- ليحفظْك الله، يا ماتفي، إنني أحبّك أكثر من أيّ شيء في الدنيا!

قالت هذه الكلمات النيّرة ببساطة عجيبة، أعجبَ من كلمة "ماما" من فم طفل. فشعرت بقوّة تملؤني، كما في الخرافات، وصارت معزّتها عليّ لا تقدَّر بثمن. كانت أوّلَ مرة تقول لي فيها إنها

تحبّني، وعانقتها حينها أوّل عناق، وقبلّتها حتى شعرت بغيبوبة كتلك التي كانت تصيبني وأنا أصلّي بحرارة.

وبحلول عيد "بوكروف" أصبح بيتنا جاهزاً، كان متعدّد الألوان، بعض أخشابه سوداء لفحتها النار. وبعد فترة وجيزة أقمنا حفلة الزّفاف، فشرب حمي حتى الثمالة، وكان يضحك طول الوقت، مثل شيطان حالفه الحظّ، فيما كانت حماتي تنظر إلينا وهي تبكي، وتبتسم بصمت، ودموعها تسيل على خديّها.

فيصيح بها تيتوف:

- هه، لا تبكي! ياله من صهر، آ - ا؟ صهرٌ تقيّ!

ويروح يشتم ببذاءة.

كان الضيوف من ذوي الشأن، بينهم كاهن المنطقة طبعاً، ومديرا ناحيتين، وغيرهم من الوجهاء. فيما تجمّع أهالي القرية تحت النوافذ، وبينهم ميفون المرح، يدندن على البَلالايكا.

كنت جالساً بجوار النافذة، يترامى صوت سافيلكا إلى سمعي، رغم خوفه من المزاح بصوت عالٍ، وكان يغنّي:

ليتكم تسكرون سريعاً وتتمزّقون!

ليتكم تتخمون فتتشقّقون!

يومها أعجبتني تهكّماته، رغم أنني كنت منصرفاً عنه، فقد كانت أولغا تلتصق بي وتهمس:

- ليت هذا الطعام والشراب ينتهيان سريعاً!

كانت مشمئزّة من النظر إلى جشع الناس، وأنا أيضاً.

وحين اختَلَينا، انخرطنا بالبكاء. جلسنا على السرير متعانقَين، وأخذنا نبكي ونضحك من سعادتنا الزوجية العظيمة التي لم يسبق

لنا أن تذوّقناها. لم نغْفُ حتى الصباح، كنّا نتبادل القبلات، ونتحدث عن حياتنا المقبلة. وأشعلنا شمعة كي يرى كلّ منا صاحبه.

كانت تقول لي، وهي تعانقني بيديها الدافئتين:

- سنعيش عيشة تجعل الجميع يحبّوننا! إنني سعيدة معك، يا ماتفي!

كنا ثملَين بسعادتنا التي يكلّ عن وصفها اللسان، فقلت لها:

- فليُهلكْني الله، يا أولغا، إن تسبَّبت لكِ يوماً بدموع إلاّ دموع الفرح.

وأجابتني:

- سأتقبّل منك أيّ شيء، وأكون لك أمّاً وأختاً، أيها الوحيد، يا حبيبي!

وعشنا معاً، كأننا في هذيان لذيذ. كنت أعمل غير مبالٍ، لا أرى شيئاً، ولا أرغب برؤية شيء، أراني دوماً على عجلة من أمري لكي أعود إلى بيتي، إلى زوجتي، فنتمشّى معاً في الحقل، ونذهب إلى الغابة.

تذكّرت الأيام الخوالي، وعُدت إلى تربية العصافير. كان بيتنا حَسَنَ الإضاءة، مليئاً بالبهجة، تنتشر على جدرانه أقفاص، وتغرّد عصافير تحبّها زوجتي الهادئة. وحين أعود إلى البيت تحكي لي أولغا عمّا فعل طير أبو المنجل، وكيف غرَّد الزقزاق.

وفي المساء كنت أقرأ الاستهلال، أو كتاب الصلوات. غير أن أكثر ما كنت أحكي لها عنه هو طفولتي، ولاريون وسافيلكا، كيف كانا يغنيّان لله، وماذا كانا يقولان عنه، وأحكي لها عن

"فلاصي" الحنون الذي كان قد توفيَ حينها. كنت أروي لها كل ما أعرفه، فوجدتُ أنني أعرف الكثير عن الناس، والأسماك، والطيور.

لا أستطيع التعبير بالكلام عن مدى سعادتي، إذ لا يحسن بالإنسان الإفصاح عن أفراحه، لأنه ليس معتاداً على ذلك، فالأفراح نادرة، وقصيرة العمر.

كنا نذهب، أنا وزوجتي، إلى الكنيسة، فنقف في زاوية متجاورَين، ونصلّي معاً. أتلو صلوات الامتنان للّله وأمجّده، فأُحسُّ بالفخر، إذ يراودني شعور بأنني تغلبّت على قوّته الإلهية، وأجبرت الله على منحي السعادة، لقد استجاب لدعائي، وها أنا أُثني عليه الآن: أحسنتَ صنعاً يا ربّ، لقد عدَلتَ كما ينبغي لك أن تفعل!

آه، يا للوثنية البائسة!

مرَّ الشتاء، دون أن أشعر به، مرورَ يوم بهيج. وأخبرتني أولغا بأنها حبلى، فكانت تلك فرحة جديدة عندنا. كان حمي يتنحنح متجهّماً، فيما تنظر حماتي إلى زوجتي بشفقة، ولا تنفكّ تهمس لها بشيء باستمرار. ولمّا نويت أن أقوم بعمل ما، خطر لي أن أُنشِئ منحلة، وأُطلِق عليها اسم لاريون، تيمُّناً به، وتبرّكاً. كما فكّرت بزراعة حقل صغير، أصطاد فيه الطيور، فتلك أعمال لا تؤذي الناس.

وذات مرة قال لي تيتوف بصرامة:

- لقد تسرَّعتَ كثيراً في الاستسلام لأحلامك، يا ماتفي! إن طفلك سيولد في الصيف، أم أنك نسيت؟

منذ زمن بعيد وأنا أتوق لأن أقول له الحقيقة، مثلما كنت

أتصورّها في ذلك الحين. فقلت له:

- لقد اقترفتُ من الذنوب ما طاب لي أن أقترف، وها قد تساويت معك كما تمنيّتَ، إلا أنّني لن أكون أدنى منك!

قال:

- لست أفهم، ماذا تريد أن تثبت لي؟ أقول لك بوضوح: لن يكفي عائلتك مبلغ اثنين وسبعين روبلاً في السنة، ولن أسمح لك بهدر ما قدّمتُه لابنتي في عرسها! فكّرْ في ذلك! أمّا حكمتك، فليست إلا غضباً توجهّه ضدي، لأنني أذكى منك، وليس فيها ما يفيدك، أو يفيدني بشيء. فكل امرءٍ قدِّيسٌ، ما دام الشيطان نائماً!

كان ذلك صعباً عليّ، لكنني تمالكت نفسي شفقةً على أولغا، فلم أُشبِعْه ضرباً.

ذاع في القرية خبرٌ مفادُه أنني على خلاف مع حمي، فصارت نظرات الناس إليّ أكثر لطفاً. كما أصبحتُ أكثر ليونة من جَرّاء فرحتي، وكانت أولغا طيبة القلب، فأردت أن أُكفِّر عن ذنبي أمام الفلاحين قدْر المستطاع. ورحت أتصالح معهم تدريجياً، فأساعد هذا، وأتستّر على ذاك. وشأنُ أهالي القرية شأنُ من يعيش وراء الزجاج، فالجميع يرون أدنى حركة يقوم بها المرء. كان تيتوف يغضب مني، فيقول:

- تريد آن ترشو الله ثانية؟

قرّرت أن أترك المكتب، فقلت لزوجتي:

- يمكنني كَسْبُ ستة روبلات وأكثر في الشهر من الاتّجار بالعصافير!

حزنت رفيقتي، وقالت:

- افعل ما تريد، شريطةَ ألا نُصبح شحّاذين! إنني حزينة على والدي، فهو يريد لك الخير، وما أكثر الذنوب التي تحملّها من أجلنا...

فقلت في خاطري: "آه، يا حبيبتي! لقد ذبحني خيرُه!".

وفي اليوم التالي أخبرت حمي بأنني سأرحل.

فضحك ساخراً، وسألني:

- هل ستلتحق بالجيش؟

لقد كواني! أعرف أن من السهل عليه أن يؤذيني، فمعارفه ذوو شأن، وهو يحظى باحترامهم، وسأجد نفسي غارقاً في الجيش مثل حجر في الماء، وهو لن يشفق على ابنته، فقد كان بينه وبين الله لعبة كبيرة أيضاً.

وهكذا مضتِ القيود تطوّق يديّ عقدة تلو عقدة! وشرعت زوجتي تبكي سرّاً، فكانت عيناها حمراوين دائماً. وحين أسألها:

- ما بك، يا أولغا؟

تقول:

- أشعر بتوعّك.

فأتذكّر قَسَمي لها، وأشعر بالإحراج والخجل. فالقرار لا يكلفّني سوى خطوة واحدة، وأنا أملك الجرأة على اتّخاذه، لكنني أُشفق على زوجتي الحبيبة! لولاها لذهبت إلى الجيش، لا لشيء إلاّ للخلاص من تيتوف.

في نهاية حزيران رُزِقنا ولداً، فعاودني حُمْقي ثانية لبعض الوقت. كانت الولادة صعبة، جعلتْ أولغا تصرخ، فيتمزّق قلبي خوفاً.

وكَمَدَ لون تيتوف وراح يرتجف، فوقف في الباحة يتّكئ على باب البيت، وخبّأ يديه، وطأطأ رأسه، وراح يتمتم:

- إن ماتّتْ لم يعد لحياتي من معنى، لطفَك يا ربّ!.. عندما تُرزق بأطفال، يا ماتفي، قد تفهم ألمي وحياتي، وتكفُّ عن الوعظ.

شعرت بالشفقة عليه حينها. وشرعت أتمشّى أيضاً في الباحة، أمام البيت، وأفكّر:

ها قد عدتَ تهدّدني، ياربّي، وها يدك ترتفع عليّ من جديد! ليتك تمنح الإنسان فرصة ليلتقط أنفاسه! أم أنك غدوت تضنّ برحمتك، ولم تعد قوّتك قوّة خير؟

والآن، عندما أتذكّر كلامي، أشعر بالخجل من حماقتي.

فقد وُلِد الطفل، وتغيّرت زوجتي، إذ صار صوتها أقوى، وبدا جسمها وكأنه استقام كلّه. وأخذتْ تعاملني بجفاء. لا أقول إنها أصبحت جشعة، لكنها بدأت تَعُدُّ اللقمات، وقلّتْ صدقاتها، وصارت تتذكّر مَنْ مِنَ الفلاحين مديون لنا وبأيّ مبلغ من المال، مع أن الديون كانت قروشاً، ولكنها تهتمُّ بها. فظننت، في البداية، أنها مسألة آنيَّة. وقد كانت تجارة العصافير مزدهرة عندي يومها، إذ أذهب بالأقفاص إلى المدينة مرتين في الشهر، و في كل مرة أعود بخمسة روبلات أو أكثر. وكان لدينا بقرة وعشر دجاجات، فماذا كان ينقصنا؟

لكنّ عينَيْ أولغا كانتا تشعّان بشيء كريه، وإذا جئتُها بهدية من المدينة راحت تتذمَّر:

- لماذا الهديّة؟ يحسُن بك أن تكون حريصاً على المال.

شعرت بالملل، فأدمنت على صيد الطيور بسبب سأمي. كنت

أذهب إلى الغابة، أنصب الشِّباك والفخاخ، ثم أنبطح على الأرض، أَصْفُر وأفكّر. ثمّ تغمر السكينة روحي، ولا أحتاج إلى شيء. وعندما تخطر ببالي فكرةٌ أجدُها تلمس الفؤاد وتسقط في المجهول، سقوطَ حجر في بحيرة، فتتداح في روحي دوائرَ، وأفكّر بالإله.

يكون الله في تلك الساعات في نظري سماءً صافية، آفاقاً زرقاء، غابة خريفية مطرّزة بالذهب، أو معبداً شتوياً فضّيّاً، وتغدو الأنهار، والحقول، والتلال، والنجوم، والأزهار، وكلّ ما هو جميل إلهيّاً، وكلّ إلهيّ يصبح قريباً من روحي. وإذا ما تذكّرتُ الناس ارتعد قلبي مثل طير اضطرب في نومه مذعوراً، فأنظر إلى الحياة حائراً، لأن الجمال الإلهيّ لا يندغم في تيّار واحد مع حياة الإنسان الفقيرة المظلمة. فالإله الوضَّاء موجود في مكان بعيد، مكلّل بقوّته وعزّته، فيما يعيش الناس أيضاً بعيدين عنه حياة مملّة ومُكربة. لماذا يُقَدَّم أبناء الله قرابينَ للشقاء وهم جياعٌ، أذلاّء، يزحفون على الأرض، كالدود في الوحل، فلماذا يسمح الله بذلك؟ ما الذي يُفرِحه في رؤية مخلوقاته مذلولين؟ أين هم البشر الذين يرون الله ويشعرون بجماله؟ لقد عَميت بصيرة روح الإنسان بالفاقة السوداء في النهار. فعُدَّ الشبع فرحاً، والثراءُ سعادةً، وصار الناس يبحثون عن حرية الإثم، ولا خلاص لهم من الإثم. أين قوّة الحبّ الأبوي فيهم، أين الجمال الربّاني؟ هل الله حيّ؟ فأين الإلهي إذاً؟

وفجأة ينبثق احتمال، أو إشارة، مثلَ دخان يحجب كل شيء ويدمّره، وتصبح روحي باردة، خاوية، مثلَ حقل في الشتاء.لم أجرؤ حينها على أن ألمس هذه الفكرة بالكلمات، غير أنني، وإن

ثم تتبدّ لي مجسّدة بالكلام، شعرت بقوتّها، وخشيتُها مثلما يخشى الطفل الصغير الظلام. فما ألبثُ أن أنهض على قدميّ، وأستعجل العودة إلى البيت، أجمع أغراضي وأسير مسرعاً، أُنشد الأغاني لأنْأى بنفسي عن خوفي الكليل.

صار الناس يضحكون منّي، فصيّادو الطيور لا يحظون باحترام في القرى، بل وأولغا أيضاً كانت تتنهّد بحزن، كأن عملي هذا أشعرها بالخزي. ويتلو حمي عليّ المواعظ، فيما ألتزمُ الصمت بانتظار الخريف، إذ أشعر أنني سأنجو من الخدمة العسكرية، وأتخطّى هذه الحفرة.

حبلت زوجتي ثانية، وبدأت تشعر بالحزن من جديد.

- ما بك، يا أولغا؟

كانت في البداية تتملّص، كمن يقول: لا شيء. إلا أنها ضمّتني ذات مرة، وانتحبت، قائلة:

- سأموت، سأموت بالولادة!

كنت أعرف أن النساء كثيراً ما يقلنَ ذلك، لكنني خفت. فأخذت أواسيها، إلا أنها لم تستمع إليّ.

تقول:

- ستعود وحيداً، لا يحبّك أحد. فأنت لا تحسن التعايش مع الناس، ومتهوّر في كلّ شيء، وأني لأرجوك، من أجل ولَدَيْنا، ألا تتكبّر، لأننا جميعاً مذنبون، وأنت أيضاً لست على حقّ...

راحت تُكثر من هذه الأحاديث، فأحرجتني بسبب شفقتي وخوفي عليها. ووقع شيء يشبه الهدنة بيني وبين أبيها، فما لبث أن استغلّ ذلك على طريقته، فتارة يقول: وقِّع يا ماتفي، وتارة: لا

تكتب. كانت حُجتّه قويّة، فالخدمة العسكرية على الأبواب، والطفل الثاني سيأتي قريباً.

راح المبلّغون يجوبون القرى، واستدعوني فرفضت، وعندئذ كسروا زجاج نوافذ بيتي.

وجاء اليوم الموعود، فسافرتُ إلى المدينة لسحب القُرْعة. ولمّا كانت زوجتي تخاف الخروج من البيت، رافقني حمي مودّعاً، وظلّ طول الطريق يحدّثني كم من جهود بذل من أجلي، وكم أنفق من أموال، وكيف تدبّر أموره كلّها. فقلت له:

- لعلّكَ تعبتَ عبثاً.

وهذا ما اتّضَح، فقد كانت قُرعتي موفقة. حتى أن تيتوف لم يصدّق حظّي، ثمّ ضحك متجهّماً:

- حقاً، يبدو أن الله إلى جانبك!

التزمت الصمت، وكانت فرحتي لا توصف. لقد كان ذلك خلاصاً لي من كل ما أثقل روحي، وخاصّة من حميي العزيز. وفي البيت كانت أولغا مبتهجة. فقد أخذت حبيبتي تبكي وتضحك، تمتدحني وتلاطفني وكأنني قتلت دبّاً، فتقول:

- الحمد لك يا رب، الآن سأموت مرتاحة البال!

فضحكت منها، والرعب يعتريني، لأنني شعرت أنها تؤمن بموتها القريب، وأنا أدرك أن هذا الإيمان قاتلٌ، يقضي على قوة الحياة عند الإنسان.

بعد حوالي ثلاثة أيام بدأ عندها المخاض. وقد عانت أولغا مُرَّ العذاب مدّة يومين، وماتت في اليوم الثالث، بعد أن وضعت طفلاً ميتاً. لقد مُتِّ، كما أقنعتِ نفسك، ياصديقتي الغالية!

لا أتذكّر تشييعها، فقد بقيتُ مدّة من الزمن أعمى وأصمّ.

أيقظني تيتوف ونحن عند قبر أولغا. أتذكّر هذا وكأنه يحدث الآن. كان تيتوف واقفاً أمامي، ينظر إلى وجهي، ويقول:

- ها نحن، يا ماتفي، نلتقي ثانية بجوار الموتى. هنا ولدتْ صداقتنا، وهنا يليق بها أن تتوطّد من جديد...

رحت أتلفّت كمن جاء إلى الدنيا أوّل مرّة:

كان الرَّذاذ يتساقط خفيفاً، والضباب مخيِّماً، تتمايل فيه الأشجار العارية، وتبحر صلبان القبور وتختفي، ويحجب البردُ والرطوبةُ الثقيلة كلّ شيء، فلا يبقى للمرء ما يتنفّسه، كأنّ المطر والضباب التَهما الهواء كلّه.

قلت لتيتوف:

ـ ماذا تريد؟

- أريد أن تفهم مأساتي. لعلّ الله عاقبني بسببك أيضاً، فأهلَكَ ابنتي جزاء لي على أنني لم أدَعْك تعيش كما تريد...

شرعتِ الأرض تذوب تحت قدميّ وتتحوَّل إلى وحلٍ دَبِقٍ يلتصق بهما، ويُصدر خَفْقاً.

فأخذته من تلابيبه، وألقيته أرضاً، مثل كيس من النخالة، وصحت:

- عليك اللعنة، أيها اللعين!

ومنذ ذلك الحين بدأت في حياتي مرحلة مجنونة لا معنى لها بالنسبة إليّ.

ما كان باستطاعتي أن أرفع رأسي، وكأن يداً غاضبة ألقتني أرضاً، فانطرحتُ، لا حول لي ولا قوّة. روحي تؤلمني من غضب الله

عليها. وإذا نظرت إلى الأيقونات ما ألبث أن أبتعد عنها مسرعاً، إذ أشعر أنني أتوق للجدال، وليس للتوبة. أعرف أن عليّ أن أتوب خانعاً، وأن أقول: "أَجَلْ، يا إلهي! إن يدك ثقيلة، لكنّها عادلة، وغضبك واسع، لكنه رحيم.

غير أن ضميري لا يسمح لي بأن أتفوّه بهذه الكلمات، فأقف تائهاً بين أفكار مختلفة، ولا أجد نفسي.

وأفكّر: "ألا يكون هذا العقاب جزاءً لي على شكوكي الخفيّة بوجودك، يا ربّ؟".

وسرعان ما يعتريني الخوف، فأبرّر:

" ما شككتُ بوجودك، بل شككت برحمتك، إذ يُخيَّل إليّ أنك تخلَّيتَ عن جميع الناس، وتركتهم بلا عون ولا طريق!".

هذا كلّه لم يكن يعبّر عمّا في روحي من جمرٍ تحت الرماد، يكويها. لقد جافاني النوم، ولم أعد أفعل شيئاً، تخنقني في الليل ظلال مبهمة، وأتخيّل أولغا. شعرت بالرّعب، وما عدت أقوى على العيش.

فقرَّرت أن أشنق نفسي.

كان ذلك في الليل، وأنا مستلقٍ على الفراش، مُرتدياً ثيابي، أتعذّب: إذ تمثُلُ زوجتي في ذاكرتي لا تبارحها، لا ذنب لها، تتّقد عيناها الزرقاوان بلهب خفيف، وتناديني. ويطلّ الهلال من النوافذ، تمتدّ دروبٌ من نوره على الأرض، فتزيد من الظلام في روحي. عندها أسرعت بالنهوض، وتناولت حبلاً من شبكة صيد الطيور، ودقَقت مسماراً في عمود السقف. ثم عقدت الأنشوطة، وقرّبتُ الكرسي. أردت أن أخلع السترة، فتمزّقت قَبّة القميص. وإذا بي أرى وجهاً

صغيراً، باهتاً، يومض خفية على الحائط، وكدت أصرخ من الخوف. لكنني سرعان ما تعرفت على وجهي في المرآة الدائرية التي كانت لأولغا. رأيت فيها وجهاً مجنوناً، يثير الشفقة، منفوشَ الشعر، غائر الخدين، حادّ الأنف، فاغر الفم، كأنه وجه رجل يختنق، وتنظر عيناه من هناك معذَّبتَين، طافحتَين بالأسى.

أشفقت على هذا الوجه البشري، وتأسفّت على جماله الماضي، فجلست على المقعد، ومضيت أبكي على نفسي مثل طفل مكسورِ الخاطر. وبدت لي الأنشوطة بعد الدموع عملاً معيباً، وسخرية من نفسي. وتملّكني الغضب، فقطعتها، ورميت بها في الزاوية.

الموت لغز أيضاً، أمّا أنا فكنت أبحث عن حلّ للحياة.

ماذا علي أن أفعل؟ مضت أيام أُخَر، فتراءى لي أنني أبحث عن السلام، وأن عليّ إجبارَ نفسي على التوبة، فكززْت على أسناني، وذهبت إلى الكاهن.

جئته مساء الأحد. كان جالساً وامرأته إلى مائدة، يشربان الشاي، ومعهما أربعة أولاد. كان العرق يتلألأ مثل حراشف السمك على وجه الكاهن الأسود.

استقبلني برحابة صدر.

كانت الغرفة دافئة، وحسنة الإضاءة. كل شيء فيها نظيف ومرتّب، فتذكّرت كيف يصلّي الكاهن في الكنيسة بعشوائية، وفكّرت:

" هذه هي كنيسته!"...

لم أكن أشعر بالخضوع المطلوب.

سألني الكاهن:

- ما لك، يا ماتفي، أتشعر بالفقدان؟

فأجبته:

ـ نعم، أشعر بالفقدان.

- أها ـ ا ـ ا!.. عليك أن تشعل أربعين شمعة. أتأتيك في المنام؟

قلت:

ـ تأتيني.

- لا بد من أربعين شمعة !

ظللت صامتاً. لا يمكنني أن أتحدّث في حضور زوجته، فما طقتُها يوماً. كانت امرأة جسيمة، وجهها كبير وسمين، تتنفّس بصعوبة، ويترجرج شحمها مثل مستنقع. كانت مرابية. أمّا الكاهن فتابع وعظهُ:

- صلّ بتفانٍ! ولا تحزنْ، فإنَّ ذلك مخالَفة لله، وهو أدرى بما يفعل...

سألته:

- هل هو حقاً يعرف؟

- طبعاً، أيها الشابّ. أعرفك متكبّراً على الناس، لكن إيّاك أن تتجاسر وتتكبّر، وأن تتعالى على شرع الله، فيتضاعف عقابك مائة مرة! أليست هذه بذرةَ لاريون تنمو فيك؟ عليك أن تتذكّر أن المرحوم كان إذا سكر تحوّل إلى هرطوق.

تدخّلت زوجته:

- كان يجب أن يُنفى لاريون إلى الدير، لكنّ أبانا كان طيباً، ولم يشتكِ عليه.

قلت:

- هذا ليس صحيحاً، فقد شكاه، لكنْ ليس بسبب آرائه، بل بسبب إهماله الصلوات، وقد يكون أبونا اقترف الذنب نفسه.

تَجادَلْنا. فأخذ الكاهن، في بداية الأمر، يتهمّني بالجرأة، ويقول كلمات أعرفها خيراً منه، ثم إنه حرّفها بسبب غضبه مني. وبعدئذ، وبكلّ بساطة، انهال هو وزوجته عليّ بالشتائم.

- أنت وحموك، كلاكما لصّان. لقد نهبتما الكنيسة. فأرض "موكري ضول" تُعَدُّ منذ القدم من أملاك الكنيسة، لكنّكما كسَبْتُماها بالقضاء زوراً، ولهذا أهلككما الله...

فقلت له:

- صحيح أن "موكري ضول" أُخِذت منكم ظلماً، ولكنكم أيضاً انتزعتموها فيما مضى ظلماً من الفلاحين.

نهضت لأذهب، وإذا بالكاهن يصيح:

- توقّف! أين النقود، ثمن أربعين شمعة؟

فقلت له:

- لا داعي.

ومضيت وأنا أفكّر:

"جئتَ بروحك، يا ماتفي، إلى المكان غير المناسب!". بعد حوالي ثلاثة أيام مات ابني، ساشا، عندما تذوّق الزرنيخ، ظنّاً منه أنه سُكّر، فمات. بل ولم يفاجئني هذا، لأنني كنت قد بردت تجاه كل شيء، وتبلّدتْ روحي.

قرّرتُ أن أذهب إلى المدينة. فقد كان فيها رئيسُ خوارنة يعيش حياة تقوى وعلم، وبحماسة يخوض سجالات دينية مع المنشقّين. وكان رئيسُ الخوارنة هذا يشتهر بقدرته على التنبّؤ.

أخبرت حمي بأنني راحل، وأترك له البيت، وكلَّ ما أملك مقابل إعطائي مائة روبل، فقال:

ـ هذا لا يجوز! اكتبْ لي سنداً بثلاث مائة روبل لمدة نصف سنة.

فكتبت، ثم سوَّيتُ بطاقتي الشخصية، ورحلت. وتقصّدت أن أذهب مشياً على الأقدام، ظنّاً مني أنَّ تَخبُّطَ روحي سيهدأ في الطريق. ورغم أنني ذاهب لإعلان التوبة، فإنني لا أفكّر بالله. قد أكون أخاف، أو أشعر بالقهر، فإن أفكاري كلها تشوّهت وأخذت تتفسّخ، مثل خشب عفِن، وبدت لي السماوات مظلمة وغامضة.

وصلت إلى رئيس الخوارنة بعد عناء كبير. لكنهم لم يسمحوا لي بالدخول. كان في مكتب استقبال الزوّارِ موظّفٌ شابّ، هزيل الجسم، جميل الطلعة، أبعدني أربع مرات ليقول لي على انفراد:

- أنا أمين السرّ، وعليك أن تدفع لي ثلاثة روبلات.

قلت له:

- ولا ثلاثة قروش!

- إذاً، لن أدعك تدخل!

- سأدخل بنفسي!

وعندما رأى أنني لن أتنازل، قال لي:

- تعال، إنني أمزح، فشكلك يثير الضحك.

أدخلني إلى غرفة صغيرة، في زاويتها كنبة يجلس عليها عجوز أشيب، يرتدي جلباباً أخضر ويسعل. كان وجهه منهكاً، وعيناه حازمتين، غائرتين تحت حاجبيه.

خطر لي: "هذا من سيرشدني إلى شيء".

سألني:

ـ ماذا تريد؟

قلت:

- لقد اضطربت روحي، يا أبت.

همس لي أمين سرّه، وهو يقف خلفي:

- قل له: سماحتك.

فقلت:

- اطلبْ إلى الموظف الخروج، إنه يحرجني...

نظر الخوري إليّ، وتمطّق، ثم أمره:

- اخرجْ، يا أليكسي! هيّا، قلْ ماذا اقترفت؟

قلت له:

- إنني مرتاب برحمة الله.

وضع يده على جبينه، ونظر إليّ، وراح يهمس ملحّناً:

- ماذا؟ ماذا ـ ا ـ ا؟ أيها الغبي!

لم يكن لديّ الوقت لأنزعج، ثم إننا ألفنا عادة أسيادنا في شتم الناس، ولم نعد نشعر بالإهانة، فهم لا يفعلون ذلك لؤماً، بل غباءً.

قلت له:

- اسمعني، سماحتك!

وأردت أن أجلس على الكرسي، لكن العجوز راح يلوّح بيديه، ويصيح:

- انهض! انهض! عليك أن تركع على ركبتيك أمامي، أيها اللعين!

- ولماذا أركع؟ إن كنتُ مذنباً، فأنا مذنب أمام الله، وليس أمامك!

فاستشاط غضباً:

- ومن أكون؟ من أكون في نظرك؟ من أنا في نظر الله؟

خجلت من أن أجادله في أمر تافه. فركعت على ركبتيّ، هكذا! أما هو فمضى يفحُّ، ويومئ إليّ بإصبعه مهدِّداً:

- سأجعلك تحترم الكهنوت.

وتدريجياً، بدأت رغبتي في التحدث إليه تختفي، وقبل أن تزول نهائياً شرعت أتكلّم. ولكنني ما إن بدأتُ حتّى نسيتُ وجوده، إذ كنت لأوّل مرة أبوح بأفكاري شفهياً، فأتعجّب من نفسي، وأشعر كأن النار تلتهمني.

وفجأة سمعت العجوز يصرخ:

- اصمت، أيها الشقي!

شعرت وكأني اصطدمت بحائط في أثناء جريٍ سريع. كان رئيس الخوارنة يقف فوقي، يهمس، ويهزّ يديه:

- هل تدرك معنى كلماتك، أيها الحيوان المجنون؟ ألا تشعر باللعنة التي حلّت عليك، أيها المشوّه؟ تكذب، يا مهرطق، فإنك ما أتيت من أجل التوبة، بل هو الشيطان من أرسلك لإغوائي!

أرى في وجهه الخوف، وليس الغضب. لحيتُه ترتجف، وتسري رعشة خفيفة في يديه الممدودتين نحوي، فيعتريني الخوف أيضاً.

- ما بك، سماحتك، إنّي أؤمن بالله!

- تكذب، أيها الكلب الضال!

وراح يتوعّدني بغضب الله وانتقامه. يتكلّم بصوت خفيض؛

يتكلّم ويرتعد، فيبدو جلبابه مثل ماء يسيل عنه، ويتبخَّر دخاناً أخضر. فأتخيّل الله جسوراً، حازماً، وجهُه قاتم، وقلبه غاضب، بخيل في رحمته، يشبه بظلمه (يَهْوَه) إلهَ العهد القديم.

أقول للخوري:

– أنت من يهرطق، فهل هذا الذي تتكلّم عنه إله مسيحيّ؟ أين تختفي المسيح؟ لماذا تصوِّرونه حكَماً على البشر، بدلاً من أن يكون صديقاً ومعيناً لهم؟.. فأَمسكَ بشعري، وراح يشدّني هامساً، شاهقاً:

– مَن أنت، أيها الملعون، مَن؟ يجب تسليمك للشرطة ليلقوا بك في السجن، في دير في سيبيريا...

وحينها ثُبْتُ إلى رشدي. واضح أن الإنسان إذا ما لجأ إلى الشرطة ليساند ربّه، لا بد أن يكون هو وربُّه مجرّدَين من أيّ قوّة، بل ومن أيّ قدْر من الجمال.

نهضت على ركبتيَّ، وقلت:

– دعني أذهب...

نَفَر العجوز، وقال وأنفاسه تضيق:

– ماذا تريد أن تفعل؟

– أريد أن أذهب! فليس لديك ما تعلّمني إيّاه. إن حديثك ميت، ولعلّك تقتل الله بهذا الحديث!

عاد يتحدّث عن الشرطة، لكنّ ذلك كان سيّان عندي، لأن الشرطة لن تسلبني أكثر مما كان يرغب في أن ينهبه مني. قلت له:

– الملائكة هي مَن تُمجّدُ الله، وليس الشّرطةُ، اللّهمّ إلا إذا

كنت تؤمن بغير ذلك، فلتفعل ما يملي عليك إيمانك.

انقضّ علي الأخضر صائحاً:

- اطرده، يا أليكسي!

فدفعني أليكسي إلى الشارع بحماسة فائقة.

كان المساء قد حلّ. فقد أمضيت ساعتين في حديثي مع الخوري. وكان الجو مظلماً ومقرفاً، والناس يحتفلون في كل مكان، فلا تسمع إلا الكلام والضحك. كان وقت عيد. أمشي متراخياً، وأتفرّج على الجميع، فأشعر بالإهانة، وأريد أن أصيح بهم:

"أيها الناس، مالكم تبتهجون؟ انظروا كيف يشوهّون إلهكم!.

سرت هائماً على وجهي كالسكران، يتملّكني الحزن، ولا أعرف إلى أين أتجهّ. فلا رغبة لي بالعودة إلى الفندق الذي نزلت فيه. إذ ليس هناك إلاّ الضجيج والسكر. وصلت إلى مكان ما على طرف المدينة، حيث البيوت الصغيرة تطلّ على الحقل بنوافذها الصفراء، والريح تعبث بالثلج، وتصفر وهي ترمي به البيوت. أتوق إلى الشرب، ليته يتاح لي أن أسكر، لكنْ شريطةَ ألا يراني أحد، فأنا غريب، ومذنب أمام الجميع. فكّرت: "سأتمشّى على طول الحقل لأرى إلى أين أصل؟".

وفجأة ظهرت في بوابةٍ أمامي امرأةٌ ترتدي فستاناً، وليس عليها فوقه إلاّ شال. نظرت إلى وجهي، وسألتني:

- ما اسمك؟

أدركت أنها بصاّرة، فقلت لها:

- لن أقول لك، فأنا رجل تعيس.

راحت تضحك:

- تعيس في الأعياد؟

لم يكن الفرح يناسبني آنذاك، فسألتها:

- هل من حانة قريبة هنا لألجأ إليها، فالبرد قارس!

أمعنت النظر فيّ، وقالت بلطف:

- توجد حانة هناك، لكنْ إذا شئتَ، فإني أدعوك إلى بيتي لأقدّم لك الشاي!..

لم أفكّر، وتبعتُها على غير إرادة منّي، فوجدت نفسي في غرفة فيها مصباح على الحائط، وفي الزاوية تحت الأيقونات تجلس عجوز سمينة تلوك شيئاً ما. وكان على الطاولة (سماور)[4]، والجوّ دافئ، مريح. أجلستني المرأة إلى الطاولة. كانت شابّة متورّدة الخدَّين، بارزة النهدين. أخذت العجوز تنظر إليّ من الزاوية وتنخر. كان وجهها كبيراً، مجعّداً، وكأنه بلا عينين. شعرتُ بالحرج، فما الذي جاء بي إلى هنا؟ من تكون هاتان المرأتان يا ترى؟

سألتُ الشابّة:

- وما عملك؟

- نصنع الدانتيلا.

حقاً، كانت حزم خيوط الدانتيلا تتدلّى عن الرفّ.

وإذا بها تبتسم بتحرٍّ وتقول لي، وهي تنظر في عيني:

- كما أنني ألهو!

---

(4) السماوَر كلمة روسيّة (samovar)، تعني إناء نحاسياً يُسَخَّن فيه الماء بالكهرباء (وفي الماضي بالنار)، ويوضع على فوهته العليا إناء خزفيّ صغير لتخمير الشاي على البخار. — م.

فأطلقتِ العجوز ضحكة ماجنة:

- ما أقلّ حياءك، يا تَتيانا !

لولم تقل العجوز ذلك، لما فهمتُ مغزى كلمات تَتيانا. وعندما فهمتُها استحيت. كانت تلك أولَ مرّة ألتقي بها فتاة لاهية على مقربة مني، فأنا أحتقرهنّ، طبعاً.

أما تَتيانا فراحت تضحك.

- انظري يا بتروفنا، لقد احمرّت وجنتاه!

فألمّ بي الغضب، لقد وقعت شرّ وقعة! يا لبئسَ الأوبة بعد التوبة!

قلت للفتاة:

- وهل هذا عمل يتباهى به الناس؟

فأجابتني بجرأة:

- أما أنا فأتباهى!

عادت العجوز تنخر:

- آه، يا تَتيانا، يا تَتيانا !

لم أعد أعرف ماذا أقول، ولا كيف أغادرهما، لا يتبادر إلى ذهني شيء. جلستُ صامتاً. الريح تقرع النوافذ، والسماور يزعق، فيما أخذت تَتيانا تعابثني:

- آه، ما أشدّ الحَرّ!

وفكّت أزرار قميصها عند العنق. كان وجهها لطيفاً، وبالرغم من كون عينيها جريئتين، فإنهما استهوتاني. وضعتِ العجوز على الطاولة زجاجة نبيذ عادي، وأخرى من النبيذ الكثيف الحلو.

"قلت، سأشرب كأساً، ثم أعطيهما بعض المال، وأنصرف!"

سألتني تَتيانا بجرأة:

- ما الذي يحزنك؟

فلم أتمالك نفسي، وأجبتها:

- لقد توفِّيَت زوجتي .

وعندها سألتني بنبرة خافتة:

- وكم مضى على ذلك؟

- خمسة أسابيع فقط.

أسرعت الفتاة تزرِّر قميصها، وأصلحت جلستها. فأعجبني هذا كثيراً. ونظرتُ إلى وجهها صامتاً، وأنا أقول في نفسي: شكراً لك! مهما كان ثِقَلُ همِّي، إلا أنني شابّ، وقد اعتدتُ المرأة، إذ كنت متزوّجاً مدة عامين.

قالت العجوز وهي تلهث:

- إن كانت زوجتك قد ماتت، لا تهتمّ! فأنت شابّ، والشوارع مليئة بالبنات.

فأمَرَتْها تاتيانا بحزم:

- اذهبي واخلدي للنوم، يا بتروفنا! فأنا سأودّع ضيفنا، ثم أقفل البوّابة.

وبعد أن ذهبت العجوز، سألتني تَتيانا بجدّ ولطف:

- هل لديك أقارب؟

- ليس عندي أحد.

- ولا أصدقاء؟

- ولا أصدقاء.

- وماذا تريد أن تفعل؟

- لا أدري.

فكّرتْ، ثم نهضتْ، وقالت:

ـ يبدو أنك مشوّش جداً، ولا أنصحك بالذهاب وحدك. إنّك اطمأننتَ إليّ من أول كلمة، وعلى هذا النحو يمكن أن تقع في فخّ لا فكاك لك منه. إنها المدينة! فلتقضِ هذه الليلة عندي، هو ذا السرير، فلتَنَمْ بحفظ الله! إذا كان يحرجك أن تبيت عندنا بلا مقابل، ادفع لبتروفنا ما تسمح به نفسك. وإذا كنتُ أُثقلُ عليك، قلْ لي دون خجل، أنصرفْ.

أعجبني حديثها وعيناها، ولم أستطع إخفاء فرحي الغريب، فتضاحكتُ، وقلتُ:

- آه، يا رئيس الخوارنة!

تعجبّت تَتيانا:

- أيّ رئيس خوارنة؟

يا لمصيبتي، فقد أُحرِجتُ ثانية، فَزَعَمْتُ قائلاً:

- هذا مَثَلٌ عندي، أعني، ليس مثلاً، إنما أحياناً أرى رئيس الخوارنة في نومي...

قالت:

- وداعاً، إذاً!

فقلت:

- كلا، أرجوك لا تذهبي، بل اجلسي معي، إذا كان ذلك صعباً عليك!

جلَسَتْ وابتسمت:

- بكل سرور، وأين الصعوبة؟

طلبتْ إليّ أن أشرب خمراً أو شاياً، وسألتني إن كنت جائعاً، فاغرورقَتْ عيناي بالدموع جرّاء حنانها الحقيقي، وابتهج قلبي مثلما يبتهج عصفور بشمس أوائل الربيع.

قلت لها:

- اعذريني على صراحتي، لكنني أريد أن أعرف: هل صَدَقْتِ في ما قلتِه عن نفسك، أم قلتِ ذلك رغبة في مشاكستي لا غير؟

فقطّبت حاجبيها، وقالت:

- قلتُ الحقيقة. فأنا من ذلك الصنف. وماذا في ذلك؟

- هذه أول مرة في حياتي أرى واحدة منهنّ، إنني أشعر بالخجل.

- وما الذي يخجلك؟ فأنا لا أجلس عارية!

وتضحك ضحكة خافتة، رقيقة.

أقول:

- لا أشعر بالخجل منك، بل من نفسي، من حماقتي!

وحكيت لها، دون أن أخفي شيئاً، كلّ ما يجول في خاطري عن بنات الهوى.

كانت تُنصت إليّ باهتمام وهدوء، ثم قالت:

- بيننا نساء مختلفات، وهناك من هنَّ أسوأ ممّا ذكرت. أنت سريع الثقة بالناس!

ما أصعب أن أقتنع أن فتاة كهذه تبيع نفسها. فأعود للسؤال:

- وهل الفاقة سبب ما تفعلين؟

قالت:

ـ في البداية أغواني أحد الشباب، فلهوت مع غيره لأغيظه، وهكذا شططت. أمّا الآن، فإنني أحتاج أحياناً لاستقبال رجل من أجل لقمة الخبز.

كانت تتحدث ببساطة، وليس في كلامها نبرة شفقة على نفسها.

- وهل تذهبين إلى الكنيسة؟

وهنا ارتعدت، واحمرّت وجنتاها. فقالت:

- الكنيسة ليست ممنوعة على أحد.

أدركت أنني جرحتها، فأسرعت أقول:

ـ لقد أسأتِ فهمي! إنني أحفظ الإنجيل، وأذكر مريم المجدليّة، تلك الآثمة التي استخدمها الفريسيون لإغواء المسيح. كل ما أردته هو أن أسألكِ عمّا إذا كان في نفسك موجدة على الله بسبب حياتك، وهل تشكّين في طيبته؟

قطبّت حاجبيها، وسألتني باستغراب، بعد تفكير:

- لا أرى ما علاقة الله بهذا؟

- قلت:

- كيف؟ فهو راعينا وأبونا، وقدَرُ الإنسان في يده القويّة!

قالت:

ـ لكنني لا أفعل ما يؤذي الناس، فما هو ذنبي، إذاً؟ ومن يتألّم بسبب سلوكي المشين؟ لا أحد سواي!

أشعر أنها تقول الصدق، ومن قلبها، لكنني لا أستطيع أن أفهمه.

قالت وهي تنحني صوبي، وتبتسم بكلّ جوارحها:

- أنا المسؤولة عن خطاياي. لكنني لا أظنّ أن ذنبي كبير.

قد يكون كلامي مُعيباً، لكنها الحقيقة! إنني أُحبّ الذهاب إلى الكنيسة. فهي جديدة عندنا، حسنة الإضاءة، ورائعة جداً! فيها خورس يغني بشكل رائع. وأحياناً يلمسون فؤادك بطريقة تجعلك تبكي. وفي الكنيسة تصفو الروح من كلّ شائبة.

صمتتْ قليلاً، ثم أردفتْ:

- طبعاً، هناك فائدة أخرى هي أن الرجال يرونني.

تثير تَتيانا دهشتي، ويكسو العرق صدغيّ، فأنا لا أدرك كيف تتمكّن من ربط الأمور وصياغتها بهذا الإحكام.

سألتني:

- هل كنت تحب زوجتك كثيراً؟

- كثيراً.

أجبتها وأنا أزداد إعجاباً ببساطتها الرائعة.

ورحت أحكي لها عن وجعي، وعن عتبي على الله، لأنه لم يحُل بيني وبين الخطيئة، ثم إنه ظلمني حين عاقبني بموت أولغا. كانت تقطّب حاجبيها، ويشحب لونها تارة، ثم يتضرّج خدّاها حمرة، وتتّقد عيناها تارة أخرى، فيثيرني ذلك.

لأوّل مرّة في عمري ألتفتُ بأفكاري إلى دائرة حياة البشر كما رأيتها، فمثلتْ أمامي مفكّكة، محطّمة، شائنة، وملطخّة بالأوساخ، في غضبها وضعفها، في صراخها وأنينها، وشكواها.

قلت:

- أين الإلهي في هذه الحياة؟ فالناس يجلس بعضهم على أكتاف بعض، ويمتصّ واحدهم دَمَ أخيه، وما من مكان إلا وتدور فيه معركة وحشية من أجل لقمة العيش، فأين الإلهي في ذلك؟ أين

الخير والحب، والقوّة والجمال؟ صحيح أنني في سن الشباب، لكنني لم أولد أعمى، فأين يسوع بن الله؟ من داس الورود التي غرسها قلبُه الطاهر، ومن ذا الذي سرق حكمة حبِّه؟

حكيت لها عن رئيس الخوارنة، وكيف هددّني بربٍّ شرّير، وأراد استدعاء الشرطة لمساندة ربّه. فضحكت تَتيانا، وضحكتُ أيضاً من ذلك الخوري الذي يشبه حرقوصاً أخضر، يزقزق ويقفز، ظنّاً منه أنه يُحرز تقدماً في عمله، بينما يبدو أنه نفسه ليس قويَّ الإيمان بصحّة ذلك العمل!

ما لبثتِ الفتاة الطيّبة أن تكدّرت بعد أن ضحكت، فقالت:

- لم أفهم كل ما قلتَه، بل وقد أخافني بعضُ ما سمعته منك، فأنت جريء في أفكارك عن الله!

قلت:

- لا يمكننا أن نعيش إذا كنّا لا نرى الله!

قالت:

- نعم، ولكنك تبدو كمن ينوي أن يقاتله، فهل هذا معقول؟ أمّا أنّ الحياة قاسية، فهذا صحيح! إنني أيضاً أفكّر، لماذا هي كذلك؟ أتعرف ما سأقوله لك؟ يوجد على مقربة منّا دير نساء، تعيش فيه ناسكة، وهي عجوز قويّة الحكمة! إنها تتحدّث عن الله بطريقة حسنة. فلتذهب إليها!

- حسناً، سأذهب! إنني الآن سأقصد كلّ الأماكن، وسأزور جميع الأتقياء، فأنا بحاجة للطمأنينة!

قالت، وهي تمدُّ لي يدها:

- أمّا الآن، فقد حان وقت نومي، ولتخلد أنت إلى النوم أيضاً.

خطفتُ يدها، ومضيت أهزّها، وأقول من صميم قلبي:

- شكراً لك! إنني لا أعرف كم منحتِني، ولا أقدّر ثمنه الآن، ولكنني أشعر بأنك إنسان طيّب، شكراً لك!

قالت:

- ماذا تقول، حفظك الله! واحمرّت خجلاً.

- كم يسرّني إن كنت خففت عنك!

أرى أنها مسرورة حقّاً. من أنا بالنسبة إليها؟ أما هي فمسرورة بأنها منحت شخصاً بعض الطمأنينة.

أطفأتُ النور، واستلقيتُ أفكّر:

"ها قد حَضَرتُ العيد مصادفةً!"

فبالرغم من أن حال قلبي لم يكن هيِّناً، فإن فيه شيئاً جديداً جميلاً. وأرى عينَي تَتيانا مشاكستَين تارة، وجدّيّتين تارة أخرى، ما هو إنسانيّ فيهما أكبر مما هو أنثويّ، وأفكّر بها بسرورٍ خالص، أوَ ليس عيداً أن تفكّر بإنسان على هذا النحو؟

قررت أن أهديها في اليوم التالي خاتماً مطعَّماً بحجر أزرق. لكنني نسيت، ولم أشترِه لها... مضى ثلاثة عشر عاماً، وما زلت أشعر بالندم، كلّما تذكرت تلك الفتاة، لأنني لم أشترِ لها الخاتم.

في الصباح طرقَتْ بابي:

- حان وقت الاستيقاظ!

التقينا كصديقين قديمين، ثمّ جلسنا نشرب الشاي، وظلّت تلحّ عليّ أن أزور الناسكة حتّى جعلتني أقطع لها عهداً بذلك. ثم تودّعنا بحرارة، ورافقتني حتّى البوابة.

في المدينة شعرت بأني وحيد، وكأنني في البريّة. كان الدير

يبعد ثلاثة وثلاثين فرسخاً، فانطلقت إلى هناك حالاً. وفي اليوم التالي كنت أحضرُ القدّاس فيه.

كانت الراهبات حولنا مثل حشد أسوَد، كأن جبلاً قد تحطّم فتراكم حطامه في الكنيسة. وكان الدير غنياً، فيه كثير من الراهبات، وكلّهنّ بدينات، بيضاوات البَشَرة، وجوهُهنّ سمينة وطرية، كأنها مصنوعة من عجين. يصلّي الخوري بتفانٍ، لكنْ باختصار، وهو أيضاً حسن التغذية، ضخم الجسم، أجشّ الصوت. كلّ مغنيّات الأكليروس جميلات، رائعات الصوت. وتذرف الشموع دموعاً بيضاء، فيرتعش لهبها شفقة على البشر.

تهتف الأصوات الشابّة بخضوع: "روحي تمضي إلى معبدك، إلى معبدك المقدّس...".

فيما أردّد في قلبي عبارات القدّاس بحكم العادة، أتلفّت لأعرف مَن هي الناسكة هنا، ولا خشوع في قلبي. وعندما أدركت ذلك ارتبكت... فأنا ما جئت إلى هنا لألعب، إلا أن روحي خاوية. ولا أستطيع التماسك، فكلّ شيء فيّ مشتّت، وأفكاري تتقافز. أرى عدداً من الوجوه المنهكة، وجوه نساء طاعناتٍ في السن، شبيهاتٍ بالموتى، ينظرن إلى الأيقونات، ويتمتمن بشفاههنّ فلا تسمع الهمس.

مضيت، بعد انتهاء القداس، أطوف حول الكنيسة. كانت السماء صافية، تتناثر شراراتُ أشعة شمسها فوق الثلج، وطيور سنّ المنجل تزقزق على الأشجار وهي تنفض الجليد عن الأغصان. اقتربت من السور، ورحت أتأمّل الآفاق الأرضية البعيدة، فأرى ديراً فوق الجبل، تترامى أمامه الأرض الأم في حلّة فاخرة من فضّة الثلوج الزرقاء، وقُرى صغيرة كئيبة، وغابة يشقّها النهر، بينما تمتدّ

الطرقات مثل شرائط ضائعة، والشمس تنثر على كلّ شيء خيوط أشعتّها الشتوية المائلة. سكينةٌ، وطمأنينة، وجمال...

وبعد مدة قصيرة كنت في قلية الأم "فيفرونيا". وإذا بها عجوز صغيرة، عيناها بلا حاجبين. وفي كل تجعيدة من وجهها ابتسامة طيبة ترتعش باستمرار. كانت تتحدث بصوت خافت، شبهِ هامس، ترتّل كلامها. فتقول:

ـ لا تأكلِ التفّاح أيها الشابّ، قبل عيد الربّ، انتظر ريثما يُنضجه الربّ الحبيب، وتسوَدّ بذوره!

تساءلت: لِمَ تقول هذا الكلام؟

وأردفَتْ:

- أكرِم أباك وأمَّك...

قلت لها:

- ليس لي أب ولا أمّ.

- فلتصلِّ على روحيهما...

- لكنهما قد يكونان على قيد الحياة!

نظرتْ إليّ وهي تبتسم مشفقة. ثم عادت لتهزّ رأسها ثانية، وتغنّي:

- ربُّنا طيّبٌ وعادل، يُكرِم الجميع!

فقلت:

- لكنني أشكّ في ذلك.

رأيتها خافَتْ، فأسبلَتْ يديها وصمَتَتْ، وهي ترفُّ بجفنيها. إلا أنها تمالكت نفسها، وعادت تغنّي بهدوء:

- تذكّر أن للصلاة أجنحة، وهي أسرع من جميع الطيور،

ودائماً تصل إلى عرش الله! لم يدخل أحد ملكوت السماء على ظهر حصان...

أدركت أن الله في نظرها سيِّد، طيّب، ولطيف، ولا شرْعَ يحدّه في نظر هذه العجوز. ومضت تستشهد بالأمثال، غير أنني لا أفهمها، فيبعث ذلك في الحزن.

انحنيت تحية لها، وخرجت.

جال في خاطري:

"لقد فكّك البشرُ الإلهَ إلى أجزاء، كلٌّ حسب حاجته، فهو طيِّب عند بعضهم، ومرعب عند آخرين، أما الكهنة فجعلوا منه أجيراً عندهم، يُطعمهم بسخاء مقابل دُخَان مبخرتهم، إلا لاريون، فكان لا حدود لربّه".

كانت الراهبات ينقلن الثلج بالزحّافات، ويضحكن وهنَّ يمررن بجانبي، فيما همّي يُثقل كاهلي، ولا أعرف ما عليّ أن أفعل. خرجت من البوابة، فوجدت الهدوء. ثلوج تلمع. وأشجار ساكنة لا حراك فيها، يغطيّها الجليد. كلّ شيء ساهمٌ. والسماء والأرض تنظران إلى الدير بحنان. فأخاف أن أعكّر هذه السكينة بصرخة ما...

في المساء سمعت البشارة في الكنيسة. يا له من ناقوسٍ رائع! كان يدعو الناس بلطف ووضوح. لكنني لم أرغب بدخول الكنيسة. فقد شعرت وكأن مسامير دقيقة منثورة في رأسي.

وبغتة قرّرت، دون سابق تفكير، أن أذهب لأعيش في دير يتميّز بنظام أقسى ممّا في سواه. سأعيش وحدي في قِلّيْةٍ، أفكّر، وأقرأ الكتب... فقد أُلملم في عزلتي حطام روحي، وأجعل منها قوّة لا تُقهر؟

وبعد أسبوع كنت أقف في صحراء "سافاتيِّف"، أمام رئيس الدير، فنال إعجابي. كان حسن الطلعة، أشيب الشعر، أجلحَ الرأس، أحمر الخدَّين، قويّ البنية، بينما وجهه جدّيٌّ، وعيناه واعدتان.

سألني:

ـ لماذا أنت هارب من الدنيا، يا بني؟

فأوضحت له أن روحي مشوَّشة بسبب وفاة زوجتي. ولم أقوَ على قول المزيد، كأن شيئاً يمنعني من ذلك.

نظر إليّ نظرة ثاقبة، وقال وهو يعبث بلحيته:

- أيمكنك تقديم صدقة؟

قلت:

- لديّ حوالي مائة روبل.

- أعطني إياها! واذهب إلى غرفة المسافرين، فسوف أتكلّم معك غداً، بعد القدّاس.

كان الأب "نيفونْت" مسؤولاً عن المسافرين، ولقد أعجبني أيضاً.

قال لي:

ـ إن ديرنا بسيط، وأخويٌّ بصدق، وجميع من فيه متساوون في خدمة الله، خلافاً لما في الأديرة الأخرى! هناك سيِّدٌ واحد، لكنه لا يتدخَّل في شيء، ولا يضايق أحداً. لعلك واجدٌ هنا الراحة وطمأنينة النفس!

طفت الدير في يوم واحد. يبدو أنه كان فيما مضى يتوسَّط غابة، ولكن أشجارها قُطِعت، ولم يبقَ إلا جذاميرُ بارزة أمام

البوّابـة، فيمـا تعـانق الغابـةُ الـديرَ عنـد جـانبَي الـسور بجنـاحين أسودين، فتحيط بالكنيسة ذات الأبراج الزرقـاء، والأبنيـةِ البيضـاء. و تترامى بُحيرةُ "سين" قُبالةَ الدير مثل هـلال جليدي، إذ يبلـغ طولها تـسعة فراسـخ، وعرضـها أربعـة. وتلـوح خلـف الـبحيرة ثـلاث كنـائس"كوديـاروف"، والــبرج الذهبــي لكنيــسة نيقــولا في تولونتـسِف"، فيمـا تحتـشد علـى جانـب الـدير بيـوت قريـة "كوديـاروف"، وعـددها ثلاثـة وعـشرون بيتـاً. وتحـيط بالـدير غابـة هـائلة.

شيء رائع. لقد غمرت الطمأنينة روحي. هنـا سـأتحدث إلى الله، وأكشف له خبايا روحي، وأطلب منه بإلحاح وتسليم أن يهديني إلى سبل معرفة شرائعهِ!

في المساء صليّت صلاة الليل. كانت الصلوات تؤدّى بصرامة، وَفقاً للدرجات، وبحماسة، إلا أنّ الإنشاد كان ينقصه التناغم، وما من أصوات جميلة. فأبتهل:

- اغفر لي يا ربّ، إن كنتُ جسوراً في أفكاري عنك، ليست جسارتي وليدة انعدام الإيمان، بل هي وليدة حبي ولهفتي، وأنت تعرف ذلك، أيها العليم!

وفجأة التفتَ إليّ راهب كان واقفاً في المقدّمة، وابتسم. يبدو أنني همست ابتهالاتي بصوت عالٍ، – كان يبتسم – وياله من وجه جميل أراه أمامي!

خفضت رأسي، وزمّمْتُ عينَيّ، فلم يسبق لي أن رأيت رجلاً يتمتّع بهذا القدْر من الجمال، ولم أرَ مثله فيما بعد. تقدّمت إلى الأمام، فوقفت إلى جانبه، ورحت أتملّى وجهه البديع. كان وجهه

ناصعاً مثل زهر أبيض، تحيط به لحية سوداء، يتخلّلها بعض الشيب، عيناه كبيرتان، مفعمتان بالكبرياء، طويل القامة، ممشوق القدّ، شامخ الأنف قليلاً مثل طير، وفي قامته شيء من النبل. لقد فتنني فتنة جعلتني أراه تلك الليلة في المنام.

أيقظني نيفونْت في الصباح الباكر، وقال:

- لقد أَعَدَّ لك الأب الرئيس عملاً ليمتحنك، فاذهب إلى الفرن. وسيرافقك هذا الراهب التقيّ، ويكون رئيساً لك! وهاك لباسَ الدير!

ارتديت ثوب الدير، فوجدت قياسه مناسباً لي، إلاّ أنه مستعمل ووسخ، والجزمة بلا نعل.

نظرت إلى رئيسي، فوجدته عريض المنكبين، أخرق، تملأ الثآليل جبينه وخدَّيه، وتنبت من دماملة خصيلات من الشعر الرمادي، بينما بدا وجهه وكأنه مكسوٌّ بصوفِ خروف. كانت هيئته تبعث على الضحك. لكنّ جبينه عريض، مليء بتجاعيدَ عميقةٍ، وشفتاه مزمومتان بصرامة، وعيناه صغيرتان، مكتئبتان.

أمرني:

- أسرِعْ.

صوته خشن، لكنه متقطّع مثل جرس متصدّع.

قال نيفونْت مبتسماً:

- اسمه الأخ ميخا! حفظكما الله!

خرجنا إلى الباحة وقت حلول الظلام. فتعثّر ميخا، وراح يشتم ببذاءة. ثم سألني:

- هل تعرف كيف تعجن؟

قلت:

ـ رأيت كيف تفعل النساء ذلك.

فتمتم مستاءً:

ـ النساء! لا همَّ لكم سوى النساء. النساء في كلّ شيء! لقد حلّت اللعنة على الدنيا بسببهنّ. عليكم أن تتذكّروا ذلك.

قلت:

- غير أن العذراء كانت امرأة.
- وماذا في ذلك؟
- وهناك كثير من القدّيسات المؤمنات.
- ثرثرْ! وسرعان ما تجد نفسك في جهنّم، عند الشيطان!

ففكّرت: "يا له من رجل جدّي!"

وصلنا إلى الفرن، فأشعل ميخا النار. كان هناك وعاءان كبيران مغطّيان بأكياس، والفرن قذر، وسخ، مليء بشِباك العنكبوت والغبار الرمادي. سحب ميخا الأكياس عن أحد الوعائين، ثم رماها على الأرض، وأمرني:

ـ تعلّم! هذه هي الخميرة! أترى الفقاعات؟ إنها تشير إلى أن العجين أصبح ناضجاً.

ثم حمل كيس الطحين، كمن يحمل طفلاً عمره ثلاث سنوات، فأسنده إلى طرف الوعاء، ثمّ شقّه بالسكين، وراح يصيح كأنّ حريقاً نشب:

- اسكبْ أربعة دلاء من الماء! اعجن!

وسرعان ما صار أبيض كلّه، كأنه مكسوٌّ بالثلج.

خلع جلبابه، وشمّر عن ساعديه، وقال:

- لا لزوم لهذا! اخلع السروال... هيا اعجن بقدميك!

قلت:

- لم أغتسل منذ مدة...

- ومن يسألك عن ذلك؟

- وكيف أعجن، وقدماي متسّختان؟

وإذا به يصرخ:

- مَنِ الرئيس: أنا، أم أنت؟

كان عريض الفم، كبير الأسنان، ويداه طويلتان يلوّح بهما بجلافة.

قلت في نفسي:

"ليكنْ ما تريد، فلتأخذْك الكلاب!"

مسحت قدميَّ بخرقة رطبة، ثمّ نزلت إلى الوعاء، وشرعت أعجن بقدميّ، فيما كان رئيسي يتدحرج على طول الفرن، ويزأر:

- سألوي ذراعك، أيها المدلل! سأعلّمك الانصياع!

ما إن انتهيت من عجن الوعاء الأول حتى كان الثاني جاهزاً. وبينما كنت منهمكاً في عجنه، نضج الأول وصار عليّ أن أعجنه بيدَيّ. كنت شاباً قويّ البنية، لكنني لا أعرف هذا العمل، فلطّخ العجين أنفي، وفمي، وأذنَيَّ، وعينَيَّ، حتى غدوت لا أسمع ولا أرى، ورحت أتصبّبُ عرقاً، تتساقط قطراته في العجين.

قلت:

- أليس هناك خرقة لأمسح عرقي؟

فغضب ميخا، وأجاب:

- سوف نقتني مناشفَ من المخمل من أجلك! فالدير ينتظر

تشريعاتك منذ لحظة وجوده، قبل مائتين واثنين وثلاثين عاماً!

أثار ذلك ضحكي. فقلت:

- لست أقول ذلك من أجلي! فالناس هم الذين سيأكلون الخبز!

اقترب ميخا منّي وهو يرتجف، وقد وقف شعر رأسه مثل قنفذ، وراح يخور:

- امسحْ عرقك بالكيس، إن كنت تقرف! أما وقاحتك فسأخبر عنها رئيس الدير!

لقد أثار هذا الرجل استغرابي إلى حدّ جعلني لا أتمكّن حتّى من الاستياء منه. فقد كان يعمل بلا كلل أو ملل، يحمل أكياساً وزنُ الواحد منها خمسون كيلو غراماً، فتبدو بين يديه مثل الوسائد، يكسوه الطحين، فيَهرُّ ويشتم وهو يحثّني على العمل:

- أسرعْ، هيّا!

وأنا أبذل قُصارى جهدي إلى أن أشعر بالدوار.

ما أصعب الأيام الأولى من الامتحان! كان الفرن يقع في قبو، تحت غرفة الطعام. سقفُه منخفض، ولا يوجد فيه سوى نافذة واحدة مغلقة بإحكام. الجوُّ خانق، وغبار الطحين يثير ضباباً كثيفاً يتخبّط فيه ميخا مثل دبٍّ مربوط بسلسلة من حديد، بينما يومض اللهب في الفرن عبر الغبش. وما من أحد في الفرن غيرنا، أنا وميخا، إلا ما ندر، وإذا ما عوقب أحد من تلامذة الدير أَجبروه على مساعدتنا. ليس لدينا وقت للصلاة في الكنيسة. فميخا يلقنّني الدروس كل يوم كمن يربطني بحبل متين. ويلتهب ميخا، ويطلق

دخانه سخطاً على الدنيا، فيما أتنشّق كلامه حتى يمتلئ جوي في بفحم كثيف.

يقول:

- لقد انتهى البشر بالنسبة إليك، إنهم ينثرون الإثم في الدنيا، أمّا أنت فهجرتها. وما دمتَ ابتعدت عنها بجسدك، فلا بدّ لك من الابتعاد عنها بفكرك أيضاً. لأنك إذا ما فكّرتَ بالبشر، تذكّرتَ المرأة حتماً، والمرأة هي من ألقتِ العالم في ظلام الخطيئة، وقيدّته إلى الأبد!

وكنتُ إذا ما فتحتُ فمي لأتكلّم، أَسرعَ بالصراخ:

- اصمت! استمع بانتباه إلى أهل الخبرة، وانصت باحترام إلى من يكبرك! أعرف أنك لا تكفّ عن الثرثرة حول العذراء! إلا أن المسيح مات مصلوباً بسبب ذلك، لأنه ولد من امرأة، ولم يهبط من السماء بقداسة وطهارة، كما أنه ظلّ طول حياته متعاطفاً مع أولئك النساء الفاسدات! كان عليه أن يُلقي بالسامِرية في البئر بدلاً من التحدث إليها، فلو أنه رمى تلك الساقطة بحجر على جبينها لأنقذ العالم!

- لكن هذه ليست فكرة كَنَسيَّة.

- أقول لك أن تصمت! ماذا تفهم في الكنسي وغير الكنسي؟ صارت الكنيسة في أيدي الإكليروس الدهري، أَسيرةَ الساقطين والمختالين، انظر كيف يرتدون جلابيبَ حريرٍ تشبه تنانير النساء! إنهم جميعاً مهرطقون، لا يليق بهم شيء سوى الرقص، وليس أن يسنّوا الشرائع! هل يستطيع رجل متّزوج أن يفكّر بالقضايا الإلهية تفكيراً طاهراً؟ إنه لا يقوى على ذلك، لأنه

يستمرّ في الخطيئة العظمى المتمثّلة بالشهوة التي طُرِد الإنسان من الجنة عقاباً عليها! تلك الخطيئة هي التي ألقت بنا إلى الحزن الأبدي منبوذين، فكُتِب علينا صريف الأسنان، والتشنُّجات الشيطانية، لقد عمينا ولن نرى وجه الله إلى أبد الآبدين! إن رجال كهنوت أنفسهم ينسجون شبكة الإثم بإنجابهم أطفالاً من المرأة، وهم بذلك يقوّون انهيار العالم. لقد حرّفوا االشرائع كلّها من أجل تبرير انحرافهم.

ويمعن هذا الرجل في تضييق أحجار الجدران عليّ أكثر فأكثر، ويخفض سقف البناء فوق رأسي، حتّى أشعر بالضيق، والثقل، في غبار كلامه.

أسأله:

- وكيف، إذاً، قال الله: تكاثروا، وتناسلوا؟

ازرقّ معلّمي، ومضى يضرب الأرض بقدميه، ويزأر:

ـ قال، قال! وهل تعرف كيف قال هذا، أيها الأحمق؟ لقد قال: تكاثروا وتناسلوا، واسكنوا الأرض. إني أُسلِّمكم للشيطان، وعليكم اللعنة اليوم، وبعد اليوم، وإلى أبد الآبدين! هذا ما قاله! بينما اتّخذ الضالّون من لعنة الله شريعة لهم! أفَهمت القذارة والنفاق؟

كان ينقضُّ عليّ مثل جبل فيسحقني، وأشعر بالظلام يحيط بي. لا يمكنني أن أصدِّقه، مثلما لا أقوى على دحض تشفيّه الوحشي، فقد أربكني عنفوان حماسته. وإذا ما استشهدتُ له بنصّ من الإنجيل، قابلني بثلاثة نصوص، وقضى على فكرتي. لعلّ الإنجيل حقلٌ زاهٍ من الورود، إن أردتَ الحمراء وجدتَها، وإن أردتَ

البيضاء فهي موجودة أيضاً. أقف أمامه صامتاً كالقتيل، فيما هو يبتهج، وتتقّد عيناه مثل عينَي ذئب. إنني منهمك في العمل طوال الوقت. فأنا أعجن، وهو يرقُّ الخبز، ثمّ يُدخله إلى الفرن، وبعد أن ينضج يخرجه لأوزّعه على الرفوف، فيحرق يدي. ويلتصق العجين بي، ويتناثر الطحين عليّ. فأشعر أنني أعمى وأصمّ، ولا أقوى على الاستيعاب من شدّة التعب. ويزورنا رهبان مختلفون، يلمِّحون إلى بعض الأشياء بالألغاز، ويضحكون، فيَنْبَحُ ميخا عليهم بغضب، ويطردهم من الفرن، فيما أبدو أنا كالمسلوق. لقد أصبحتُ كئيباً، وأشعر بعبءٍ مع ميخا، فأنا لا أُحبّه، ولكنني أخشاه.

سألني عدة مرات:

- هل ترى نساء عاريات في نومك؟
- كلا، لم أحلم بهنَّ قط.
- أنت تكذب! لماذا تكذب؟

يغضب، ويكشّر عن أسنانه، ملوّحاً بقبضته أمامي، ويصيح:

- كاذب ولئيم!

ولا يسعني إلا أن أتعجّب منه. أيّ نساء عاريات؟ رجل يعمل من الثالثة صباحاً حتى العاشرة ليلاً، وحين يخلد للنوم تؤلمه عظامه فيئنّ مثلما يئنّ الشحّاذ في الشتاء، أمّا هو فيتكلّم عن النساء!

ذات مرّة ذهبتُ إلى المستودع لأُحضر الخميرة، فقدكان هناك مستودع مظلم في القبو، مقابل الفرن. رأيت بابه غيرَ موصد، وضوءَ قنديل في الداخل. ولمّا فتحت الباب، وجدت ميخا يزحف على الأرض، ويزعق:

- أبْعِدْهنّ عني ياربّ! أتوسّل إليك... أبْعدهنّ... وخلّصني.

بالطبع، خرجت حالاً، إلا أنني لم أفهم ماذا يجري.

كان دوماً يتكلّم عن النساء كلاماً مقيتاً، وبذيئاً، فينعتُ بالفحش كل ما يخصّ الأنثى، ويبصق كفلاح عند ذكرهنّ، ثمّ يعقف أصابعه، ويرسم بها في الهواء حركة من يمزّق جسد امرأة، ويُمثّل به. كنت لا أطيق سماع ذلك، فأشعر بأنفاسي تضيق. وأتذكّر زوجتي، ودموع سعادتنا ليلة زفافنا، وارتباكنا الهادئ، الخجول أمام بعضنا البعض، وفرحَنا العظيم...

"أليست هي نعمتك الهنيئة تهبها للرجل، يا إلهي؟".

أتذكّر قلب تَتيانا الطيّب وبساطتها، فأتألّم على المرأة، وتبعث حالتُها في الدموع، وأفكّر:

"إذا استدعاني رئيس الدير للحديث، سأحكي له كل شيء".

لكنه لا يطلبني. وتمضي الأيام مثل عميان يسلكون درباً ضيقة في غابة، يتعثّر بعضهم ببعض، ولا يستدعيني رئيس الدير، فأشعر بالظلام يحيط بي.

لقد خَطَّ الشيب رأسي أوّل مرة آنذاك، وكنت أناهز الثانية والعشرين من عمري.

أتوق للكلام مع الراهب الجميل، إلا أنني لا أراه إلا نادراً، وخطفاً، حين يمرّ وجهه الشامخ في مكان ما، فيتبعه حزني كظلّ خفيّ.

سألت ميخا عنه، فراح يصيح:

- أو - و - ه! هذا؟ نعم، إنه حيوان يعيش حياةً تقيّة، وكيف لا! فقد طُرِد من الجيش بسبب لعب القمار، ثم طُرِد من الأكاديمية الشرعية بسبب فضائحه مع النساء! جاء من مدرسة الضباط إلى

الأكاديمية! لقد نهب جميعَ الكهنة في دير"تشودوفو" ، عندما كان يلعب معهم القمار، ثم جاء إلى هنا ، فتصدّق بمبلغ سبعة آلاف وخمس مائة روبل، وتبّرع بقطعة أرض، وبذلك اشترى لنفسه مكانة رفيعة، نعم! وهو،هنا أيضاً ، يلعب القمار مع رئيس الدير، ومسؤول القِليات، ورئيس الخزنة. وتتردّد عليه امرأة... يالهم من أنذال! لديه قِلْية مستقلّة يعيش فيها كما يحلو له! يا له من قذارة فظيعة!

لم أكن أصدق ذلك. لم أكن أستطيع تصديقه.

ذات مرة طلبت من الأب إسيدور، مسؤولِ القِليات،أن يسمح لي بالحديث مع رئيس الدير.

- وعمَّ ستتحدث معه؟

قلت:

- عن الإيمان.

- ما معنى عن الإيمان؟

- لديّ أسئلة مختلفة.

وإذا به يروزني من أعلى إلى أسفل، كان أطول مني بنحو نصف ذراع، نحيلاً، بارز العظام، عيناه ذكيتان، ساخرتان، أنفُه معقوف، ولحيته طويلة، مدبّبة.

- قُلِ الحقيقة، هل تشعر بالشهوة؟

تبّاً لهم، ليس لديهم من حديث سوى الشهوة!

ما كنت أريد التحدث إليه، لكنني بحت له ببعض شكوكي باختصار. فَعَبَس، وقال مبتسماً:

- يا بنيّ، لا دواء لشكوكك إلا الصلاة، فبالصلاة تشفي علّةَ روحك! لكنني، تقديراً منّي لتفانيك في العمل، ونظراً لغرابة

طلبك، سأخبر رئيس الدير. فانتظر!

لقد تعجبّت من كلمة "غرابة"، إذ شعرت بفراغٍ فيها معادٍ لي.

استدعوني إلى الأب، رئيسِ الدير، فتأمّلني بتمّعن وأنا أنحني إجلالاً له. قال بنبرة آمرة:

- لقد أخبرني الأب إسيدور عن رغبتك بمجادلتي في العقيدة...

- لا أريد جدالاً...

- ينبغي ألاّ تقاطع من هم أكبر منك سنّاً! فأيّ نقاش بين اثنين حول موضوع واحد هو بحدّ ذاته جدال. وكل سؤالٍ إغواءٌ للفكر، إلا إذا كان الموضوع يتعلق بحياة الدير اليومية، والعملِ فيه! لدينا جمعية للعمل، تعمل لكي يعيش الجسد من أجل أن تتمكّن الروح التي تسكنه مؤقّتاً من الابتهال إلى الله، من أجل أن تصلّي طالبةً منه الرحمة كي يغفر خطاياها في الأرض. ليس ديرنا مدرسة للفلسفة، بل هو للعمل، ولا نحتاج للحكمة، بل لبساطة الروح. أعرف جدالك مع الأخ ميخا، إنه لم يَنَلِ استحساني! عليك أن تكبح جماح أفكارك، كي لا تسقط ضحية الإغواء، فإن الفكرة الطليقة التي لا يلجمها الإيمان ليست إلا سلاحاً حاداً من أسلحة الشيطان. ذلك أن العقل وليد الجسد، والجسد من الشيطان، أمّا قوّة الروح فهي جزء من روح الله، وهو يمنح التقيّ هِبة الاعتراف عبر التأمل. إن رئيسك، الأخ ميخا، راهبٌ قاسٍ، غير أنه رفيق حقيقي، وأخ يحبّه الجميع هنا جزاءَ أتعابه. إنني أفرض عليك نذراً، قصاص توبة. فبعد عملك في النهار يتوجّب عليك، وأنتَ في القسم اليساري أمام الصليب، أن تقرأ آية الغفران ثلاث مرات ليلاً ولمدة عشرة أيام. ثم ستصغي لمواعظ الراهب "مارداري" التي

سوف أحدّد في حينه توقيتها وعددها. لعلّك كنت محاسباً في مزرعة؟ اذهب بسلام، سأفكّر فيك! أعتقد أنه لا أقارب لك في الدنيا؟ اذهب، سأصلّي من أجلك ! تفاءل خيراً!

عدت إلى الفرن، ورحت أزِن هذا الكلام في رأسي، فوجدته سخيفاً!

قد يخطئ العقل في أبحاثه، لكنْ من غير اللائق، وليس من التقوى أن يعيش الإنسان مثل أحمق. أمّا التأمّل في الصلاة، فكنت أتصوره آنذاك غوصاً في أعماق روحي، إلى حيث تكمن الجذور كلّها، فمن هناك تتطلّع الأفكار للنموّ عالياً، مثل شجرة مثمرة. ما كنت أجد في روحي شيئاً معادياً لنفسي أو مبهماً، إنما كنت أشعر بأن المبهم هو الله، وعدوّي هو الدنيا، أيْ هي أشياء من خارجي أنا. أمّا ما يخصّ محبة أهل الدير لميخا، فتلك كذبةٌ جليّة. ذلك أنه بالرغم من كوني حيادياً في الدير، ولا أشارك في الأحاديث، فما من شيء كان يفوتني، وقد لاحظت أن أصحاب الجلابيب، والرهبان المتدربين جميعاً يحتقرون ميخا، يخشونه ويشمئزّون منه.

وقد لاحظت أيضاً أن الدير يُستغَلُّ لأغراض اقتصادية، إذ تبيع إدارته الأخشاب، وتؤجّر الأراضي للفلاحين، وتقوم بصيد الأسماك في البحيرة، كما أنّ للدير طاحونة، ومزارعَ خضار، وبستاناً واسعاً من الأشجار المثمرة؛ والقيّمون عليه يبيعون التفاح والثمار والملفوف. ويوجد ثمانية عشر حصاناً في الحظيرة، وعدد سكان الدير أكثر من مائة شخص، كلُّهم من الرجال الأصحّاء، القادرين على العمل. في حين أن عدد العجزة قليل، لا يكاد يكفي للصلوات وأيام

الأعياد. أمّا الكهنة فيعاقرون الخمرة، ويعاشرون النساء بحماسة، إذ يتسلّل أصغرهم سنّاً إلى القرية ليلاً، بينما تأتي النساء إلى قليات الكهنة الأكبر سنّاً بحُجّة التنظيف. وهم، بالطبع، يستغلّون المصلّيات أيضاً. على أن هذا كلّه لا يعنيني، ولا يحقّ لي أن أنتقدهم عليه، لأنّني لا أراه إثماً، لكنّ النفاق ينفّرني. ثم إنّ عدد الرهبان المتدرّبين كبير، واختباراتهم صعبة، وكثيرون منهم لا يحتملونها، فيفرّون. ففي غضون العامين اللذين أمضيتهما في الدير كنت شاهداً على فرار أحد عشر شخصاً، لم يمكثوا سوى شهر أو شهرين، ثم ولّوا هاربين! كان البقاء شاقاً!

بالطبع، كانت هناك مغريات تجذب المصلين إلى الدير، مثل سلاسل القدّيس المرحوم يوساف الناذرِ نفسَه، وهي سلاسل تشفي آلام مفاصل الرُّكَب، وسترته التي تشفي من آلام الرأس، إذا ما وُضِعَتْ عليه. كذلك كان في الغابة نبع شديد البرودة، إذا سُكب ماؤه على الجسد، شفاه من جميع العلل، وكذلك أيقونة العذراء التي تصنع المعجزات أمام المؤمنين. كما كان الكاهن مارداري الناذر نفسه يتنبّأ بالمستقبل، ويواسي أحزان الناس. كان كلّ شيء كما ينبغي له أن يكون، ولهذا كان المؤمنون يتوافدون علينا أفواجاً في شهر أيّار من كلّ ربيع.

بعد حديثي مع رئيس الدير، راودتني أنا أيضاً رغبة بالرحيل إلى دير آخر، أبسطَ وأقلَّ ثراءً وشقاءً، يكون الكهنة فيه أقرب ما يمكن إلى واجبهم بالبحث عن الخطايا الدنيوية، غير أن أحداثاً مختلفة ألْهَتْني عن ذلك.

تعرّفت فجأة إلى أحد المتدرّبين، اسمه غريشا، يعمل في مكتب

محاسبة الدير. لقد لفَتَ نظري منذ مدّة، فكان دوماً يمرُّ بين الأخوة سريع الخطا، ولا يُحدث جلبة. إنه شابٌّ ذو نظّارة رمادية، وجهُه عاديّ الملامح، مقوَّس الظهر، يمشي مطأطأ الرأس كأنه لا يريد أن يرى سوى الدرب التي أمامه.

جاء غريشا إلى الفرن في اليوم الذي أعقب حديثي مع رئيس الدير. كان ميخا قد ذهب ليقدِّم تقريراً لأبينا رئيس الخزنة. دخل غريشا، ثمّ ألقى التحية بهدوء، وسألني:

- هل كنت عند رئيس الدير، يا أخي؟
- نعم.
- هل تحدّثتما؟
- كلا .
- هل طردك؟
- لماذا؟

ارتبك، ثم قال وهو يعدّل نظّارته:

- اعذرني، كُرمى للمسيح!
- وهل طردك من قبل؟

هزَّ رأسه بالإيجاب.

وجلس على العنبر مقوَّس الظهر، وأخذ يسعل بجفاف، ويدقّ جدار العنبر بكعبيه، فيما رحت أقصّ عليه حديثي مع رئيس الدير. وفجأة، نهض على قدميه، وانتصب مثل نابض، ومضى يتكلّم بحرارة، وصوتٍ رنّان:

- لِمَ يسمّون هذا المكان بمكان إنقاذ الروح، مادام كلّ شيء فيه، شأنه شأن غيره، قائماً على المال، ونعيش فيه من أجل المال، كما في باقي الدنيا؟ لقد جئت إلى هنا هرباً من إثم التجارة، وإذا

بي أجدها ماثلة أمامي هنا، فإلى أين أفرّ الآن؟

كان يرتجف وهو يحكي لي عن نفسه متعجّلاً: إنه ابن تاجرٍ بائعِ خبز، وقد تخرّج في المعهد التجاري، وعمل بالتجارة مع والده. قال:

- لقد تاجرت بأمور تافهة، لكنّ تجارة الخبز معيبة، ومحرجة! إن الخبز مادّة لا يمكن لأحد أن يستغني عنها، ولا يجوز احتكارها من أجل جني الأرباح على حساب فاقة الناس! كان والدي سيكسر تصميمي لو لم يكسره جشعه. كان لي أخت في المدرسة، مرحة وجريئة، لها أصدقاء من الطلبة الجامعيين، وكانت تطالع الكتب. وإذا بوالدي يقول لها: "اتركي الدراسة، يا ليزا، فقد وجدت لكِ عريساً". راحت تبكي، وتضرب نفسها، وتصرخ: "لا أريد!". لكنه أمسك بها من ضفيرتها، وأرغمها على الطاعة. كان العريس ابن تاجر شاي، فاحش الثراء، كان شاباً ضخم الجثة، أَحْوَلَ العينين، وقِحَ الطباع، لا يكفُّ عن التباهي بثرائه. وتبدو ليزا بالمقارنة معه مثل فأر قبالة كلب، وكانت تشمئزُّ منه! بينما يقول لها أبي: "أيتها الحمقاء، إن لتجارته فروعاً في كثير من المدن الواقعة على ضفاف نهر الفولغا!". ثمّ كلَّلوها، وفي أثناء الغداء الاحتفالي، ذهبتْ إلى غرفتها، وأودعتْ صدرها رصاصة، وقد كانت ما تزال حية حين دخلتُ، فقالت لي:

"وداعاً يا غريشا، كم أنا راغبة في الحياة، إلا أن ذلك متعذّرٌ عليّ، فأنا أشعر بالذعر. لا أستطيع، لا أستطيع!".

أذكُر أنه كان يتكلّم بسرعة بالغة، وكأنه يهرب من الماضي، فيما أنا أستمع إليه وأتأمّل الفرن. ويبدو لي وجه الفرن

كأنه وجهٌ قديم أعمى، تملأ فمه الأسود ألسنة شريرة من اللهب المبتهج، وهو يمضغ حطباً، ويصفر، ويفحّ. أرى شقيقة غريشا في اللهب، وأفكّر: لماذا يَغتصِب ويُهلِك الناسُ بعضهم بعضاً؟

وتتساقط كلمات غريشا متتالية، مثل أوراق جافّة في الخريف:

ـ ...جُنَّ جنون والدي، ومضى يدقّ الأرض بقدميه، ويصيح: "لقد فضحتْ والدها، وأهلكت روحها!". ولكنّه حين رأى منطقة "قازان" بأَسْرها تأتي لوداع ليزا، وتغطّي نعشها بباقات الأزهار، ثاب إلى رشده، بعد الجنازة، وقال: "لا بدَّ أنني نذْلٌ ومذنب أمام ابنتي، مادام كلّ الناس في صفّها!".

كان غريشا يبكي، وترتعش يداه، وهو يمسح نظّارته.

ـ لقد شغلتني فكرة الذهاب إلى الدير قبل وقوع هذه المصيبة، حتى إنني قلت حينها لأبي:

"دعني أذهب!"، فشتمني وضربني، لكنني قلت له بإصرار: "دعني أذهب، فأنا لن أعمل بالتجارة!". ولما كان لا يزال مرعوباً من حادثة ليزا، ما لبث أن أطلقني. فعشتُ خلال أربعة أعوام في ثلاثة أديرة، و كنت أجد التجارة في كل مكان فيها، ولا أجد ملاذاً لروحي! إنهم يتاجرون بالأرض، وبكلمة الله. ويبيعون العسل والمعجزات... إنني لا أقوى على رؤية ذلك!

لقد أيقظت قصته روحي. إذ لم يتسنَّ لي أن أفكّر كثيراً وأنا أعيش في الدير. لقد أنهكني العمل، فغفت أفكاري المتمردة، ثم فجأة التهبت كلّها مرة أخرى.

سألت غريشا:

ـ أين ربّنا، إذاً؟ فلا شيء حولنا سوى الغباء البشري،

اللاعقلاني، المتعسّف. لاشيء سوى الاحتيال التافه الذي يولّد المصائب الكبيرة. أين هو الله، إذاً؟

غير أن ميخا جاء في هذه اللحظة، وفَرّقَنا.

منذ ذلك اليوم، صار غريشا يكثر من مجيئه إليّ، فأبوح له بأفكاري التي تثير رعبه. وينصحني بالتوبة، فأقول له:

- لماذا كلّ هذه الويلات للبشر؟

- جزاءً على آثامهم، - يجيبني، - وكلّها من يد الله: الجوع، والحرائق، والحوادث، والطوفانات، وكلُّ شيء!

أقول:

- وهل الله هو من يرسل المصائب إلى الأرض؟

يهمس لي:

- تذكّر أيُّوب، أيها المجنون!

أقول:

ـ لا يعنيني أيّوب! لو كنت مكانه لقلت لله: لا تُرهِبْني، بل أجبْني بوضوح، أين السبيل إليك! فأنا ابن عظَمتك، وقد خلقتني على شاكلتك، فلا تُهِنْ نفسك وتبعد ابنك عنك!

كثيراً ما كان غريشا يبكي متأثّراً بتجديفاتي، ويضمُّني هامساً:

- أخي العزيز، إني أخاف عليك حتى الرعب! إن أقوالك وأفكارك من الشيطان.

- أنا لا أؤمن بالشيطان، مادام الله قادراً على كل شيء...

فيزداد اضطراباً، ياله من إنسان تقيّ وحنون، لقد أحببته.

كنت أقضي العقوبة حينها. ما إن أنتهي من العمل حتى أذهب إلى الكنيسة. فيفتح لي الأخ نيكوديم الباب، ثم يقفله خلفي مالئاً

هـدوء الكنيسة بصوت انصفاق الحديد. وأظلّ واقفاً عند الباب، حتى يهدأ هذا الضجيج، ويهبط على الرخام، فأقترب من الصليب بهدوء، وأجلس على الأرض، إذ لا أقوى على الوقوف، تؤلمني عظامي وجسدي من وطأة العمل، ولا أرغب في قراءة آية الغفران. أجلس وأضمّ ركبتَيّ، وأنظر حولي بعينين ناعستين، وأفكّر بغريشا وبنفسي. كان الوقت صيفاً، والليالي حارّة، أمّا هنا فظلمة باردة، والقناديل تومض في بعض الأماكن وتتغامز، فَتَنْشُرُ أضواءها الضاربة إلى الزرقة نحو الأعلى، كأنها تريد أن تطير باتجاه القبة، بل تتجاوزها إلى السماء نحو نجوم الصيف. وتصدر القناديل طقطقة خفيفة، مختلفة النغمات، ويخيّل إليّ، وأنا شبه غافٍ، بأنّ أحداً غير مرئي يسكن الكنيسة، ويتحدّث سرّاً بلغة وميض القناديل الوجِل. ووسط السكون الدافئ والظلام ترتعش وجوه القديسين متأمِّلة، وكأنهم أمام مسألة عصيبة على الحل. وتلامس أشباحُ الظلال وجهي بلطف، فتلفحني برائحةٍ حلوة تنبعث من الزيت، والصنوبر، والبُخور. ويصير الذهب والنحاس أكثر ليونة وتواضعاً، وتلمع الفضة بدفء وحنان، فيذوب كل شيء، وينصهر مندمجاً بتيار عريض يجرفني نحو حلم عظيم. وتبدو الكنيسة مثل سحابة كثيفة، فوّاحة، ترتعش وتبحر في همس صلاة مبهمة. أتوه في دوامة الظلال، وتحملني غفوة حنونة، وترفعني عن الأرض.

وقبل إعلان صلاة الفجر، يدنو منّي الأخ نيكوديم الصامت دائماً، فيوقظني بلمسة خفيفة على رأسي، ويقول:

- فلتذهب، يحفظك الله!

أقول له:

- سامحني، لقد غفوت ثانية!

أمشي مترنّحاً، فيما يهمس لي نيكوديم، وهو يسندني:

- سيغفر لك الله، يا معيلي!

كان نيكوديم عجوزاً بسيطاً، يخفي وجهه عن الجميع، ويسمّي أيّ شخص بالمعيل.

سألته ذات يوم:

- أنذرتَ ألا تتكلّم، يا عزيزي نيكوديم؟

قال:

- كلاّ، إنما أسكتُ بلا سبب.

ثم تنهّد، وقال:

- لو كان لدي ما أقوله لقلت!

- ولماذا ترهبّت؟

- لهذا السبب.

وإذا ما أكثرتَ عليه الأسئلة لا يجيب، بل ينظر أحياناً إلى وجهك نظرة المذنب، ويقول بهدوء:

- لا أعرف، يا معيلي!

فيتبادر إلى ذهنك: "ربما كان هذا الإنسان يبحث يوماً عن الإجابات أيضاً ...". وتساورني رغبة بالفرار من الدير.

في تلك الفترة ظهر سيِّد آخر، جاء فجأة مثل كرة قفزت من فوق السور. كان هذا القافز قويَّ البنية، نشيطاً وضئيل الجسم، عيناه مستديرتان مثل عيني بوم، أحدب الأنف، أشقر الشعر، أجعده، منفوش اللحية، تَفْتَرُّ أسنانه عن ابتسامة دائمة. وكان يسلّي جميع الرهبان بنكاته، ويحكي لهم قصصاً بذيئة عن النساء، ويأتي بهنّ إلى الدير ليلاً. كان يحصل على كميات غير

محدودة من الفودكا، ويتميّز بخفّة تثير العجب في كلّ الأمور.

نظرت إليه، وسألته:

- عمَّ تبحث أنت في الدير؟

- أنا؟ أبحث عن الأكل!

- الناس يحصلون على الخبز بالعمل!

فيقول:

- هذا ما كتبه الله على الفلاحين، أما أنا فابن مدينة، زِدْ على ذلك أنني عملت مدّة عامين في دائرة المالية، ولهذا أَعُدُّ نفسي ابن حكومة!..

شرعت أستكشف هذا المسلّي، لأنني أردت معرفة كلّ النوابض التي تحرِّك البشر.

فعندما اعتدت على عملي صار ميخا يتكاسل، ويهرب دوماً إلى حيث لا أدري، فيما أشعر بمزيد من الراحة إذا كنت وحيداً، بالرغم من زيادة أعباء العمل عليّ. وهكذا، يدخل الناس بسهولة إلى الفرن ونتحدّث.

ما أكثر ما كنّا نلتقي نحن الثلاثة، أنا وغريشا وسيرافيم المرح. فيضطرب غريشا ويلوّح لي بيديه، بينما سيرافيم يصفر، ويبتسم وهو يهزُّ بشعره الأجعد.

سألته مرّة:

- سيرافيم، أيها المتسوّل، هل تؤمن بالله؟

قال:

- سأقول لك فيما بعد، فلتنتظر ثلاثين عاماً، ريثما أبلغ الستين من عمري، وأصبحُ واثقاً من إيماني. أما الآن فأنا لا أعي

ذلك، ولا رغبة لي بالكذب!

ويشرع يحكي لنا عن البحر. كان يصفه كأنه أعجوبة عظيمة، فيستعمل كلمات غريبة، يرفع صوته تارة ويخفضه تارة أخرى وهو يتكلم بخوف وحبّ، ويلتهب فرحاً، حتى يصبح مثل نجمة. ونحن نستمع إليه صامتَين، يتملّكنا الحزن من جرّاء قصصه عن هذا الجمال الحيّ المختال.

كان يقول:

ـ البحر حارق. إنه من الأرض عينُها الزرقاء، تنظر إلى أعماق السماء، وتتأمّل الأعالي. في مياهه الحيّة، الحسّاسة التي تشبه الروح، ينعكس لمعان النجوم، ودوران الكواكب الغامض. وإذا أطَلْتَ النظر إلى أمواج البحر، بدت لك السماء محيطاً نائياً، والنجوم جزراً ذهبية فيه.

يُنصتُ إليه غريشا شاحباً، ترتسم على وجهه ابتسامة هادئة كالقمر، ويهمس بحزن:

- أمّا نحن، فأمام هذه الأسرار والأشياء والبديعة، لا عمل لنا إلاّ التجارة! ولاشيء سواها. يا إلهي!

وأحياناً يحكي لنا سيرافيم عن القوقاز، فيصوّره بلاداً مخيفة ورائعة، مثل بلدان الحكايات، تعانقت فيها الجنّة والنار وتصالحتا، وراحتا تتباهيان مثل أختين ندّتين، فخورتين بعظمتهما.

كان سيرافيم يلقّننا:

ـ إن من يرى القوقاز، كمن يرى وجه الأرض الحقيقي. فهو يجمع في ابتسامة واحدة، متناغمةٍ، نقاوةَ روح الطفل الناصعة البياض، والتهكّم المتعالي في حكمة الشيطان.

القوقاز اختبار لقوى الإنسان، تتسحق فيه الروح الضعيفة، وترتعش خوفاً من جبروت الأرض، فيما يزداد القويُّ قوّة، ويصبح شامخاً وحاداً، مثل جبل يرتفع بقمّته الماسيّة مقتحماً أعماق صحارى السماء، وما هذه القمة إلا عرش صواعق.

يتنّهد غريشا، ويسأل بصوتٍ خافت:

- من يرشد الروح إلى طريقها؟ هل عليها أن تقترب من الدنيا، أم أن تبتعد عنها؟ ماذا علينا أن نقبل، وماذا علينا أن نرفض؟

يتهكّم سيرافيم بتفاؤل، مشتّتَ الذّهن، ويقول:

- لن تَقِلّ قوّةُ الشمس، ولن تزيدَ بسبب نظرتك إلى السماء، يا غريشا، فلا تقلق بشأن ذلك، يا عزيزي!

أكاد لا أفهم سيرافيم. فأسأله مستاءً:

- أمّا البشر، فما رأيك فيهم؟ ما دورهم؟

يهزّ كتفيه مبتسماً:

- ما البشر؟ إنهم مختلفون كالأعشاب. فالأعمى يرى الشمس سوداء. ومن ليس راضياً عن نفسه، لن يُرضي الله. على كلّ حال، لا تستعجلوا الأمور.

كان مثل سافيلكا، نكاته ملء فمه، تتناثر منه مثلما يتناثر الزهر عن شجرة تفاح. ما إن أطرح عليه سؤالاً جدّياً، حتّى يسارع فيغطيّه بكلماته، كما يغطّي العشبُ نعش طفل. يستفزّني تهرّبه، وأُفصِح عن غضبي، أمّا هو، الشيطان، فيضحك.

كنت أقول له مستاءً:

- عبثاً تتسكّع، أيّها الكسول! إنك تأكل خبز غيرك ظلْماً!

قال:

- معروف عندنا، أن مَن يأكل مِن عرق جبينه يَظلّ جائعاً. انظر إلى الفلاحين. إنهم يزرعون القمح منذ قرون، ولا يجرؤون على أكله. صحيح أنني لا أحبّ العمل! ولكنني أرى أنّ العمل سيرهقني دون أن يجعلني ثريّاً، بينما يشبع من ينام كثيراً، والحمد لله. عليك، يا ماتفي، أن تؤاخي اللصّ، فأنت أيضاً تأكل ما ليس لك!

لا يَسَعك إلا أن تضحك. كان سيرافيم بسيطاً، وهذا ما يجذب الناس إليه، فلا يتصنّع قَطّ، وكان يقول صراحة:

- إنني حشرة صغيرة. ولعلّني لا أسبّب للبشر من الأذى سوى القليل، حين أطلب قطعة خبز لآكلها.

أرى طبعه مثل طبع سافيلكا. وما يثير عجبي، هو كيف يستطيع أمثال هؤلاء أن يحافظوا على صفاء روحهم، وعلى مرحهم وسط غَلَيان الحياة.

كان سيرافيم وغريشا مثل نهار ربيعيّ صافٍ ومساءٍ خريفيّ. ومع ذلك كانا أقرب فيما بينهما من قربهما منّي، وهذا ما كان يثير استيائي أحياناً. وبعد مدّة رحَلا معاً. فعندما قرّر غريشا أن يذهب إلى دير "أولونيتسك"، قال سيرافيم:

- سأرافقه، فأستريح هناك أسبوعاً، ثم أعود إلى القوقاز! ليتك تذهب معنا، يا ماتفي. فقد تجد في الحركة ما تبحث عنه، أو قد تفقده... لا بأس بذلك أيضاً! إنك لن تعثر على الله وأنت تحفر الأرض!

لكنني لم أستطع أن أرافقهما، لأنني كنت حينها أذهب

للتحدث مع مارداري، وكان هذا الراهب الناذرُ نفسَه يثير فضولي بشدّة.

وهكذا ودّعتُهما بحزنٍ بالغ، إنهما مسائي الهادئ، ونهاري البهيج!

كان مارداري، الراهب الناذر نفسه، يسكن في قبو بمحاذاة جدار الكنيسة، خلف المذبح. وكانت هذه الحفرة تستخدم منذ القدم مخبأً سرّياً لكنوز الدير، خوفاً عليها من اللصوص. ويصل هذا القبوَ بالمذبح سردابٌ مباشر. ولما كانوا قد أقاموا فوق هذه الحفرة قبّةً مصنوعةً من الحجر، ومسقوفة بأخشاب سميكة، فإنها غدت قِلية بسيطة، لها نافذة في السقف. أمّا أرضُها فيتوسّطها شَبَكٌ حديديّ، مسوّرٌ بأخشاب، يسمح للمصلّين بالنظر إلى مارداري من خلاله. وفي زاوية القِلْية باب قابل للرفع، وسلّم حلزوني، يسلكه الزوّار للنزول إلى مارداري، يجعل من يهبطه يصاب بالدوار. ويبلغ عمق الحفرة اثنتي عشرة درجة، ولا يصلها إلا شعاع واحد من النور. وحتّى هذا الشعاع لا يصل إلى أرض الحفرة، بل يذوب ويتلاشى في الظلام الرطب من هذا المسكن تحت الأرض.

كان على من ينظر عبر الشبك الحديدي أن يمعن النظر ليتمكّن من رؤية ما يفوق الظلام قتامة. وكان الناذر نفسَه يجلس بلا حراك، فيبدو مثل حجر كبير، أو تلّ، إذا ما نزلت إليه، لفحتْك رطوبة دافئة فوّاحة، وتعذّر عليك أن تتبيّن أيّ شيء في الدقائق الأولى. ثم يتضحّ في الظلام مذبح وتابوت أسود، يجلس فيه مَحنيّاً عجوز ضئيل، يرتدي كفناً قاتم اللون، مطرّزاً بصلبان وجماجمَ بيضاء، وعصا ورمح، فتظهر هذه الأشياء كلّها مجعّدة،

مكسّرة على جسمه الأعجف. وتختبئ في الزاوية مدفأة حديدية مستديرة، تمتدّ منها إسطوانة نحو الأعلى، مثل دودة ثخينة. فيما تكسو طحالبُ العفن آجرَّ الجدران، مثل حراشفَ خضراء. ويخترق الظلامَ شعاع ضوء، كأنه سيف أبيض، سرعان ما علاه الصدأ وتناثر في الظلام.

كان الناذر نفسَه يتأرجح لا نأمة فيه، مثل ظلّ فوق نشارة الخشب، يضع يديه على ركبتيه، يسبّح بأصابعه، رأسه محنيّ على صدره، وظهره معقوف مثل عصا مقوّسة لنقل الماء.

أذكر أنني جئت إليه، فجثوت على ركبتيّ، وبقيت مطرقاً، وظلّ صامتاً بدوره وقتاً طويلاً. فخيّم على المكان صمتٌ مطبق، ولم أعد أرى من وجهه سوى رأس أنفه الحاد.

همس بصوت لا يكاد يُسمع:

- هيّا...

لكنني عجزت عن النطق، إذ تملّكتني الشفقة على إنسانٍ وُضِع في تابوتٍ وهو حيّ. وبعد انتظار سأل ثانية:

- ما بك... تكلّم...

وأدار وجهه إليّ، كان داكناً، ولم أرَ عينيه.لم أرَ سوى حواجب بيضاء، ولحية وشاربين، كالعفن، على وجه مخيف، جامد، محا الظلامُ ملامحَه. كنت أسمع حفيف صوته:

- إنك تجادل... لماذا الجدال... يجب أن تطيع الله. لا معنى لمجادلة الله. علينا ببساطة أن نحبّ الله.

- أنا أحبّ الله.

- حسناً. فإذا ما عاقبك، توجَّب عليك أن تغضّ النظر عن

ذلك، وتقول: الحمد لله، والمجد لله! ردّدْ هذا القول دائماً، ولا شيء سوى ذلك.

يبدو أنه يلاقي صعوبة في الكلام بسبب وهنه، أو أنه لم يعد يحسن الكلام، فكلماته حيّة بالكاد، وصوته يشبه رفرفة أجنحة طير يُحتَضَرْ.

لا أقوى على طرح أي سؤال على العجوز، ولا أريد قطع هدوء انتظاره الموتَ، وأخشى أن أُجفل شيئاً ما. فأقف بلا حراك. يترامى من الأعالي صوت قرع الأجراس، فيرتعش شعر رأسي، وتعتريني رغبة عارمة في أن أرفع رأسي وأنظر إلى السماء، إلا أن الظلام يحني عنقي بقوّة، فلا أتحرّك. قال لي:

- صلِّ. وأنا سأصلّي من أجلك.

وهمد. ساكنٌ حوله كلُّ شيء. فوق جلدي يسيل رعبٌ عاتٍ، وينسكب على صدري برداً من جليد. وبعد قليل يهمس العجوز:

- أما زلت هنا؟

- نعم.

- إنني لا أراك. فلتذهب بأمان الله! ولا تجادل.

مضيتُ بهدوء. وحين صعدت إلى سطح الأرض، واستنشقت الهواء الطلق، أسكرني الفرح، وأُصِبتُ بدوار. كنت مبللّاً، وكأنني خرجت من قبو، بينما أمضى مارداري هناك أربع سنوات!

فُرض عليّ أن أزوره خمس مرات، لكنني ظلَلْت صامتاً خلالها، لاأقوى على الكلام حين أنزل إليه، فيُنصت، ثمّ يقول بصوت غريب:

- جئتَ. هل أنت من كنت هنا في الأمس؟

- نعم، هذا أنا.

ويبدأ بهمس متقطّع:

ـ لا تُغضِبِ الله. ماذا تريد؟ إنك لا تريد شيئاً... ربما قطعةَ خبز. ولكنّ إغضاب الله إثم من عمل الشيطان. فالشياطين يشركون للإنسان دوماً. أعرفهم. الشياطين غاضبون. أشرار. إنهم مقهورون، ولهذا السبب هم أشرار. لذا عليك ألاّ تَغضَب، وإلاّ تمثّلتَ بالشيطان. وإذا أزعجوك، قل لهم: فلينقذْكمُ المسيح! وارحل عنهم، وليغربوا! كلُّهم فانون. المهمُّ ما هو لك. لن يأخذوا روحك. خبّئها، فلن يأخذوها.

يرمي كلماته بروّية، فتتناثر فوقي وكأنها هُباب حريقٍ بعيد، لا أحفل بها، ولا تلمس روحي. أشعر كأنني أرى حلماً أسود، مبهماً، ثقيلاً، مملاً.

قال العجوز ساهماً:

ـ إنك لا تتكلّم، وهذا جيّد. فليفعلوا ما يحلو لهم، أما أنت فابقَ صامتاً. يأتي إليّ الآخرون ويتكلّمون. يقولون الكثير. لا أفهمهم. يتكلّمون عن نساء ما. وماذا يعنيني؟ يتكلّمون عن كلّ شيء؟ وما هو كلّ شيء؟ لا أفهم. أما أنت فلا تتكلّم. أنا أيضاً ما كنت تكلّمت، لولا أن رئيس الدير يقول لي: واسِهِمْ، يجب أن تواسيهم! حسناً. ولكنْ لو أن الأمر بيدي لبقيت صامتاً تماماً. ولسلّمتُ أمرهم إلى الله! لقد حُرِمتُ من كلّ الأشياء.لم يبقَ لي سوى الصلاة. عليك أن تتجاهلهم، مهما عذّبوك. الشياطين، لطالما عذّبوني. كان شقيقي يضربني. أما زوجتي، فقد حاولت أن تسمّني بالزرنيخ. يبدو أني كنت مثل فأر في نظرها. لقد نهبوني بالكامل.

واتهمّوني بحرق القرية. أرادوا إلقائي في النار. كما أنني سُجنت. لقد مررت بهذا كلّه. حاكموني وعدتُ إلى السجن. سامَحَهم الله! لقد سامحتهم جميعاً. سامحتهم، رغم أني بريء، سامحتهم من أجل روحي. فقد كنت مثقلاً بجبل من الغضب على الناس، لا أقوى على التنفّس. ولكن بعد أن سامحتهم زال عن روحي كل همّ! ولم يعد هناك جبل. فاستاءت الشياطين وابتعدت عني. وأنت أيضاً سامحهم جميعاً. أنا لا أحتاج إلى شيء، وأنت أيضاً لن تحتاج إلى شيئ.

في الزيارة الرابعة طلب مني:

– اجلب لي معك قطعة خبز يابسة. سأمصّها... واهنٌ أنا، فسامحْني، كُرْمى للمسيح!

انقبض قلبي من شدة شفقتي عليه. كنت أستمع إلى هلوساته، وأفكّر: "ما الحاجة إلى ذلك، ياربّ؟ لماذا؟". فيما هو يصدر حفيفاً بلسانه الأعجف:

ـ تؤلمني عظامي. أتوجّع ليلَ نهار. فقد تخفُّ أوجاعي إذا مصصتُ قطعة خبز يابسة. وإلاّ، فعظامي تئزّ وتُلهيني، بينما يجب أن أصلّي طول الوقت. حتى في أثناء النوم، وإلاّ تَذَكّرني الشيطان، وذكّرني باسمي، وأين كنتُ أسكن، وبكلّ شيء. ها هو جالس فوق الوجاق، ولا يهمّه إن كانت أحياناً حارّة وحمراء. إنه معتادٌ على ذلك.

يجلس الرماديُّ قُبالتي، فأرسم عليه إشارة الصليب. لم أعد أنظر إليه. لقد سئمته، فلتبتلعْه الأرض! تارةً يزحف على الحائط مثل عنكبوت، وتارة مثل خرقة رماديّة في الفضاء. إن شيطاني قادر على تغيير هيئته. فهو يشعر بالضجر مع العجوز .لكنْ، مادام قد

جنّدوه لحراستي، لا بدّ له من أن يحرسني. طبعاً، لن يشعر بالغبطة مع جارٍ عجوز. أنا لا أحقد عليه. فالشيطان أيضاً عبدٌ مأمور. لقد أَلِفتُه، وأقول له: دعني، لقد سئمتك! ولا أنظر إليه. أمّا هو فلا يهمّه، لا يعبث. كلّ ما يفعله أنه يذكّرني باسمي باستمرار.

رفع العجوز رأسه، وقال بصوت مسموع جيداً:

- كان اسمي ميخايلو بتروف فياخِرِف!

وعاد ليغوص في تابوته هامساً:

ـ مرة أخرى حملتَني على الكلام، أيُّها الشيطان! أما زلتَ هنا، أيُّها الأخ؟ اذهب، في أمان الله!

في ذلك اليوم كنت على وشْك البكاء من شدّة غضبي... ما الحاجة لهذا العجوز؟ ما وجه الجمال في تضحيته؟ لا أفهم شيئاً! بقيت طول ذلك النهار، ومدّة طويلة بعده، كلّما تذكّرته خُيِّل إليّ أن شيطاناً يشاكسني، يرسم لي بوجهه حركات مضحكة.

آخر مرة ذهبت فيها إليه، ملأتُ جيوبي بخبز طريّ، وحملته إليه وأنا محقونٌ بالسخط، والغضب على الناس. وعندما أعطيته إيّاه، طَفِق يهمس:

- أوهووو! إنه ساخن. أوهوهووو.

مضى يتململ في تابوته، تخشخش النشارة تحته، وهو يخبّئ الخبز، ولا يكفّ عن الهمس:

- أوهوهووو.

يتحرّك كلّ شيء حولي، الظلام وعفن الجدران، مُردِّداً بأنينٍ هادئ هَمْسَ صاحب النذر:

- أووو.

كان يأكل أربع مرات في الأسبوع، وبالطبع كان يشعر بالجوع.

في تلك المرة الأخيرةلم يكلّمْني أبداً، واستمرّ يمضّ الخبز بصوت مسموع. يبدو أنه كان أدرد تماماً.

وقفت قليلاً، وقلت له:

- سامحني، أيّها الأب مارداري، كُرمى للمسيح، فأنا ذاهب، ولن أعود ثانية! تقبّلْ شكري لك!

فأجاب مسرعاً:

- نعم، نعم، شكراً لك، شكراً. لاتقل للرهبان عن الخبز. فقد يأخذونه مني. إنهم حسودون، هؤلاء الكهنة. فالشياطين تعرفهم أيضاً. الشياطين تعرف كلّ شيء. أما أنت فابقَ صامتاً.

بعد ذلك بمدة قصيرة مرض مارداري ومات. أقاموا له جنازة فاخرة. جاء المطران من المدينة برفقة الكهنة، وأقام قدّاساً على روحه في الكنيسة. وقد بلغني فيما بعد أن نوراً أزرق يشتعل من تلقاء نفسه فوق قبر العجوز كلّ ليلة.

ما أسخف هذا! وكم هو مُخزٍ للبشر!

ثم، بعد ذلك بفترة وجيزة، انقلبتْ حياتي رأساً على عقب.

قبل رحيل غريشا وقعت لي حادثة دنيئة، إذ دخلتُ مرة إلى المستودع، وإذا بميخا منبطحٌ فوق الأكياس يمارس إثم العادة السرية. شعرت باشمئزاز فظيع، وتذكّرت القذارات التي كان يحكيها عن النساء، تذكّرت حقده، فبصقت وقفزت إلى الفرن أرتجف غضباً، ويتملكّني الخجل والأسى. لكنه لحق بي... وركع على ركبتيه، يتوسّل إليّ ألاّ أفضحه، ويزأر:

- أعلم أنها تعذّبك أيضاً في الليالي! يالجبروت سلطة الشيطان...

قلت:

- كذّاب، فلتأخذك الشياطين! اغربْ عن وجهي! فأنت تصنع الخبز، أيّها الكلب!

رحت أشتمه، ولا أستطيع أن أتوقّف. لولا تطاوله على النساء بكلماته القذرة، لما فكّرت فيه، فلتأخذه الكلاب!

أما هو فظلّ يزحف على الأرض، يتوسَّل إليَّ ألاّ أفضحه.

قلت له:

- وهل هذا يُحكى؟ إنه مخجل! لكنني لن أعمل معك بعد اليوم! فلْتطلبْ منهم أن ينقلوني إلى اختبارٍ آخر...

كان هذا قراري الأخير.

لم يكن البشر حينها في نظري أحياءً ومميزيّن، فقد كنت لا أفكّر سوى في أن أبقى حيادياً.

مرض ميخا، ونُقل إلى المشفى، وصرت أنا على رأس العمل، فخصّصوا لي مساعدَين اثنين. وبعد مُضيّ ثلاثة أسابيع أرسل مسؤول القليات في طلبي فجأة، وقال إن ميخا شفي، لكنه لا يرغب بالعمل معي، بسبب طبعي الشرس. ولهذا كُلِّفت، مؤقّتاً، باستئصال الجذامير من الغابة. كان هذا العمل يُعدُّ عقوبة.

سألت: ولماذا؟

وإذا بالراهب الجميل، الأب أنطوني، يدخل إلى المكتب. توقّف جانباً بتواضع، وراح يُنصت.

شرح لي مسؤول القليات:

ـ هذا بسبب طبعك المتمرّد، وتعليقاتك الجريئة على الدير. فهذا كلُّه يُعَدُّ في عمرك ووضعك، حماقة غير مقبولة، ولا بد أن تُعاقب عليها! كان رئيس الدير يقول بطيبة قلب، إنه يجب نقلك إلى مكتب المحاسبة من أجل اختبارٍ أكثر سهولة، أمّا الآن، هذا ما تبيّن...

ظلَّ يتكلّم وقتاً طويلاً، بصوت أَخَنّ، وخالٍ من الإحساس. كنت أرى أن الرجل لا يخلط الكلمات حسب ما يمليه عليه ضميره، وإنما وَفقاً لما يفرضه عليه عمله. بينما كان الأب أنطوني ينظر إليّ مستنداً إلى الكنبة، وهو يمسح لحيته، ويبتسم بعينيه الرائعتين، كأنهما تشاكسانني. أردت أن أستعرض أمامه طباعي، فقلت للمسؤول عن القِليات:

- إنني لا أطمع بعلاوة، كما أنني لا أقْبل الإهانةَ، فأنا لا أستحقّها، وأنت تعرف ذلك. إنني أطلب العدل!

احمرَّ مسؤول القِليات، وراح يدقّ الأرض بعصاه:

- هسْ، أيها الوقح!

انحنى الأب أنطوني إلى أذنه، وهمس له بشيء ما. قال مسؤول القِليات:

- هذا مستحيل! عليه أن يتقبّل العقاب دون اعتراض!

هزّ الأب أنطوني كتفيه وخاطبني، كان صوته دافئاً خشناً:

- أطِعْه، يا ماتفي!

لقد هَزمني بكلمتين، ونظرةٍ حنون. فانحنيت أمام مسؤول القِليات، ثم أمامه، وسألته:

- متى أذهب إلى الغابة؟

قال:

- بعد ثلاثة أيام. وستقضي هذه الأيام في الزنزانة! هكذا!

لعلّي كنتُ، لولا وجود أنطوني، كسرت عظام مسؤول القِليات، لكنني وجدت في كلماته إشارة إلى فرصة للتقرّب منه، وكنت حينها مستعداً لقطع ذراعي مقابل ذلك، بل ولفعل أيّ شيء.

قادوني إلى الزنزانة، وهي حفرة تحت المكتب، لا أستطيع الوقوف فيها، ولا الاستلقاء. لا تصلح إلا للجلوس. فيها حزمة قشّ رطبة، مرميّةٌ على الأرض، ويخيّم عليها هدوء كما في قبر. حتّى إنه لا يوجد فيها فئران. وظلامها حالك لدرجة أن اليدين تغطسان فيه، حتّى إنك إذا مددت يدك أمام وجهك لا تراها.

جلست مطرقاً، وكلّ شيء في داخلي مطرق كأنه مكسوٌّ بالرصاص. أشعر أنني ثقيل مثل الصخر، وبارد مثل الجليد. كَزَزْتُ على أسناني، كمن يريد أن يكبح جماح أفكاره، فيما هي تتّقد مثل جمرات وتُحرقني. كنت أشتهي أن أعضَّ أحداً، لكن ما من أحد حولي. فأمسكت بشعري ورحت أهزُّ نفسي كأنني لسان جرس، وأصرخ في أعماقي، وأبكي، وأجنّ.

"أين هي حقيقتك، يا إلهي؟ ألا يلعب بها أولئك الذين لا شريعة لهم؟ ألا يدوسها الأقوياء بسلطتهم في سكراتهم الغاضبة؟ من أنا أمامك؟ هل أنا ضحية اللاشرعية، أم حارسُ جمالك وحقيقتك؟".

أتذكّر نظام الحياة في الدير، فأراه معيباً ومخزياً. لماذا يُعدُّ الكهنة خدم الله؟ بماذا هم أكثر قداسة من أبناء الدنيا؟ أعرف حياة الفلاحين الشاقة في القرى، كم حياتهم قاسية! بعيدون هم عن الله، يسكرون، يتشاجرون، يسرقون ويقترفون شتى الذنوب،

لكنهم لا يعلمون سبل الله، وليس لديهم قوّة ولا وقت ليسْعُوا وراء الحقيقة. ذلك أن الخوف من الجوع يربط كلاً منهم بأرضه، ويقيده في منزله بسلاسل من حديد. فكيف لك أن تحاسبهم؟ أمّا هنا، فالناس يعيشون بحرّيّة وشبع، وكتبُ الحكمة مفتوحة أمامهم، لكنْ مَن منهم يطيع الله؟ لا أحد سوى الضعفاء والمشردّين، أمثال غريشا. في حين أن الله ليس في نظر الآخرين إلاّ درءاً للخطايا، ومنهلاً للكذب.

أتذكّر جشع الكهنة الشرّيرَ في شهواتهم للنساء، وقذاراتهم. إنهم لم يعُفّوا حتى عن البهائم. أتذكّر كسلهم، وطمعهم، وشجارهم في أثناء قسمة زاد الأخوة في الدير، عندما ينعق بعضهم على بعض كالغربان في مقبرة. لقد أخبرني غريشا كم يشقى الفلاحون في خدمة هذا الدير، فيما تزداد ديونهم وتتراكم.

قلت في سريرتي: لقد مضى عليّ وقت طويل وأنا أتعذّب هنا، فماذا كسَبت لروحي؟ هل جنيت إلا الجروح والكدمات؟ بماذا أغنيت عقلي؟ ليس إلا بمعرفة أنواع من القذارة، وبالاشمئزاز من الناس.

محاط بالهدوء. لا يبلغني حتى قَرْع الأجراس، ولا أتمكّن من قياس الزمن.لم يعد هناك نهار وليل بالنسبة إليّ، فمن ذا الذي يجرؤ أن يسلب الإنسان نور الشمس؟

يضغط عليّ الظلام الرطب، وتحترق فيه روحي دون أن تنير دروبي، فينصهر ويذوب إيماني الغالي بالعدالة، وبعلم الله الواسع. لاشيء سوى وجه الأب أنطوني يشعُّ أمامي مثل نجم ساطع، تتّجه أفكاري وأحاسيسي كلّها نحوه، مثلما تتجمَّع فراشات الليل حول

اللهب. إنني أتحدّث إليه، وأشتكي له، وأسائله، فأرى في الظلام شعاعين من عينيه الحنونين. لقد كلّفَتني هذه الأيام الثلاثة ثمناً باهظاً. فعندما خرجت من الحفرة، شعرت بأنَّ عينيَّ تكادان لا تبصران، ورأسي غريب عن جسمي، وقدماي ترتجفان، فيما راح الأخوة يضحكون منّي:

- هل جرّبت حمّام الروح؟

في المساء طلبني رئيس الدير، فجعلني أركع أمامه، وألقى عليّ خطبة طويلة.

- قيل: "سأكسر أسنان الآثم وألوي عنقه".

ألوذ بالصمت، وأُمسك قلبي بيدي. أتخيّل أمامي أنطوني الذي ينشر الطمأنينة في روحي، وكأنه يختُم شفتيّ الغاضبتين بنظراته الحنون.

فجأة لانَ رئيس الدير، وقال:

ـ نحن نقدّرك، أيها الأحمق، ونفكّر فيك بعد أن لاحظنا تفانيك في العمل، نريد أن نعاملك على قدْر ما يستحقّ عقلك. وسأعرض عليك نوعين من الاختبار لتختار واحداً منهما: هل تريد أن تعمل في المكتب، أم أن تصبح وصيفاً لدى الأب أنطوني؟

شعرت وكأنه سكب عليّ ماءً فاتراً، فضاقت أنفاسي من الفرح، وبالكاد أجبت:

- باركْني لأصبح وصيفاً...

قطّب وجهه، وراح ينظر إليّ متفحّصاً، ساهماً. ثم قال:

- إذا ذهبتَ إلى المكتب سأعفيك من أعمال الحفر، أمّا إذا اخترت أن تكون وصيفاً فسأضاعف عملك في الغابة.

- باركْني لأصبح وصيفاً.

سألني بحزم:

- لماذا أيّها الغبيّ؟ إن العمل في المكتب أسهل، وأكثر وجاهة!

لكنني أصررت على طلبي.

فأحنى رأسه، وقال بعد تفكير:

- أباركك. يا لك من فتى غريب الأطوار، لا بدّ من مراقبتك... اذهب بسلام!

ذهبت إلى الغابة.

حدث ذلك في فصل الربيع، في شهر نيسان البارد.

كان العمل شاقّاً، لأن الغابة قديمة، تضرب جذورُ أشجارها في عمق الأرض مائلةً، ثخينة، مهما نبشتَها، ومهما قطّعتها، وجدتَ الحصان ما إن يروح يشدّ الجذر بكل ما أوتيَ من قوّة، حتّى يمزّق الحبال.

لا يكاد ينقضي نصفُ النهار حتّى أشعر بعظامي تطقطق، ويرتجف الحصان مزبداً، وهو ينظر إليّ بعينه الكروية، كأنه يقول:

"لا أستطيع، يا أخي، هذا صعب!"

فأمسح جسمه، وأربت على عنقه:

- أرى ذلك!

ثمّ نعود للحفر والتكسير. وينظر إليّ الحصان وهو يرتعد، ويهزّ رأسه.

الخيول ذكيّة، أعتقد أنها ترى عبثيّة أفعال البشر.

في تلك الفترة جرى لقاء بيني وبين ميخا، كادت عواقبه أن تكون وخيمة على كلينا.

فقد كنت ذاهباً، ذات مرة، إلى العمل بعد الغداء، وما إن دخلت الغابة حتى لحق بي ميخا، حاملاً في يديه عصا، ترتسم على وجهه ملامح الوحشية، وينخر كالدبّ مكشّراً عن أسنانه... ماذا هناك؟

توقّف، وبقيت أنتظر. ودون أن ينطق بكلمة، لوّح بعصاه ليضربني بها! لكنني انحنيت في الوقت المناسب، ونطحته في بطنه، فسقط على الأرض، وجلست على صدره، ثمّ انتزعتُ العصا من يده، وسألته:

- ما بك؟ لماذا تفعل بي هذا؟

أجاب بصوت مبحوح، وهو يتململ تحتي:

- ارحلْ عن هذا الدير...

- لماذا؟

- لا أستطيع أن أراك. سأقتلك... ارحلْ!

عيناه حمراوان، تترقرق الدمعة فيهما حمراء أيضاً، وفمه يزبد. فمضى يمزقّ ثيابي، ويقرص جسمي، ويخدشني، محاولاً أن يطال وجهي.

ضربته ضربات خفيفة، وترجّلت عن صدره، ثم قلت:

- أنت تحمل رتبة راهب، ومحقون بكلّ هذا الحقد، أيها الحيوان! لماذا؟

ظل جالساً في الوحل، يُلحّ في طلبه:

- ارحلْ، لا تُهلكْ روحي.

لم أفهم شيئاً، ثم أدركت الأمر، وسألته بهدوء:

- لعلّك تظنّ، يا ميخا، أنني أخبرت أحداً بفِعلتك؟ ولكن عبثاً تظنّ ذلك، فأنا لم أخبر أحداً، أقسم لك!

نهض على قدميه، فتعثّر، وعانق شجرة، وراح يحدّق بي من خلفها بعينين وحشيتين، وهو يزأر:

- كان أهونَ عليّ لو أنك أخبرت العالم بأسره! لكنتُ تبتُ أمام الناس، وَغفروا لي، أما أنت، أيها النذل، فأسوأ من الجميع. إنني لا أريد أن أكون مديناً لك، أيّها المتغطرس والهرطوق! اغربْ عن وجهي، وإلاّ ورّطتَني بإثم سفك دمك!

قلت:

- إذا كنتَ مضطراً، فلترحلْ أنت، أمّا أنا فلن أرحل، ليكن في علمك!

عاد يهاجمني ثانية، وسقطنا معاً في الوحل، فتلطّخنا به مثل ضفدعين. وتبيّن أنني أفوقه قوّة، فنهضت، وبقي الشقيّ مستلقياً، يبكي.

قلت له:

- اسمع يا ميخا، سأرحل بعد مدّة، أمّا الآن فلا أستطيع! ليس عناداً منّي، بل لأن لي حاجة بالبقاء هنا!

- اذهب إلى أبيك الشيطان!

راح يئنّ، ويصرف بأسنانه.

فابتعدت عنه. وبعد أيّام قليلة تلقّى ميخا أمراً بالذهاب إلى المدينة، والالتحاق هناك بحظيرة الدير، فلم أرَه ثانية بعد ذلك قَطّ.

أنهيت الاختبار، وها أنذا أقف عند أنطوني، أرتدي لباساً

جديداً. أتذكّر هذه الفترة من حياتي، منذ يومها الأوّل حتى الأخير، بكلّ كلمة فيها، كما لو أنها مكتوبة بالنار في أعماقي، ومحفورةٌ على جلدي.

طاف بي أنطوني أرجاء قِليته، وعلّمني بأناة وتفصيل كيف ومتى عليّ أن أخدمه. كانت إحدى الغرف مكتظّة بخزانات تملؤها كتب دنيوية ودينية. قال لي:

- هذا مُصَلاّي!

تتوسَّط الغرفةَ طاولةٌ كبيرة، وبجوار النافذة كنبة مريحة. وكان إلى جانب الطاولة ديوان عليه سجادّة ثمينة، فيما كان أمام الطاولة كرسيّ جلديّ عالي الظهر.

وكانت الغرفة الثانية مخصّصة للنوم، فيها سرير عريض، وخزانة للجلابيب والألبسة الداخلية، ومغسلة مع مرآة كبيرة، وكثيرٍ من الفراشي، والأمشاط، وقوارير مختلفة الألوان، أمّا الغرفة الثالثة فكانت لا تلفت النظر، وفارغة، إلا جدرانها التي دُسّت فيها خزانتان سرّيتان، تحوي إحداهما خموراً ومازات، وتحوي الأخرى أوانيَ لشرب الشاي، وبسكويتاً، ومربّى، وأنواعاً من الحلويّات.

بعد أن انتهينا من هذه الجولة، دخل بي إلى المكتبة، وقال:

- اجلس! هكذا أعيش. ليس لحياتي طابع حياة الرهبان، أليس كذلك؟

قلت:

- نعم، إنك تخالف الأنظمة.

قال:

- أنت تنتقد كلّ شيء، وهذا يعني أنك سوف تنتقدني أيضاً.

وابتسم بتعالٍ، كأنه يقف فوق برج الأجراس. كنت شديد الإعجاب بجمال وجهه، ولكنّ ابتسامته لم تَرُقْني، فقلت له:

- لا أعرف إن كنت سأنتقدك أم لا، ولكنني مصرٌ على أن أفهمك!

ضحك بصوتٍ خافتٍ وخشنٍ ضحكةً مهينة.

- لعلّك ابنٌ غير شرعي؟

- نعم.

- يجري في عروقك دم جيد!

سألته:

- ماذا تقصد بالدم الجيد؟

ضحك، وأجاب بكلام واضح:

- الدم الجيد مادّة تتشكّل منها الروح الفخورة بنفسها!

كان نهاراً صافياً، تطلّ فيه الشمس من النافذة، ويجلس أنطوني في كنف أشعتّها. وفجأة رفعتْ إحدى أفكاري رأسها، مثل أفعى، ولسعَتْني في قلبي، فرحتُ أئنّ بكل ما فيّ، ثمّ نهضت عن الكرسي كالملدوغ، وأخذت أحدّق في الراهب. فنهض بدوره، وإذا بي أراه يمسك بالسكين عن الطاولة، يعبث بها، ثم يسألني:

- ما بك؟

سألته: أتكون والدي؟

امتقع وجهه، وأصبح أزرق متجمداً، كأنه منحوت من جليد، وأغمض عينيه نصف إغماضة، فانطفأ فيهما الضوء، وقال بصوت خافت:

- لا أظنّ ذلك! أين وُلِدْتَ؟ أين؟ كم عمرك؟ ومن هي والدتك؟

وعندما رويت له كيف أُلقي بي على الأرض، ابتسم، وأعاد السكّين إلى الطاولة قائلاً:

- لم أزُرْ تلك المناطق في الحقبة المذكورة.

شعرت بالحرج والانزعاج، كمن طلب حسنة، ولم يحصل عليها.

سألني:

- وحتى لو كنتُ والدك، فماذا في ذلك؟

قلت له:

- لا شيء.

- هذا ما أعتقده أيضاً. أنا وأنت نعيش في مكان ليس فيه آباء وأبناء بالدم، وإنما بالروح فقط. ومن جهة أخرى، كلُّنا في هذه الأرض لُقَطاء، أيْ أخوة في المصيبة التي نسميّها الحياة! هل تعرف أن الإنسان في هذه الدنيا ليس إلا مصادفة؟

أرى في عينيه أنه يضحك مني. شعرت بالإحراج والإحباط من جرّاء سؤالي الغريب. وساورتني رغبة في تبريره، أو نسيانه. لكنني طرحت عليه سؤالاً أكثر فظاظة من سابقه:

- ولماذا تناولت السكّين؟

نظر إليّ أنطوني وهو يضحك بصوت خافت:

- يالك من مُسائلٍ جريء! تناولتها، نعم تناولتها، ولكن لا؟ أعرف لماذا! إنها سكين جميلة، وتعجبني.

ثم أعطاني السكّين، فوجدتُها حادّة ومقوّسة، مزيَّنة بالذهب،

مقبضها من الفضة، ومطعّم بحجر أحمر.

- إنها سكّين عربية، - شرح لي، - أقطعُ بها صفحات كتبي، وفي الليل أضعها تحت وسادتي، لأن هناك إشاعة تقول إنني ثريّ، بينما يعيش الناس حولي فقراء، ثمّ إنّ قِلْيتي منفردة.

كانت رائحة طيبة تفوح من السكين، ومن يد أنطوني، تشعرني بالثمالة، وتصيب رأسي بالدوار.

- فلنكملْ حديثنا، ـ قال أنطوني بصوته الأجشّ، اللطيف، المسائيّ، المظلم: ـ أتعرف أنّ امرأة تزورني؟

- لقد سمعت بذلك.

- ليس صحيحاً أنها أختي. فأنا أنام معها.

سألته:

- ولِمَ تتحدثُ إلي بهذا كلّه؟

- من أجل أن تندهش في الحال، ثمّ تتوقّف عن الدهشة إلى الأبد! هل تحب الكتب الدنيوية؟

- لم أطلّع عليها من قبل.

تناول من الخزانة كتاباً صغيراً، مجلّداً بالأحمر، أعطاني إيّاه، وأمرني:

- اذهبْ، سخّنِ السَماوَر، واقرأ هذا!

فتحتُ الكتاب، فوجدت على صفحته الأولى صورة لامرأة ترتفع ثيابها أعلى من ركبتيها، ولرجل يتعرّى أمامها.

قلت:

ـ لن أقرأ هذا.

فاقترب منّي، وقال لي بحزم:

- وإذا أمرك بذلك مرشدك الروحي؟ فما أدراك ما الحكمة في ذلك؟ اذهبْ!

جلست على السرير، في الملحق الذي أسكنني فيه، فتجمَّدت خوفاً وحزناً. كنتُ أشعر وكأنني مسموم، إذ ارتخى جسمي، وراح يرتعش. لا أعرف ما أفكّر فيه: لا أعرف من أين جاءني التفكير بأنه والدي، إنها فكرة غريبة عليّ، ولا حاجة لها. أتذكّر قوله بأن الروح تنبعث من الدم، وبأن الإنسان ليس إلا مصادفة على هذه الأرض. لعلّها هرطقة واضحة! أتصوّر وجهه الذي تشوّه عندما طرحت عليه السؤال. فتحتُ الكتاب الذي كان يحكي قصّة أحد الفرسان الفرنسيين، ويتحدّث عن النساء... ما حاجتي لذلك؟

قَرَعَ الجرس، إنه يناديني. جئتُه، فاستقبلني بلطف.

- ماذا عن السماوَر؟

- لماذا أعطيتني هذا الكتاب؟

- لكي تعرف ما هو الإثم!

غمرني الفرح، لأنني تخيّلت أنني فهمت مرماه، لعلّه أراد أن يختبرني. فانحنيت احتراماً له وخرجت، وأسرعت بتسخين السماور، ثمّ عدت به إلى الغرفة. كان أنطوني قد أعدَّ بنفسه كلّ ما يلزم لشرب الشاي، ولماّ هممت بالخروج، قال لي:

- ابقَ، ستشرب الشاي معي...

أحسست بالامتنان له، فقد كنت أتعطّش لأن أفهم أيّ شيء.

قال:

- احكِ لي كيف عشت، ولماذا جئت إلى هنا؟

رحت أحكي له عن نفسي، لا أُخفي عنه سرّاً، ولا أيّ فكرة

خطرت لي على بال، فيما راح ينصت إليّ باهتمام بالغ، شبه مغمضٍ عينيه، حتى إنه لم يشرب الشاي. وبينما كنت أسرد عليه قصّتي، كان المساء خلفه يُطِلُّ من النافذة، وتَخُطُّ الأغصان السوداء قصّتها على صفحة السماء الحمراء. وعندما أنهيت حديثي، ملأ لي كأساً من نبيذٍ قاتم حلوِ المذاق، وقال:

- اشرب! لقد لفتَّ نظري منذ أن صلّيتَ في الكنيسة بصوتٍ عال. أَلاَ يساعدك الدير؟

- لا، ولكنني أُعلّق عليك أملاً قوّياً، فساعدْني! أنت رجل متعلّمٌ، ولا بد أنك تعرف كلّ شيء.

قال لي بصوت خفيض، دون أن ينظر إلي:

ـ لا أعرف سوى أمر واحد، هو: إذا تسلّقتَ جبلاً فإنّ عليك أن تصل إلى قمّته، وإذا سقطتَ فاسقطْ إلى قاع الوادي. لكنني لا أتَّبع هذه القاعدة، لأنني كسول. إن الإنسان تافه، يا ماتفي، وليس مفهوماً لماذا هو تافه. ذلك أن الحياة رائعة، والدنيا ملأى بالمغريات! كم وُهِبْنا من المسرّات، غير أن الإنسان تافه! فلماذا؟ ما من حَلٍّ لهذه الأُحجية بعدُ.

أعلن الجرس وقت صلاة المغرب، فارتعش، وقال لي:

ـ اذهب، في أمان الله!

لو كنتُ أكثر ذكاء لرحلتُ عنه في اليوم ذاته، ولاحتفظت به كذكرى حسنة. لكنني لم أدرك فحوى كلامه.

ذهبت إلى مقرّي، فاستلقيتُ، وإذ بي أكتشف ذلك الكتاب قريباً مني. وعندما أشعلت النور، وبدأت أقرأ امتناناً لمرشدي، وجدتُني أقرأ عن فارس يخدع الأزواج، ويتسلّل ليلاً عبر النوافذ إلى

مخادع زوجاتهم، فيطارده الأزواج ليغمدوا فيه سيوفهم، ولكنّه يهرب. فأرى كلّ ذلك مملاً، وغير مفهوم. أقصد أنني، طبعاً، أفهم أن شابّاً يعبث. ولكنني لا أجد في ذلك ما يستحقّ الكتابة، ولا أدرك لماذا عليّ قراءةُ هذا الكلام الفارغ؟

تساءلت ثانية: لماذا شككتُ بأن أنطوني والدي؟ إن هذه الفكرة تتآكّل فؤادي، مثلما يتأكّل الصدأُ الحديد. ثم أغفو، وأشعر في نومي بأن هناك من يدفعني. فأنهض مذعوراً، وإذا به واقف فوق رأسي.

قال:

- قرعتُ الجرس كثيراً!

قلت:

- سامحني، كُرمى للمسيح، فلشَدّ ما أرهقني العمل!

- أعرف.

لكنه لم يقل "سامحك الله".

ثم تابع:

- أنا ذاهب إلى رئيس الدير، فحضّرْ لي كلّ شيء كما علمّتك. هه! أكنت تقرأ هذا الكتاب؟ مؤسف أنك بدأت بقراءته، فهو لا يناسبك، لقد كنتَ محقّاً في ذلك! أنت تحتاج إلى موضوع آخر.

أَعُدُّ له الفراش، فإذا هو قماش ناعم، غطاؤه وثير، كلّ الأشياء عنده تدلّ على الثراء، ولم يسبق لي أن رأيت مثلها، وتفوح منها رائحة زكية، قوية.

مضيت أعيش في هذا الضباب الثمل، كأنني في حلم. لا أرى

سوى أنطوني، لكنه يبقى بالنسبة لي في الظلّ، ويزدوج فيه. إنه يتكلّم بلطف، فيما تنظر عيناه بسخرية. وهو قليلاً ما يذكر اسم الله، فبدلاً من كلمة الله، يقول "الروح"، وبدلاً من "الشيطان"، يقول "الطبيعة". لكنّ التعابير لا تغيِّر المعاني بالنسبة إليّ. ثم إنه يضحك من الرهبان، وطقوسِ الكنيسة.

كان يسرف في شرب الخمر، لكنْ لم يحدث أن ترنّح يوماً، فقدكان أثر سُكْرِه يقتصر على زرقةٍ في جبينه، واتقادِ لهبٍ قاتم في عينيه، فوق وجنتيه الشفّافتين، واحمرارٍ في شفتيه الحمراوين اللتين سرعان ما تكمدان. كثيراً ماكان يعود من عند رئيس الدير بعد منتصف الليل، أو بعد ذلك بكثير، فيوقظني، ويأمرني بأن أقدِّم له الخمر. ثمّ يجلس ويشرب وهو يتحدث بصوته العميق مدّة طويلة، ودون توقّف. وقد يستمرّ في ذلك أحياناً حتى صلاة الفجر.

كنت ألاقي صعوبة في فهم أحاديثه، وقد نسيت الكثير منها، إلا أنني أتذكّر أنها في بادئ الأمر كانت تخيفني، وكأن هوّة تنفتح أمامي من جرّائها، يُلقَى فيها بكلّ ما هو حيٌّ على وجه الأرض.

كانت أحاديثه هذه تُشعرني أحياناً بالفراغ والرعب، فأوشك أن أسأله:

– ألستَ أنت الشيطان؟

لونه أسودُ، وكلامه آمِر. وإذا ما شرب، احولّت عيناه، وغارتا تحت جبينه. كان وجهه الشاحب يتشنّج راسماً ابتسامة، ولا تكفّ أصابعه الرفيعة، الطويلة، عن الإسراع بنتف لحيته السوداء

كالكحل، حيث تتمدّد أصابعه وتتطوي، وينبعث منه البرد، فيتملّكني الرعب.

لكنني، مثلما سبق لي أن قلت، لا أؤمن بالشيطان، بل وأعرف من الإنجيل أن قوة الشيطان في تكبّره، فهو في صراع دائم، تملؤه الحماسة، والقدرة على إغواء البشر، في حين أن الأب أنطوني لا يغويني بشيء. لقدكان يلوّن الحياة باللون الرماديّ، ويصوّرها لي خالية من المعنى، وكان الناس في نظره قطيعاً من الخنازير المسعورة، تجري نحو الهاوية بسرعات متفاوتة.

أقول له: لعلّك كنتَ تقول إن الحياة رائعة!

- نعم، ما دامت تعترف بي، فهي رائعة.

يجيبني مبتسماً بسخرية.

ولم يبقَ في مخيّلتي من كلامه سوى تلك الابتسامة الساخرة. كان كمن يختلس النظر من خلف زاوية، ويبدو كأنه منبوذ في كلّ مكان، ولكنْ ليس آبهاً بذلك. كان فكره حادّاً، نفّاذاً، مَرِناً، مثل أفعى، غير أنه عاجز عن إخضاعي، فأنا لم أؤمن به، رغم إعجابي أحياناً بخفّته، وبوثبات العقل البشري العالية.

على أنه، في أحيان نادرة، كان يغضب، فيصيح:

- أنا مِن النبلاء، حفيدُ سُلالة بشريّة عريقة؛ لقد عمّر آبائي وأجدادي روسيا، وكانوا شخصيات تاريخية، ثم يأتي هذا الجلف ويقاطع كلامي، هذا الجلف الذي يأكله القمل، آ؟!

لم أحفل بهذه الأحاديث، فقد أكون أنا أيضاً مِن عائلة عريقة، ذلك أن القوّة لا تتأتّى من الأجداد، بل من الحقيقة، والأمس لن يعود أبداً، أما الغد فآت!

يجلس في كنبته وقد انخطف لونه، ويحكي لي:

ـ لقد غلبني الرهبان في لعب القمار ثانية، يا ماتفي. وما الراهب؟ إنه إنسان يريد أن يُخفيَ عن الناس قذارته، خوفاً من قوّتها. أو: الراهب إنسان أضناه ضعفه، فهرب من الدنيا، خوفاً من أن تبتلعه. هذا النوع هو أفضل الرهبان وأظرفهم، وما الآخرون جميعهم إلاّ أشخاصاً بلا مأوى، إنهم رماد الأرض، وأولادها الذين ولدوا أمواتاً.

فقلت له: ـ وأنت، من تكون بينهم؟

لعلّي كررت هذا السؤال على مسامعه بشكل مباشر عشر مرات وأكثر، لكنه كان يجيبني دوماً على هذا النحو تقريباً:

- ما أنت إلا ابن المصادفة هنا، وفي كل مكان، وفي جميع الأوقات.

وكان ربّه أيضاً لغزاً بالنسبة إليّ. لقد حاولت كثيراً أن أستفسر عنه من أنطوني في أوقات صحوته، لكنه كان يجيبني متضاحكاً بسخرية، ويستشهد بعبارات من الإنجيل، في حين كان الله في نظري أسمى من الإنجيل، فعمدتُ إلى سؤاله عن الله، وهو سكران.

إلاّ أن أنطوني كان متماسكاً حتى وهو ثمل، فيقول:

ـ يالك من ماكر، يا ماتفي! ماكر وعنيد! إنني أشفق عليك!

فغدوت أشفق عليه أيضاً، إذ كنت أرى وحدته، وأقدّر غزارة أفكاره المتنوّعة، فأتأسّف على ضياعها سدىً في قليته.

ورغم شفقتي، رحت أُلحّ عليه حتى قال لي ذات يوم، وبلا رغبة:

ـ إنني مثلك، يا ماتفي، لا أرى الله!

قلت له:

ـ لئن كنتُ لا أراه، فإنني أشعر به، ولست أسأل عن وجوده، بل عن كيفية فَهمْ شرائعه التي تقوم عليها الحياة.

أجابني:

ـ ابحثْ عن الشرائع في العهد الجديد! وما دمتَ تشعر بالله، فأنا أهنئّك!

مَلأَ لي كأساً من النبيذ، ثمّ دقّ كأسه بكأسي وشرب. أرى أن عينَي هذا النبيل الوسيم تضحكان منّي، وإن بدا وجهه جدّياً كوجه الميت.

صار أصله النبيل يقللّ من إعجابي به، فقد تباهى بنُبله عدّة مرات بطريقة جرحتْني في الصميم.

كان يحبُّ التحدث عن النساء عندما يثمل، فيقول:

ـ إن الطبيعة تزجّنا في أَسرٍ قاسٍ وثَقيل، عن طريق المرأة التي هي طعمها اللذيذ. وربما، لولا شهوة الجسد التي تلتهم أفضل قوى الروح الإنسانية، لبلَغَ الإنسان الخلود!

ولما كان الأخ ميخا يتكلّم في هذه القضية بمزيد من القوّة، كنتُ مشبعاً بالاشمئزاز من تلك الأفكار، إضافة إلى أن ميخا كان يعيب المرأة بسخط، ويشتمها بعنف، بينما كان الأب أنطوني يتحدّث عنها حديثاً مملاً، وخالياً من المشاعر. كان يقول:

ـ أتتذكّر الكتاب الذي أعطيتك إياه؟ كان عليك، وأنت تقرأه، أن ترى كمِ المرأة ماكرة، مخادعة، وفاسقة في جوهرها!

كان من الغريب، والمثير للاشمئزاز، أن تسمع إنساناً ولدته

امرأة، ورضع من حليبها، يلطّخ أمّه، ويدوسها، منكِراً كلّ شيء فيها إلاّ الشهوة، وهابطاً بها إلى مستوى بهيمة بلا عقل.

مرة قلت له شيئاً بهذا المعنى، ولكنْ بطريقة أكثرَ ليونة، وليس بشكل مباشر. فثار، وراح يصرخ:

ـ أيّها الأبله! وهل أنا أتكلّم عن الأمّ!

قلت:

ـ كل امرأة هي أمّ.

فيصيح:

ـ بعضهنّ لسن إلاّ فاسقات مدى الحياة.

ـ ثمة من يعيش أحدب مدى العمر، ولكنْ ليس على كل امرىء أن يكون أحدبَ.

ـ اغربْ عن وجهي، أيها الأحمق!

لم تَمُتْ روح الضابط فيه.

تلاسنتُ معه عدة مرات بشكل مباشر وأنا أسأله عن الله. فقد غَدَتْ سخريته الزئبقية تثير غضبي، حتى انْفَلَتُّ عليه ذات ليلة بكلّ قواي.

أصبح مزاجي سيّئاً جداً في تلك الفترة، إذ كنت أشعر بملل شديد، أحوم حول أنطوني مثلما يحوم جائع حول مستودع مقْفَل، حين يشمُّ رائحة الخبز من خلف الباب، فيستيقظ في الوحش. وفي تلك الليلة كان قد استفزّني كثيراً بتلميحاته.

تناولت السكين عن الطاولة، وقلت:

ـ فلتحْكِ لي كلَّ ما يدور في خاطرك، وإلاّ قطعتُ عنقي، وتسبّبتُ لك بفضيحة!

اضطرب أنطوني، فقبضَ على يدي، وخطف منها السكّين متوتراً، فماكان هذا من عاداته. ثم قال:

ـ لا بدَّ من معاقبتك على هذا الفعل، لكنّ المهووس لا يحفل بالعقاب!

وبعدها راح يتكلّم، كمن يدقّ في رأسي مسامير:

ـ إليك ما سأقول: لا يوجد إلاّ الإنسان، أمّا كل ما تبقّى فليس إلاّ رأياً. وإلهك ما هو إلا حلم تراه روحك في المنام. ولستَ بقادر على أن تعرف إلا نفسك، بل وحتى هذه المعرفة ليست دقيقة.

كلماته تهزّني مثل الريح، وتدمّرني. يتكلّم طويلاً، كلاماً مفهوماً تارة، وغير مفهوم تارة أخرى. فأشعر أنْ لا حزن، ولا فرح، ولا خوف، ولا زعل، ولا كبرياء في هذا الإنسان. كأنه خوري قديم في مقبرة، يرتّل الجنّاز فوق القبور، فهو يحفظ كلماته جيداً، لكنها كلمات لا تلامس فؤاده. في بادئ الأمر بدا لي حديثه مُخيفاً، إلا أنني أدركت فيما بعد أن شكوكه ثابتة، إذ لا حياة فيها.

كان ذلك في شهر أيّار، والنافذة مفتوحة... والليل عابق بأنفاس الأزهار الدافئة، وتبدو أشجار التفاح مثل فتيات ذاهبات إلى الكنيسة للمناولة، وهنّ يرتدين الأزرق في لجين القمر. يقرع الحارس الجرس إيذاناً بالصلاة، فيصرخ الفولاذ مقهوراً في السكون، فيما يجلس أمامي شخص ذو وجه جليدي، وبطمأنينة يرمي بكلامٍ ميت؛ فتتداخل كلماته الباهتة مثل الرماد، وأشعر بالحزن، والحسرة، وأنا أرى أمامي ورقاً لمّاعاً، بدلاً من الذهب.

قال لي أنطوني:

- ارحل!

خرجت إلى الحديقة، وعندما قُرِعت الأجراس إيذاناً بصلاة الفجر ذهبت إلى الكنيسة، فاخترتُ هناك زاوية مظلمة، ووقفت أفكّر:

"ولِمَ يحتاج شخص شبه ميت إلى إله؟".

توافد الأخوة، كأن ضوء القمر كسّر ظلام الليل شظايا، وراحوا يختبؤون في الكنيسة بجلبة خفيفة.

ومنذ ذلك الحين بدأت تدور أمور غامضة بالنسبة لي، إذ صار أنطوني يكلمّني بجفاء، كأنه سيِّدي، فيقطّب، ولا يدعوني للدخول إليه. ثم استردّ ما أعطاني من كتب، ومنها كتاب تاريخ روسيا الذي أثار تعجبّي الشديد، ولم أكن قد أنهيتُه بعد. رحت أفكّر بماذا أغضبت سيّدي، ولا أجد سبباً.

لقد رَسَتْ بداية حديثه في ذاكرتي، وظلّت تطفو على السطح دون أن تزعج شيئاً. أكرّرُ بيني وبين نفسي: "الإله حلم تراه روحك في المنام". لكنني لا أجد ضرورة للخوض في ذلك، لعلّها فكرة تافهة.

بعد مدّة وجيزة جاءت عشيقته. كان ذلك في وقت متأخر من الليل. سمعت أنطوني يقرع الجرس، ويصيح:

- إليّ بالسماوَر سريعاً.

عندما أتيت بالسماور، رأيت امرأة تجلس على الديوان، ترتدي فستاناً واسعاً، ورديَّ اللون، يتدلّى شعرها الأشقر على كتفيها، وهي صغيرة مثل دمية، ووجهها ورديٌّ أيضاً، وعيناها زرقاوان. بدت لي حزينة، خجولة.

كان أنطوني يعجلّني، وأنا أضع الأواني على الطاولة:

ـ تحرّكْ بسرعة، هيّا!

ففكّرت: "يا لك من ملهوف!".

أعجبتني هذه المغامرة العاطفية، إذ شعرت بالرضا عندما رأيت أنطوني قادراً على الأقل على أن يحبّ، وإن كان ذلك لا يحتاج إلى كبير حكمة. في حين كنت أنا في تلك الفترة بارداً تجاه أمور كهذه، ثمّ إن فسق الرهبان كان يبعدني عن ذلك. أما الأب أنطوني، فيا له من راهب، وعشيقته تتميز بجمالها الخاص، ريّانة، كأنها دمية جديدة.

جئت في الصباح لأرتّب المخدع، ولم يكن أنطوني موجوداً، لقد ذهب للقاء رئيس الدير، بينما كانت العشيقة تجلس على الديوان، وفي يدها كتاب. كانت تطوي ساقيها تحتها، شعثاء الشعر، شبه عارية. سألتني عن اسمي فأجبتها، وعن مدّة إقامتي في الدير، فأجبتها أيضاً.

- ألا تشعر بالملل؟

قلت:

ـ لا.

- هذا غريب، إن كنت صادقاً!

قلت:

- ولِمَ لا أكون صادقاً!

- أنتَ شابٌّ ووسيم!

- وهل الدير مخصّص للمشوّهين؟

فضحكتْ، وأنزلتْ رجلها العارية عن الديوان، وراحت

تتأمّلني، وتتصرّف بطريقة غير لائقة، فتُريني ذراعيها العاريتين إلى الكتفين، وفستانها محلولَ العُرى على صدرها.

دار في خَلَدي: "لا جدوى ممّا تفعلينه، يجب أن تحافظي على عُريكِ لحبيبك!"

فسألتني الحمقاء:

- ألا تُحرِجُكَ النساء؟

قلت:

- إنني لا أَراهُنَّ، وبماذا يمكنهنَّ إحراجي؟"

راحت تضحك:

- كيف بماذا؟ كيف: بماذا؟

وإذا بأنطوني يقف في الباب، ويسأل بغضب:

- ما هذا، يا زويا؟ آ؟

فصاحت:

- آه، يا له من مضحك!

ومضتْ تزقزق، وتزقزق، وهي تحكي له كم أنا مضحك. لكنَّ أنطوني لا يستمع إليها، ويأمرني بوقاحة:

- اذهب، وتفحصْ الأكياس، والصناديقَ هناك، لأن عليك أن تأخذ جزءاً من محتواها إلى رئيس الدير فيما بعد.

في ذلك اليوم شرب كلاهما الكثير من النبيذ في أثناء الغداء، وبعد تناول الشاي، في المساء، كانت المرأة ثملة تماماً، ويخيَّل إليّ أن أنطوني كان أكثر ثملاً من المعتاد. فقد راح يرسلني من زاوية إلى زاوية على وجه السرعة، أعطِني هذا، ناولْني ذاك، سخّن النبيذ، ثم برّدْه. كنت أركض مثل نادل في حانة، بينما يتناقص

إحراجهما من وجودي، إذ أخذت الآنسة تشعر بالحَرّ، وتتعرّى تدريجياً. وفجأة، سألني سيدي:

- هل هي جميلة، يا ماتفي؟

قلت:

- لابأس.

فقال:

- دقّق النظر فيها!

أما هي فكانت تضحك ثملة.

أردت أن أذهب، لكن أنطوني راح يصرخ بشراسة:

- إلى أين؟ توقّف! هيّا، يا زويا! تعرّي أمامه...

ظننت أنني أخطأت السمْع، لكنها خلعت مريلة ما، ووقفت أمامي مترّنحة.

نظرت إلى أنطوني، ونظر هو إليّ... دقّ قلبي دقّات غير لائقة، وشعرت بالشفقة على هذا السيّد الذي لا تليق به النذالة، وخجلتُ عن المرأة.

راح يصرخ:

- اخرجْ أيّها الجلف!

رددتُ عليه:

- أنت الجلف!

فوثب من مكانه، وانقلبت القوارير على الطاولة، واهتزّت الأواني، واندلق شيء مثل نبع بطيء، حزين. ثمّ خرجت إلى البستان، واستلقيت. راح قلبي يئزُّ مثل عظم غزاه البرد. وتحيط بي السكينة، فأسمع صراخ أنطوني:

- اخرجي!

وتُجيبه المرأة زاعقة:

- لا تجرؤ، أيها الأحمق!

ثم أُسرجتِ الخيول، وهي تنخر باستياء، وتضرب الأرض بحوافرها. كانت الأبواب تَنْصفقُ، ويترامى إلى السمْع حفيف عجلات العربة، وأزيزُ بوّابة السور، فيما أنطوني يمشي في البستان، وينادي بصوت خافت:

- ماتفي، أين أنت؟

ها هو جسمه الطويل، في لباسه الأسود، يتنقّل بين أشجار التفّاح، وهو يمسك الأغصان بيديه، ويتمتم:

- أيّها الأحمق!

ويتبعه ظلٌّ كثيف، ثقيل، يتلوّى على الأرض.

ظللتُ مستلقياً في البستان حتى الصباح، ثم جئت إلى الأب إسيدور، وقلت له:

- أعطني بطاقتي الشخصية، فأنا ذاهب!

تعجّب الراهب، وكاد أن يثب.

- لماذا؟ وإلى أين؟

- لا أعرف إلى أين، ولكنني سأجوب الأرض.

راح يحقّق معي، لكنني قلت له:

- لن أشرح شيئاً.

خرجتُ من قِلْيته، وجلستُ قريباً منها، على مقعد تحت أشجار سروٍ قديمة. جلست هنا عمداً، إذ كان المطرودون من الدير، المغادرون، يقبعون على هذا المقعد استعراضاً. يمّر الأخوة بجانبي،

يسترقون النظر إليّ، وبعضهم يبصقون. فقد نسيت أن أقول إن إشاعة ذاعت بأن أنطوني اتخذني عشيقاً له؛ فكان التلاميذ يحسدونني، بينما بات سيّدي موضعَ حسدِ الرهبان، وهكذا كانوا يفتَرون على كلينا.

كان الأخوة يتناقلون الأخبار.

- آها - ا - ا، لقد طُرد هذا أيضاً، الحمد لله!

أما الأب آساف، العجوز الماكر اللئيم، جاسوس رئيس الدير، وهو من يؤدّي دور المعوِّق في الكنيسة، فراح يسبّني بأرذل الشتائم، حتى إنني قلت له:

- اغربْ عن وجهي، أيّها العجوز، وإلاّ أمسكت بأذنك، وأبعدتك بنفسي!

غير أنه، رغم بلاهته، فهم مرماي.

طلبني رئيس الدير، وقال لي بلطف:

- سبق وأن لَمّحتُ لك، يا بنيّ ماتفي، أنه كان من الأفضل لك لو ذهبت للعمل في المكتب، وكنتُ على حقّ! هكذا هم الكبار دوماً! وكيف لعنيدٍ مثلك أن يحتمل الخدمة كوصيف؟ وها أنت صببت شتائمَك البذيئة على الأب أنطوني المحترم...

- أهو من قال لك هذا؟

- ومَنْ غيره؟ فأنت لم تتكلّم بعد.

- وهل أخبرك كيف جعل امرأة تتعرّى أمامي؟

رسم رئيس الدير عليّ إشارة الصليب برعبٍ تقيّ، وهو يلوّح بيديه:

- ما بك، ما بك، حفظك الله! أيّة امرأة؟ لا بدَّ أن هذا تراءى

لك من جرّاء إغواء الشيطان لجسدك! آي، آي، آي! ألم تفكّر في هذا؟ أيّة امرأة في دير للرجال؟

أردت أن أطمئنه، فقلت:

- مَن، إذاً، جاءك أمس بالنبيذ، والجبن، وبيض السمك؟

فازداد تعجّباً:

ـ ما أصابك، حفظك الله! كيف خطر لك شيء عجيب كهذا؟

شيء مقرف. شيء يُفضي إلى الجنون.

عند الظهيرة عبرتُ البحيرة، وجلستُ على الضفة أنظر إلى الدير الذي عملت فيه بكدٍّ أكثر من عامين.

بَسَطتِ الغابة أجنحتها الخضراء، وظهر الدير في صدرها، جدرانه بيضاء، مسنّنةُ الأعالي، كأنها مطرزّة على خضرة كثيفة، والكنيسةُ القديمة بأبراجها الزرقاء، وقبّتها الذهبية الجديدة، وأشرطة الأسطح الحمراء، والصلبان تشعُّ متألّقة، تُنادي، وفوقها جرس السماء الأزرق يصدح بضجيج الربيع الفَرِحِ، والشمس تحتفل بانتصاراتها.

وداخل هذا الجمال الذي يجعل الروح تضطرب بابتهاجٍ حيّ، اختبأ رجال سود في جلابيب طويلة، ليتعفنّوا هناك وهم يُمضون أيامهم فارغة، لا حبٌّ فيها، ولا أفراح، يقضونها في القذارة، والعمل العبثي.

انتابني شعور بالشفقة على الجميع وعلى نفسي، وكدت أن أبكي، فنهضت، وذهبت.

كانت الأرض تتنفّس روائح زكية، وتغنّي برفقة كلّ شيء

حيّ فيها. الشمس تُنبتُ الأزهار في الحقول، لتعلو نحو السماء، وتنحني للشمس، والأشجار تتهامس بخضرتها الفتية، وترتعش، والعصافير تزقزق، ويتألّق الحبّ في كلّ مكان، فالأرض مفعمة، وثملة بقوّتها!

وإذا ما صادفتُ فلاحاً ألقيتُ عليه التحية، لكنه بالكاد يهزّ رأسه مجيباً، وإذا ما رأيت امرأة تحاشتني. ولكنني أرغب بالتحدث إلى الناس، لكنتُ كلّمتهم بلطف.

أمضيت أول ليلة من ليالي حريتي في الغابة، فبقيت مستلقياً مدة طويلة، أنظر إلى السماء، وأغنّي بهدوء، حتى غفوت. ثمّ استيقظت في الصباح الباكر لأنني شعرت بالبرد، وعدت إلى السير لملاقاة حياتي، كأن لي جناحين، كل خطوة تشدّني إلى الأمام، وأوشك أن أركض إلى آخر المدى.

ينظر الناس إليّ شزراً عندما يصادفونني، ذلك أن الفلاحين يشعرون بالاشمئزاز، والسأم، والعدائية تجاه لباسي الأسود الذي اعتاد أن يرتديه الطفيليون، ولا أستطيع خلعه، لأن بطاقتي الشخصية انتهت مدّتها، وكتب عليها رئيس الدير ما يؤكّد أنني تلميذ راهب في دير "سافاتيفو"، ذاهب لزيارة الأماكن المقدسة.

وها قد اتجهتُ إلى تلك الأماكن برفقة متسوّلين طالما كانوا يملأون ديرنا بالمئات في أيام الأعياد. كان الأخوة يعاملونهم بلا مبالاة، أو بعدائية، بدعوى أنهم طفيليون، ويحاولون سلبهم كلّ قروشهم، ويجبرونهم على العمل في الدير، يستنزفون هؤلاء الناس بشتّى الطرق، ويستخفّون بهم.

لقد كنت منشغلاً بعملي، لم ألتقِ كثيراً بالزائرين، بل ولم

أكن أبحث عن هذا اللقاء. فقد كنت أَعُدُّ نفسي إنساناً متميّزاً في نواياي، وأضع شخصي فوق الجميع. وعلى كل الطرق والدروب كنت أرى أجساماً رمادية، مترَنّحة، تسير حاملة صرّات على ظهورها، وعصيّاً في أيديها. أجسام أناس يسيرون خافضين رؤوسهم، دونما عجلة، لكنهم يسيرون بتصميم، متواضعين، ساهمين، أنقياء القلوب، يتوافدون إلى مكان واحد، يتأملّون، يصلّون بصمت ويعملون. وإذا ما صودف هناك تقيٌّ، وجدتَهم يتكلّمون معه بصوت خافت عن شيء ما، ثم ينسلّون ثانية على الطرقات، ليسيروا بهمّة إلى مكان آخر.

يمشون، يمشون شيوخاً وشباباً، نساء وأطفالاً، كأنّ صوتاً واحداً قد ناداهم، في مسيرهم عبر الأرض، وفي عمق دروبها، وأشعر بقوّةٍ تأسرني، وتقلقني، واعدةً أن تكشف لروحي شيئاً ما. أستغرب هذا المسير المضطرب، الخانع، بعد حياتي الجامدة.

كأن الأرض ذاتها تبعد الإنسان عن صدرها، وفيما هي تدفعه عنها، توحي له آمرةً:

- اذهب، اسأل، واعرف!

ويمشي الإنسان مطيعاً، يبحث، يتأمّل وينصت بإمعان، ثم يعود يسير، ويسير. تضجّ الأرض تحت أقدام الباحثين، وتدفعهم بعيداً، عبر الأنهار، والجبال، والغابات، والبحار، ثم أبعدَ من ذلك، إلى كلّ مكان توجد فيه أديرة منعزلة، تَعِدُهم بالمعجزات، تدفعهم إلى كلّ مكان يتنفّس أملاً بشيء مختلف عن هذه الحياة المرّة، الشاقّة، الضيّقة.

صعقني اضطراب النفوس الوحدانية الهادئ، وأعاد إليّ

إنسانيتي. فشرعت أتحرّى: عمَّ يبحث الناس؟ وصار يُخيَّلُ إلي أن كلّ شيء يحيط بي قلِقٌ، ومضطرب مثلي.

ما أكثر من هم على شاكلتي، يبحثون عن الله، ولا يعودون يعرفون إلى أين الذهاب. لقد بددّوا أرواحهم كلّها على دروب بحثهم، وما عادوا يسيرون إلاّ لأنهم لا يملكون القوّة على التوقّف، يهيمون مثلما تتطاير قشور البصل في مهبّ الريح، خفيفة، لا نفع فيها.

بعضهم لا يستطيعون التغلّب على كسلهم، فيحملونه على أكتافهم، يذلّون أنفسهم، ويعيشون على الكذب، وبعضهم تتملّكهم الرغبة برؤية كلّ شيء، ولكنّهم لا يملكون القوّة على أن يحبّوا أيّ شيء.

أرى كثيراً من الناس الفارغين، المحتالين، القذرين، والطفيليين الوقحين، الطمّاعين مثل القمل ـ أرى الكثير منهم ـ وما هم سوى غبارٍ خلف جمْعٍ ممّن يتملّكهم قلق البحث عن الله.

تجذبني قوّة لا تقاوم للحاق بهذا الحشد.

حوله يتزاحم بصخب وجشع، مثل نوارسَ فوق النهر، أناسٌ متباينو الأهواء، مذهلون ببشاعتهم.

ذات مرة رأيت، في منطقة "بيلوأوزيرو"، رجلاً متوسّط العمر، مفعماً بالنشاط، تبدو عليه مظاهر الثراءً، نظيف اللباس.

كان جالساً، يتفيّأ في ظل الأشجار، وإلى جانبه خرَقٌ، وعلبة مرهم، ووعاء معدني، وكان يصيح:

ـ أيها الأرثذوكسيون! من كان منكم قد قرَّحَ العملُ قدميه، فليقترب لأشفيه! إنني أعالج مجاناً، وفاءً بنذر نذرتُه لوجه الله!

إنه عيد ديني في كنيسة "بيلوأوزيرو"، يتوافد فيه المصلّون كالمطر من كلّ حدب وصوب، يقتربون من الرجل، يجلسون ويحلّون أحذيتهم المصنوعة من القشّ، فيغسل لهم أقدامهم، ويدهن جروحهم، ويعظهم:

ـ آهٍ، يا لحمقك، يا أخي! إن حذاءك واسع على قدمك، فكيف تستطيع المشيَ فيه؟

يجيبه الرجل ذو الحذاء الكبير:

ـ حتى هذا الحذاء تصدّقوا به عليّ، كُرمى للمسيح!

ـ مَنْ تصدّق به عليك أرضى الله، أمّا المشيُ في هذا الحذاء فحُمْقٌ منك، وليس بطولةً، ولن يكافئك الله على ذلك.

فكّرت في نفسي: "يعرف هذا الإنسان تعاليم الله جيداً!".

جاءته امرأة تعرج، فصرخ:

ـ أيتها الشابة! هذا ليس مسمارَ لحم، أعتقد أنه المرض الفرنسي! أيها الأرثذوكسيون، إنه داءٌ مُعْدٍ، يفتِكُ بأُسَرٍ بأكملها، مرض يلتصق بالإنسان!

ارتبكتِ المرأة، ثمّ نهضتْ وراحت تبتعد، خافضة نظرها، فيما هو مستمرّ في النداء:

ـ اقتربوا أيها الأرثذوكسيون، باسم القدّيس كيريل!

ويدنو الناس منه، يخلعون أحذيتهم وهم يئنّون، فيغسل لهم أقدامهم، ويقولون له: ـ ليحفظْك المسيح.

ولكنني أرى وجهه الحسن الطلعة يرتجف متشنّجاً، ويداه ترتعشان. وبعد قليل من الوقت أغلق محلَّ عمل الخير، وأسرع بالهرب إلى مكان ما.

اصطحبني كاهنٌ إلى زريبة لقضاء الليل، فإذا بذلك الرجل هناك. استلقيت إلى جانبه، وبدأت حديثاً هادئاً:

- لماذا تنام بجوار أصحاب اللباس الأسود، أيها المحترم؟ يظهر من لباسك أن مكانك في الفندق.

أجابني:

- لقد نذرت أن أكون الأدنى بين أدنى الناس مدّة ثلاثة أشهر كاملة! فأنا أرغب في أن أجترح مأثرةَ تعبّدٍ كاملة، ولهذا فليأكلْني القملُ كما يأكل الجميع! أرأيتَ ماذا أفعل! إنني لا أقوى على رؤية القروح، فهي تبعث في الغثيان. وبالرغم من اشمئزازي، فإني أغسل أقدام المسافرين كلّ يوم! ما أصعب خدمةَ الربّ، وما أعظم الأملَ برحمته!

فقدتُ الرغبة في التحدّث إليه، وتظاهرت بأنني نائم، فيما ظللت مستلقياً، أفكّر:

"يالتفاهة التضحية التي يقدّمها لربِّه!"

سمعت هسيسَ القشّ تحت جسمِ جاري، لقد نهض بحذر، وركع ليصلّي بصمت في بادئ الأمر، ثم ترامى همسُه إلى مسمعي:

- أيها القدّيس كيريل، اشفع لي أنا الآثم، أمام الله، ليشفي قروحي وجروحي، جزاءً لي على علاجي قروحَ الناس! فلتقدِّرْ أتعابي، ولترحمْني، يا إلهي الذي لا يخفى على أنظارك شيء! إن حياتي بين يديك. أعلمُ أنني كنت مجنوناً في نزواتي، لكنك عاقبتني بما فيه الكفاية، فلا ترمِني مثل كلب، ولا تجعل عبادك يتنكّرون لي، أتضرّعُ إليك، فلتلتهب صلاتي أمامك مثلما تلتهب المبخرة!

لعلّ هذا الإنسان خلط بين الطبيب والربّ، فشعرت باشمئزازٍ لا يطاق، وسددتُ أذنيّ بإصبعيّ.

حين أنهى صلاته، أخرج طعاماً من حقيبته، وراح يلوك، ويُصْدِر صوت مضغ مثل خنزير.

ما أكثرَ ما رأيتُ من أمثاله. يزحفون ليلاً أمام وجه الله، وفي النهار يدوسون صدور الناس بلا رحمة. لقد هبطوا بالله حتى جعلوه يتستّر على قذاراتهم. يساومونه ويرشُوْنه، كمن يقول:

- لا تنسَ، يا إلهي، كم قدَّمتُ لك!

إنهم عبيدٌ أعماهم الطمع الذي يحبونه أكثر من أنفسهم، يسجدون لصنم دميم في نفوسهم المظلمة والجبانة، ويصلّون له.

- إلهي! لا تعاقبني بقسوتك إذا ما أخطأت، واقصرْ غضبك على قصاصك منّي. يسيرون في الأرض بلا توقّف، كأنهم جواسيسُ لربهم، وقضاةٌ بين البشر، ينتقدون الناس، وبنظر ثاقب يرون كل ما يخالف شرائع الكنيسة، يغدون ويروحون، ينتقدون ويشتكون:

- يا ويلنا، فالإيمان يخمد في قلوب الناس!

أكثر من أضحكني بحميَّته كان رجلاً سرتُ معه من "بيرياسلافل" إلى "روستوف"، وظلّ يصرخ في وجهي طول الطريق:

ـ أين شريعة القدّيس فيودور ستوديت؟

كان رجلاً شبعانَ، معافى، أسود اللحية، أحمر الخدّين، يملك مالاً ينفقه على النساء في النُزُل الليلية، ويقول:

ـ لقد فقدتُ طمأنينة النفس عندما رأيت انتهاك الشرائع، وفُسْقَ الناس. أنا صاحب مصنع للآجُرّ، لكنني تركته لأولادي، وهاقد أمضيت أربع سنوات في التجوال والتأمل في كلّ مكان،

فانتاب روحي الرعب! لقد تكاثرت الفئران في مستودع الكنيسة، وراحت تمزق بأسنانها ما للشريعة من ثياب متينة، والشعبُ يغلي غضباً على الكنيسة، فيبتعد الناس عن صدرها، ليقعوا في فَحْشاء الهرطقة والطوائف. وماذا تفعل الكنيسة التي تحارب في سبيل الله، بالمقابل؟ إنها تضاعف أملاكها، وتزيد عدد أعدائها! يجب أن تعيش الكنيسة في الفقر مثلما عاش القدّيس الفقير "أليعازر"، لكي يرى الشعب أن الفقر الذي أوصى به المسيح مقدّسٌ حقّاً، لكي يرى ذلك فلا يتمرّد، ولا يتطاول على أملاك الغير! وهل من مهمّة للكنيسة غير ذلك؟ عليها أن تضبط الشعب في قبضة من حديد!

لا يقدر هؤلاء المشرِّعون على إخفاء أفكارهم، وهم يرون هشاشة شرائعهم، فيبوحون بأسرارهم دون حياء.

و التقيت تاجراً في منطقة الجبال المقدّسة، وهو رحّالة مشهور، يصف رحلاته إلى الأماكن المقدسّة في المجلات الدينية، كان يعظُ الحجّاج إلى تلك الأماكن بالخنوع، والصبر، والتواضع.

كان كلامه حارّاً، يستدرّ الدموع، فيعمدُ إلى الترغيب والترهيب، فيما يطأطئ الناس رؤوسهم، ويستمعون إليه صامتين.

تدخَّلتُ في حديثه، وسألته:

- وإذا ما وقع انتهاكٌ سافرٌ للشرائع، أنصبرُ أيضاً؟

وإذا به يصيح:

- اصبر، يا عزيزي! لابدّ لك أن تصبر! كان المسيح نفسه صبوراً، من أجلنا ومن أجل خلاصنا.

قلت له:

ـ وكيف، إذاً، لم يخجلِ الشهداء وآباء الكنيسة، أمثال يوحنّا ذي الفم الذهبي، وفضحوا الملوك أيضاً؟

فأصابه من الذهول ما جعله يشتعل اشتعالاً غير طبيعي، وراح يضرب الأرض بقدميه، ويصيح في وجهي:

– ما لك تهرف، أيها المتمرِّد! من الذي فضحوه؟ لقد فضحوا الكفّار!

قلت:

ـ وهل الملكة يفدوكسيا كافرة؟ وإيفان الرهيب؟

فيصرخ ملوّحاً بيديه، كأنه متطوِّعٌ جاء لإطفاء حريق:

ـ ليس الحديث عنهم! لا تتكلّمْ عن الملوك! بل تكلّمْ عن الشعب! فالشعب هو الأهمّ! إنَّ الشعبَ يأمل عبثاً، وليس في قلبه خوف! لقد صار وحشاً، وعلى الكنيسة أن تروِّضه، ذلك هو عملها!

ولَمّا كنت حينها أعمى البصيرة، لا أرى الشعبَ، فإنني، رغم بساطة كلامه، لم أفهم مرمى اهتمامه بالشعب، وإن كنت لمستُ فيه الخوفَ بوضوح.

بعد جدالي مع هذا الكاتب، اقترب مني عدّةُ رجالٍ، وقالوا لي، كما يقال لمن لا خير يُرْجى منه:

ـ يوجد هنا شابٌّ، ألا تريد أن تتحدّث إليه؟

ثمّ رتبّوا لي لقاءً مع الشابّ في الغابة عند البحيرة، وقت صلاة المغرب.كان الشابّ داكن البشرة، كمن سفعته صاعقة، شعرُه قصير، جافٌّ، خشن، ووجهه بارز العظام، تتّقد فيه عينان عسليتان. وهو لا ينقطع عن السُّعال، ويرتعش جسمه كلّه. راح

ينظر إليّ بعدائية واضحة، ويقول متقطّع الأنفاس:

ـ لقد أخبرني هؤلاء الناس بأنك تُنكر الصبر، والتواضع، فاشرح لي لماذا تفعل ذلك؟

لا أذكر ماذا قلت له حينها، وكيف جادلته، ولا أذكر سوى وجهه المنْهَك، وصوته الواهن، وهو يصيح في وجهي:

- إننا لم نُخلَق لهذه الحياة، بل للحياة المقبلة! موطنُنا هو السماء، هل سمعت؟

فانبرى لمواجهته جنديّ أعرج، فَقَدَ رجله في حرب "تيكين"، وقال بصرامة:

- أيها الأرثوذكسيون، كلمتي لكم هي: أينما قَلَّ الخوف ازدادت الحقيقة!

وخاطب الشاب قائلاً: ـ إذا كنت تخاف الموت، فهذا شأنك! لكنْ، إيّاك أن تُرْهِبَ الآخرين! ففينا من الرعب ما فيه الكفاية! أما أنت، أيها الأمغر، فتكلَّمْ!

واختفى الشاب بعد قليل. بينما بقي حوالي خمسين شخصاً يستمعون إليّ. ولا أعرف بماذا استطعتُ شدَّ انتباههم إليّ في ذلك الحين، لكنني شعرت بالرِّضا، لأنهم يُنصِتون إليّ، فتكلّمت طويلاً في الظلمة، محاطاً بأشجار الصنوبر العالية، وبأشخاص جديين.

وأذكر أن الوجوه كلّها بدت لي حينها وقد توحّدت في وجهٍ واحدٍ حزين، وجه تراءى لي ساهماً، وعنيداً لا ينطق، لكنه جريء الأفكار. ورأيت في عيونه المائةِ لهيباً شديدَ القُربى من روحي، يضيء بلا انطفاء.

وما لبث هذا الوجه الذي وحَّد الجميع، أنِ امَّحى من ذاكرتي، ثمّ أدركت بعد مُضيٍّ مدة طويلة أن إرادة الشعب المتركزة في فكرة واحدة، هي وحدها ولا شيء سواها، تبثُّ في نفوس المشرِّعين الخوف من الشعب، وتدفعهم إلى العناية بالناس. ولئن كانت هذه الفكرة يومهالم تولد بعد، ولم تصبح ملموسة، فإن بذور الشكّ في رسوخ الشرائع المعادية كانت قد بُذرتْ في روحي. ومن هنا يأتي قلق المشرِّعين! فهم يرون هذه النظرة الملحّة في السؤال، يرون هذا الشعب يمشي على الأرض هادئاً، أخرسَ، ويشعرون بإشعاع أفكاره الخفيّ، مدركين أن لهيب الأفكار الصامتة يحوِّل شرائعهم إلى رماد، وأن قانوناً آخر ممكن، ممكن!

إنهم يُحسّون بذلك إحساساً مرهَفاً، مثلما يحسُّ اللص بحركة صاحب البيت، مهما كانت، فهو يستيقظ عندما يسرقون بيته ليلاً، وهم يعرفون أنه ما إن يفتحَ الشعب عينيه حتى تنقلبَ الحياة بوجهها نحو السماء.

ما من إله للناس، ما داموا يعيشون متفرِّقين، متعادين، متناحرين. فما هي حاجة الشبعان إلى إلهٍ حيّ؟ إنه لا يبحث إلا عن تبريرٍ لملء معدته وسط جوع الناس. إن حياته مثيرة للضحك والشفقة، تتَّسمُ بالعزلة، وتحيط بها نسمات الرعب من كلّ الجهات.

وإذا بي أرى عجوزاً أشيبَ الشعر يراقبني، وهو ضئيل الجسم ونظيف، مثل عظم عارٍ، عيناه غائرتان كأنهما تخافان أمراً ما، أعجف الجسم، لكنه متين البنية كالماعز، وقدماه سريعتان، دائم

الالتصاق بالناس، يقتحم الجموع، يعيش منفرداً، ويحدّق في وجوه الناس مثل من يبحث عن أحد يعرفه. إنه يريد منّي شيئاً ما، لكنه لا يجرؤ على السؤال، فصار تردُّدُه هذا يثير شفقتي عليه.

كنت متَّجهاً نحو منطقة "لوبني"، إلى مزار القدّيس "أفاناسي الجالس"، فيما هو يطوي الطريق خلفي، دونما جلبة، ويقيس خطواته بعصا بيضاء.

سألته:

- كم أمضيتَ من الوقت في التجوال، أيها الجدّ؟

فابتهج، وراح يتضاحك رافعاً رأسه:

- تسعَ سنوات، يا عزيزي، تسع سنوات!

- وهل ذنْبُك كبير؟

- وأين يُحدَّد وزن الذنوب أو حجمها؟ لا أحد يعرف ذنوبي سوى الله!

- لكنْ، ما الذي اقترفته؟

وأضحك، فيبتسم.

- لا شيء ذا شأن! كنت أعيش مثل الجميع. إنني من توبولسْك في سيبيريا. عملت في شبابي حوذيّاً، ثم أدرت نُزُلاً وحانة...كان لي دكّان...

- هل سلبتَ أحداً؟

فخاف العجوز:

- لماذا؟ نجّاني الله من ذلك... ما لَكَ!

قلت:

- أراني أمزح، فقد رأيتك رجلاً ضئيل الجسم يمشي، فقلت

في نفسي: أين لهذا أن يقترف ذنباً كبيراً!

فاستقام العجوز، وهزّ رأسه قائلاً:

- لعلّ الروح بحجمٍ واحدٍ لدى الجميع، ومرغوبة لدى الشيطان بدرجة واحدة. قل لي ما رأيك بالموت. كنتَ تردِّد في النُّزل: "الحياة، الحياة"، فأين الموت؟

قلت:

- هنا، في مكان ما!

فأشار إليّ بإصبعه مهدّداً بطريقة مضحكة، وقال:

- تماماً! إنه دوماً هنا!

- وماذا في ذلك؟

- لا شيء!

وبالكاد يهمس في أذني، وهو يشرئبُّ على رؤوس أصابعه:

- قوّة الموت لا حدود لها! فالمسيح نفسه لم ينْجُ منه. لقد طلب من الله أن يُبعِدَ عنه هذه الكأس، لكنّ أباه في السماء لم يبعدها. فلم يكن قادراً على ذلك! إذ قال: سيأتيك الموت، والشمس ستموت، نعم!

وانطلق لسان العجوز، مثل جدول يسيل من جبل:

- يرفرفُ الموت فوق كلّ شيء، أمّا الإنسان فيشبه من يمشي على خشبة، فوق هوّة، وإذا بالموت يلوّح بجناحيه، ويخطفه! فلا يعود هناك من أثر لإنسان! آه، يا إلهي! تقول: "فليتوطّد العالم بقوَّتك"، - وكيف له أن يتوطّد، ما دام الموت أسمى من كلّ شيء؟ ومهما كنتَ جريء العقل، قارئاً للكتب، فأنت لا تعيش إلا ما دمت معافى، نعم!

يضحك وعيناه مغْرَورقتان بالدموع!

ماذا بوسعي أن اشرح له؟لم يسبق لي أن فكرّت بالموت، بل ولا وقت لديّ لأفعل ذلك الآن.

أما هو فيقفز، ويسترِقُ النظر إلى وجهي بعينين باهتتين. وتهتزّ لحيته، بينَ يُخفي يده اليسرى في عُبّه، وهو لا ينفكُّ يتلَفّتُ حوله، كأنه ينتظر أن يقبض الموت على يده من خلف شجيرة، ثمّ يلقي به في الجحيم.

تغلي الحياة حولنا، فيغطّي الأرضَ زبدٌ زمرّديٌّ من الأعشاب، وتغرّد بلابل لا تراها العين، وينمو كلّ شيء صاعداً نحو الشمس بين صيحات من السرور ملوّنة، زاهية.

سألت رفيق دربي:

- كيف توصّلتَ إلى أفكار كهذه؟ هل أُصِبتَ بمرضٍ شديد؟

- كلا، فقد عشت مطمئناً، ثرياً، حتى السابعة والأربعين من عمري! ثم ماتت زوجتي، وشنقتْ سلفتي نفسها، هلَكَتْ كلتاهما في عام واحد!

قلت:

- ألستَ مَن دفعتَ سلفتك إلى الشنق؟

قال:

- كلا، بل هي من فعلت ذلك بسبب فُسْقِها! فأنا لم ألمسْها، كلا! وحتى لو أنني عاشرتُها لغُفِر ذلك لرجل أرمل، لأنني لست كاهناً، وهي ليست غريبة عنّي! لقد قضيت عمري مثل أرمل عندما كانت زوجتي على قيد الحياة، وقد ظلّت مريضة أربع

سنوات، لا تنزل عن ظهر الوِجاق. وحين ماتت، رسمتُ إشارة الصليب، كمن يقول: الحمد لله، لقد أصبحتُ الآن حُرّاً!

أردت أن أتزوّج ثانية، وفجأة خطر ببالي أنني أعيش حياةً رغيدة، راضياً، ولكن لا مَفَرَّ من الموت، فلماذا؟ واحترت! سلّمتُ ابني جميع الأعمال، ورحلت! أظنُّ أن من يمشي لا يلاحظ اقترابه من حتفه، فكلّ ما حولي زاوٍ، يومضُ وكأنه يستدرجك بعيداً عن المقبرة. على أيّ حال، سيّان كلّ شيء!

سألته:

- هل تتعذّب، أيها الجدّ؟

- آه، يا عزيزي، لا يمكنني أن أصفَ لك رعبي! فأنا أحاول في النهار أن أبقى قريباً من الناس، إذ يخيّل إليّ أنني أحتمي بهم، فالموت أعمى وقد لا يميّزني، أو قد يختار غيري خطأً! أما في الليل، عندما لا يسترنا شيء، فكم هو مرعبٌ أن تستلقيَ ولا نوم! تتخيّل يداً سوداء تلوّح فوقك، تلامس صدرك، وتبحث عمّا إذا كنت هنا، وتلعب بقلبك، مثلما يلعب القطُّ بالفأر، فيما يرتعد فؤادك خوفاً... آه! وإذا ما نهضت وتلفّتَّ، رأيت الناس يستلقون حولك، ولا تعرف إن كانوا سينهضون، أم لا! وقد يُهلِك الموتُ الناسَ جماعات، ففي قريتنا قضت أسرة كاملة بسبب احتباس غاز الفحم في الحمّام، فمات الزوج، والزوجة، وبنتان!

كانت شفتاه ترتعشان، ويبدو مبتسماً، فيما تنهمر من عينيه دموع رقيقة.

- ليتني أموت حالاً، أو في أثناء النوم، فماذا لو فتَكَ بي مرض، وراح يقرضني على مهل!

تجعّد العجوز، وانكمش حتى صار يشبه العفن، يركض وهو ينتفض، مُطفَأ العينين، يتمتم بصوت خافت، مخاطباً نفسه، أو ربما موجّهاً كلامه إليّ:

ـ إلهي! أبقني على قيد الحياة ولو على هيئة بعوضة! لا تُهلِكْني، يا إلهي! بلِ اجعلْني برغوثاً، أو عنكبوتاً صغيراً!

قلت في نفسي: "يا لك من تافه!"

وسرعان ما استعاد حيويّته وقت الاستراحة، ومضى يتكلّم ثانية أمام الناس عن سيّده الموت، يتكلّم بحميَّة كبيرة. وشرع يعظ الناس: سوف تموتون، وتفنون في يوم مجهول، وساعةٍ مجهولة، وقد تهلككم صاعقة على بُعد ثلاثة فراسخ من هذا المكان.

بعضهم أضجرَه كلامُه، وبعض آخر يغضب ويشتمه، فيما قالت له امرأة شابة:

ـ يهابُ الموت مَنْ محفظتُه مليئة.

قالتها بلؤمٍ لفتَ انتباهي إليها، فيما تلعثم العجوز المخلِص للموت.

ظلَّ العجوز يواسيني طول الطريق إلى "لوبين"، وحقّاً، لقد مللْتُه حتى الموت! لقد رأيت كثيرين على شاكلته ممّن يتهرّبون من الموت، ويلعبون معه لعبة الطمّيمة بغباء. هناك بين الشباب أيضاً من دوّخهم الرعب، هؤلاء أسوأ من العجزة، وبالطبع كلّهم كفّار، أرواحهم تشبه مواسير المدفأة، فهي دائمة السواد، لا ينفكّ الخوف يَصفُرُ فيها أبداً، حتّى في الجوّ الهادئ يصفر، وأفكارهم تشبه أفكار المُصلّيات الطاعنات في السن. إنهم يضربون الأرض بأقدامهم، يتَملْملون في مكانهم، لا يعرفون أين تقودهم خطاهم،

ويدوسون كالعميان كلّ شيء حيّ، يتذكّرون اسم الله، لكنهم لا يكنّون له الحبّ، لا يملكون القدرة على تمنّي الأمنيات، ولا يحفلون إلا بشيء واحد هو نقل خوفهم إلى الناس، ليقْبلوهم بوصفهم شحّاذين ويمنحوهم الحنان.

إنهم لا يقتربون من الناس توقاً لتذوُّقِ العسل، بل طمعاً في أن يصبّوا سُمَّ عفنهم في أرواح الآخرين. أنانيون وعديمو الخجل من شدة تفاهتهم، يشبهون الشحّاذين المعوّقين الذين يجلسون على جانبي الطريق في مسيرات الصليب المقدّس، يكشفون للناس جروحهم، وقروحهم، وتشوّهاتهم، استجداءً لشفقة المارّة، وطمعاً بقرشٍ نحاسي.

يسير هؤلاء وهم يحاولون أن يزرعوا بذوراً سوداء من الفوضى في كلّ مكان، يئنّون رغبةً منهم في سماع أنينٍ كرَجْع الصَّدى، ويتلاطم حولهم موج هائل من الباحثين عن الله المتواضعين، فيلتهب الألم الإنساني بشتّى ألوانه.

فلنأخذ، على سبيل المثال، تلك الصَّبيَّة الأوكرانية التي أَسمعت العجوزَ كلماتها بشأن محفظة النقود الممتلئة. إنها صامتة، تكزّ على أسنانها، وجهها غاضب، مشوبٌ بالسمرة، ويتَّقد في عينيها غضب شرّير. إذا ما سألتَها عن شيء أجابتك إجابات واخزة، كمن يطعنك بسكّين.

قلت لها:

- لا تتحاشيني، يا عزيزتي، بل قصّي عليَّ مأساتك. فقد تشعرين بالراحة!

- ماذا تريد مني؟

- لا أريد شيئاً، لاتخافي!

فغضبتْ:

- لست خائفة، بل أشعر بالاشمئزاز!

- ولماذا أثير اشمئزازك؟

- لماذا تتحرّش بي؟ سأجمع عليك الناس!

وبالطريقة نفسها ترفُسُ الجميع، من شيوخ، وشباب، ونساء أيضاً.

قلت:

- لا حاجة لي بك، إنما أحتاج إلى مأساتك، لأنني أريد أن أعرف كل ما يعذّبُ الناس.

رمَقَتْني بطرف عينها، وأجابتني:

- ابحثْ عن غيري! فكلّهم يعانون المآسي، لعنة الله عليهم!

- ولماذا تلعنينهم؟

- هكذا أريد!

أُحسّها تشبه الممْسوسَة، فأقول:

- ولأجل من تذهبين للصلاة؟

افترّ وجهها عن بسمة ساخرة، وتباطأَتْ خطاها، وقالت، كأنها تحادث أحداً غيري:

- في الربيع الماضي ذهب زوجي إلى نهر"دنيبر" لتعويم الأخشاب، واختفى! لعلّه غرق، أو قد يكون وجَدَ لنفسه زوجة أخرى، من يعلم؟ حمي وحماتي فقيران، ناقمان، وعندي طفلان، صبيٌّ وبنت، ماذا أطعمهما؟ لقد كنت أشتغل، وكنت على استعداد لأن أكسر ظهري في الشغل، لكنني لم أجد عملاً، وماذا يمكن لامرأة أن

تحصّل من عملها؟ وفي هذه الأثناء راح حمي يوبّخني:

"أنت وولداك مثل حجر في عنقنا، لقد أتيتم على كلٍّ ما لدينا من طعام وشراب!"

بينما ترجوني حماتي، فتقول:

"أنتِ شابة، اذهبي وتجولي بين الأديرة تحصلي على مال كثير، فالرهبان طمّاعون بالنّساء". لا يمكنني أن أتحمل جوع طفليّ، فأتجوّل! هل عليّ أن أُغرقهما؟ وها أنا أتجوّل!

كانت تتكلّم، وكأنها في حلم، وهي تكزّ على أسنانها، تتلعثم، وتصرخ عيناها بوجع أمّ.

- بلغ ابني الرابعة من عمره، اسمه أوسيب، والبنت اسمها غانكا. كنت أضربهما عندما يطلبان الخبز، وأيّ ضرب! وها أنا أتجوّل منذ شهر، ولم أجمع سوى أربعة روبلات. فالرهبان طمّاعون. لو أنني عملت بشرف لكسبَت أكثر! يا لهم من شياطين! شياطين! بأيّ ماءٍ سأغسل عاري؟

كان لا بدّ لي أن أقول لها شيئاً، فقلت:

- سيسامحك الله، كُرمى لولديك!

وإذا بها تعوي!

- وماذا يهمّني؟ لست مذنبة أمام الله! وإذا لم يسامحني، فلا حاجة لي بذلك؛ وحتى إذا سامحني، فلن أنسى ما فعلت! ليست جهنّم بأسوأَ ممّا أنا فيه! على الأقل، لن يكون طفلاي هناك معي!

قلت في نفسي: "آه، عبثاً فَتَّقْتُ جروحها".

ولكنْ لم يَعُدْ بإمكانها أن تتوقّف:

- بل ولا وجود لربّ للفقراء، لا وجود له! فكم صلّينا عندما

ذهبنا إلى ما بعد "زيليوني كلين"، باتجاه نهر "آمور"، وكم تضرّعنا، وبكينا طلباً للمساعدة، فهل ساعدنا؟ لقد ذُقْنا هناك مُرَّ العذاب مدّة ثلاث سنوات، ومَنْ منّا نَجَا من الحمّى، عاد شحّاذاً. كان والدي قد مات، وداست عربةٌ رِجلَ أمّي، فكسرتها، وهلَك شقيقان لي في سيبريا...

تحجّر وجهها... وبالرغم من جسارتها كانت جدّية وجميلة، داكنة العينين، كثيفة الشعر. ظللنا نتحدّث حتى الصباح، جالسَيْن على طرف الغابة، خلف محرس للسكّة الحديدية. كنت أرى قلبها يحترق كلّه، حتى أنها لم تَعُدْ قادرة على البكاء إلا عندما تذكّرتْ أيام طفولتها. ابتسمت مرتين، دون رغبة، وبَدَتْ عيناها أكثر رِقّة.

خطر ببالي، وأنا أسمع حديثها:

"ستذبح أحداً، أو تَقتل! أو قد تصبح فاسقةً، قاسية، فلا خيار أمامها!"

قالت:

ـــ لا أرى الله، ولا أُحبّ البشر! وأيّ بشر هم إذا كانوا لايقدرون على أن يساعد بعضهم بعضاً، يا لهم من بشر! إنهم نِعاجٌ أمام القويّ، ذئاب في وجه الضعيف! حتى الذئاب تعيش أسراباً، أمّا الناس فيعيش كلّ بمفرده، ويبغض بعضهم بعضاً! آه، ما أكثر ما رأيت، وما أرى الآن، ليتهم يهلِكون جميعاً! إنهم يلدون أطفالاً ولا يستطيعون تربيتهم، أ هذا هو الصواب؟ فأنا كنت أضرب ولدّي عندما كانا يطلبان الخبز، وأيّ ضرب!

في الصباح ابتعدت عني، وذهبت تبيع جسدها للرهبان، وقالت بحقْد وهي تمضي:

- ماذا أصابك، فأنت تفوقني قوّة، وقد نمنا متجاورَين، فلماذا عففتَ عن لحمٍ مباح؟ يا لك من مغفّل!

كأنها كانت تصفعني!

قلت لها:

- عبثاً أهنتِني!

فخفضَتْ نظرها، ثم قالت:

- أشعر برغبة في إهانة إنسان، وحتى في إهانة بريء. فأنت ما تزال شاباً، ولكنك أصبحت أعجف، وشابَ سالفاك، أفهم أنك تعيش مأساة أيضاً... لكن، لا يهمّني! إنني لا أشفق على أحد، وداعاً!

ومضت.

خلال ستِّ سنوات من التجوال رأيت الكثير من الناس الذين جعلتهم المصائب حاقدين، يتّقدون حقداً لا نهاية له على كلّ شيء، ولا يستطيعون أن يروا شيئاً سوى الشّر. يرون الشر ويتشرّبونه، كأنهم في حمّام ساخن، ويتجرّعون المرارة مثلما يتجرّع السكارى الخمر، ويضحكون، ويبْتَهجون:

- الحقيقة في نظرنا هي أن الشر والشقاء موجودان في كل مكان، ولا مكان للإنسان خارج نطاقهما!

إنهم يستسلمون ليأسٍ مجنون، يضطرمون به، فيفسقون، ويدنّسون الأرض بشتّى الطرق، كأنهم ينتقمون منها، لأنها

ولدتهم، وصار واجباً عليهم، وهم عبيدُ ضعفهم، أن يزحفوا عاجزين على طرقات الأرض إلى يوم الممات.

إنهم يمجِّدون المأساة ليجعلوها على مستوى إلهم، ثم يتعبّدون لها. لا يريدون أن يروا سوى قروحهم، ولا أن يسمعوا إلا أنين القنوط.

يثيرون الشفقة، فما هم إلا مجانين، لكنّ الروح تشمئزّ منهم، لأنهم مستعدون لأن يقذفوا بصاقهم المليء بالمرارة في وجه أيٍّ كان، ولو استطاعوا لَلَطّخوا الشمس بذاك البصاق.

على أن هناك مَن تسحقهم المصيبة، فيظلّون صامتين خوفاً منها، ويختبئون من وجه الحياة، إنهم صغار ومتردِّدون، إلا أنهم يفشلون في الاختباء، فيصبحون طينة في يد القويّ، يرقّع بهم الشقوق في جدران قلعته.

لقد رسخ في ذاكرتي الكثير من الوجوه والكلمات، وتصبّبت أمامي دموع عظيمة، ودوَّت قهقهة اليأس المرعبة في سمعي مراراً وتكراراً. وقد ذقتُ شتّى أنواع السموم، ونهلتُ من مياه مئات الأنهار. ما أكثر ما ذرفتُ من الدموع العاجزة المرّة.

لقد تبدَّت لي الحياة مثل هذيانٍ مخيف، مثل عاصفة ثلجية من الكلمات القلقة، ومثل مطرٍ حارٍ من الدموع، كأنها صرخة يأس لا تنتهي، وارتعاشة عذاب الأرض بأسرها، وهي تتوجّع من جرّاء سعيٍ لا يدركه عقلي ولا قلبي.

وتئنُّ روحي:

ـ ليس هذا ما أبغيه!

تتدفّق سيول المأساة عكرةً على جميع دروب الأرض، وأرى

برعب ألاّ مكان لله في فوضى تفكّك الكّل عن الكلّ؛ لا مكان لإظهار قوّته، ولا أساس لترتكز عليه الأقدام، فالحياة تتناثر رماداً، تنخرها ديدان المأساة والخوف، والغضب واليأس، والطمع والفسق، ويتحطّم الناس،وقد شتّتتهمُ الفُرقة، وأنهكتهم الوحدة.

أتساءل:

- أحقاً، ما أنت إلا حلم الروح الإنسانية، وأملاً خلقهُ اليأس في لحظة عجزٍ مظلمة؟ أرى أن لكلٍّ إلهه، وأن كل واحد من هذه الآلهة لا يفوق كثيراً عبده وحامله جمالاً وسموّاً. يثقل ذلك كاهلي. فالإنسان لا يبحث عن إله، وإنما يبحث عن نسيان مأساته. تُضيّقُ المآسي الخناق على الإنسان أينما كان، فيهرب من نفسه، راغباً في التهرّب من الفعل، ويخاف أن يشارك في الحياة، وهو دائم البحث عن زاوية هادئة يستُرُ فيها نفسه. أصبحت لا أُحِسُّ في الناس إلا بخوفهم أمام وجه الحياة، لا بقلقهم المقدّس في البحث عن الله، ولا سعيهم وراء الابتهاج بالله، بل كلُّ همهّم كيف يطردون الحزن؟

تصيح روحي:

- ليس هذا ما أبْغيه!

يصادف أن ترى إنساناً، يكون ساهماً جدّياً، تشعُّ عيناه طيبة ونقاءً. ثم تلتقيه مرة أخرى، أو مرتين، ويكون على الحال نفسها، أما في المرة الثالثة أو الرابعة، فتراه غاضباً أو ثملاً، ولا يعود حينها متواضعاً، بل وقحاً، جلفاً، ويكفر بالله.

ولا يمكنك أن تدرك لماذا أفلس هذا الإنسان، وما الذي حطّمه؟ الجميع يبدون عميان، يسهل أن يتعثّروا على الدرب، نادراً ما تسمع منهم كلمةً حيّة آتية من الصميم، وبحكم العادة كثيراً

ما يردِّد الناس كلمات الغير، دون أن يفهموا ما تنطوي عليه تلك الكلمات من نفع أو ضرر.

يلتقطون أقوال الرهبان المجاذيب، ومواعظ النسّاك وأصحاب النذور، ليتبادلوها فيما بينهم، كما يتبادل الأطفال شظايا الأواني المكسورة عندما يلعبون. و أخيراً، لا أرى بشراً، بل حطامَ حياةٍ مدمَّرة، غباراً بشرياً قذراً، يتطاير في الأرض، تجمّعه رياح مختلفة لتلقي به أمام ساحات الكنائس.

تحوم جموع لا تحصى من الناس حول رُفات الأولياء، والأيقونات صانعة المعجزات. يسبحون في الينابيع المقدسة، ولا يبحثون إلا عن نسيان الذات في كل مكان.

كانت مسيرات الصليب تكربني، فيما ماتت الأيقونات صانعة المعجزات في نظري منذ طفولتي، وقضت عليها حياتي في الدير قضاء مبرماً. كنت، في العادة، أرى كيف يزحف الناس في غبار الطريق مثل دودة رمادية عملاقة، تدفعهم قوّة لا أدركها، وينادي بعضهم بعضاً بحماسة:

- أسرعِ الخطا! أسرع!

وفوق رؤوسهم تسبح أيقونة مثل طير أصفر، تجعل رؤوسهم تنحني نحو الأرض، ويبدو وزنها ثقيلاً، يفوق طاقة الجميع.

يتساقط الممسوسون أكواماً في الغبار والوحل، فيتكدّسون بين أقدام الحشود، ويرتعشون مثل الأسماك، ليعلو زعيق وحشيٌّ، ويتدفّق الناس عبر أجسادهم المرتعشة، فيدوسونها، ويرفسونها وهم يصيحون، ويخاطبون أيقونة العذراء:

- ابتهجي، يا عذراء!

ووجوه الجمع مشوّهة، موتورة، متوحّشة، مكسوّة بالعرق، سوداء من الأوساخ، وليس مَسير هذا الجمع إلا غناءً حزيناً، تنشده أصوات متعبة، ووقْعَ أقدام أخرسَ يجرح مشاعِرَ الأرض، ويُكدّر السماوات.

وعلى جانبي الطريق، تحت الأشجار، تمتدّ سلسلة من الشحّاذين مثل شريطين ملّونين، يجلس ويستلقي المرضى منهم والمعوّقون، تغطّي أجسادَهم قروح متقيّحة، منهم من هو بلا يدين، أو بلا رجلين، أو أعمى... تتلّوى على الأرض أجساد منهكة، ترتعش في الجوّ أيدٍ وأرجل مشوّهة، وتمتدُّ نحو الناس لاستجداء شفقتهم. يَئنُّ الشحاذون ويوَلْوِلون، تلتهبُ جروحهم تحت أشعة الشمس، يستَعْطون القروش، ويشحذون باسم الرب، وجوه كثيرين منهم بلا عينين، في حين تتّقد العيون في وجوه آخرين كالجمر، ويأكل الألم الأجساد والعظام دون توقّف. إنهم يشبهون أزهاراً مخيفة.

وترى أمامك شيئاً من قبيل سَوْق البشر، وأشعر بالبغضاء تجاه القوّة التي تجرّهم في الغبار والوحل، فإلى أين؟

- ليس هذا ما أبغيه!

زرتُ المدينة الرائعة "كييف"، فصعقني مهدُ روسيا العريق بجماله وعظمته.

حاولت أن أتحدث إلى راهب يُعَدُّ فهيماً. قلت له: كذا وكذا، إنني لا أتمكّن من فهم الشرائع التي تقوم عليها حياة الناس.

- من أنت؟
- فلاّح.
- متعلّم؟

- قليلاً.

فأجابني بصرامة:

- لستَ أهلاً للعلم، إنه يفوق طاقتك!

تحققّت من أنه فَهيم حقاً.

سألني:

- هل أنت من طائفة قرّاء الكتاب المقدّس؟

- لا.

- آها ـ ا ـ ا! إذاً، أنت كهنوتي؟

- ما الذي يحملك على هذا الظن؟

- أفكارك.

كان وجهه أحمر، بلون اللحم المقدّد، وعيناه صغيرتان.

- إن كنت تبحث عن الله، فلا بدّ أنك تفعل ذلك لتكفر به!

ويهدّدني مشيراً بأصبعه:

- إنني أعرفكم! ألا ترغب بتلاوة دعاء "آمنت" مائة مرة؟ اقرأْه، تبتدَّدْ حماقاتك كلّها مثل دخان. على كل حال، لعلّ من الأفضل نَفْيَكم، أيها الهرطوقيون، إلى "الحبشة" في أفريقيا، حيث يقطن الإثيوبيون، نعم! عندها ستَتفقُون هناك حالاً من شدّة الحرّ!

سألته:

- وهل زُرْت الحبَشَة هذه، يا ترى؟

- نعم.

- ولكنك لم تَنفق.

فغضب الراهب...

التقيت برجل على ضفّة نهر"دنيبر"، كان جالساً على الشاطئ،

قُبالة مدينة "لافرا"، يُلقي بالحجارة في الماء، يناهز الخمسين من العمر، مُلْتحٍ، أجْلح، تحفرُ الأخاديد وجهه، كبير الرأس. كنت في ذلك الوقت أكتشف الناس الجدّيين من خلال عيونهم. دَنَوت منه، وجلست بجواره.

كان الوقت مساءً. تتدفّق مياه نهر "دنيبر" العكرِ مسرعة، وخلفه الجبل مُرصَّع بالكنائس، فيشّع ذهب قبابها تحت نور الشمس متباهياً، وتتألّق الصلبان. وزجاج النوافذ أيضاً يشعُّ مثل حجارة كريمة، حتّى ليخيَّل أن الأرض انشّقت أعماقها، وراحت تعرض كنوزها للشمس بكرَمٍ فخور.

يقول الرجل الذي بجواري بصوت خافتٍ وحزين:

ـ ليت مدينة "لافرا" كلّها تُحاط بالزجاج، ويُطرَد الرهبان منها، ولا يُسمَح لأحد بالدخول إليها، فلم يعد هناك بشر يستحقّون أن يسيروا وسط هذا الجمال!

لكأنّ حكاية قد تجمّدت هناك، خلف النهر، رواها حكيم عظيم، وتأتي أمواج نهر "دينير" من بعيد لتترقرق مسرورة برؤيتها. ولكنّ غناء النهر المتعجّب لا يحجبُ صوت الإنسان الخافت.

كم كانت البداية قويّة، ما كان أعظمه من بناء!

وطفقتُ أتذكّر عمالقةَ الروس، الأمراء فلاديمير، وأنطوني، وفيودوسي، مثلما أتذكّر حلماً قديماً، فأشعر بالحسرة.

كانت أجراس عديدة على الضفّة الأخرى تُقرع بصوت عالٍ وسرور، لكنّ صوت أفكاري الحزينة عن الحياة كان أقرب منها إلى مسمعي.

ـ لا أحد منّا يتذكّر أصوله. لقد ذهبت للبحث عن الإيمان

الحقيقي، فيما بتُّ الآن أتساءل: أين هو الإنسان؟ فأنا لا أرى إنساناً. أرى قوزاقاً، فلاحين، موظّفين، خوارنة وتجّاراً، ولكنني لا أجد إنساناً لا علاقة له بالأمور العادية. فكلٌّ يعمل لحساب أحد ما، وكلٌّ يتلقّى الأوامر من أحد ما، وفوق كل رئيسٍ رئيس، وتمضي هذه العلاقة عالياً إلى حدٍّ لا يدركه النظر. هناك يحتجب الإله.

الوقت ليلٌ، وماء النهر اصطبغ بلون أزرق، وفقدت صلبان الكنائس بريقها. ولم أعد أميّز الدوائر التي يحدثها ما يرميه الرجل من حجارة في الماء.

قال لي:

ـ حدث عندنا تمّرد في "مايكوب" في عام 1903بسبب الطاعون الذي فتك بالماشية. فاستقدموا الفرسان لمحاربتنا، وراح المسيحيون يقتلون المسيحيين. كلّ ذلك بسبب الماشية! فهلَك خلْقٌ كثيرون، وتساءلت: مِن أيّ دين نحن الروس، مادامَ يقتل بعضُنا بعضاً من أجل الجواميس، بينما يأمرنا ربُّنا: "لا تقتلْ"!

وتنداح"لافرا" في الظلام، يتبعها الجبل كأنها شبح. يتلمّس الرجل القوزاقيّ الأرض حوله بحثاً عن حجارة، وإذ يجدها ويقذف بها إلى النهر، فينفجر الماء.

يخفض القوزاق رأسه، ويقول:

ـ هكذا إذاً، أيها الإنسان! شريعة الله حليب مقدّس لا ننال منه إلا ما فسد. يقال: "من كان قلبه صافياً رأى الله"، وكيف يكون قلبك صافياً إذا لم تكن حُرّاً؟ وما دمتَ تفتقر إلى إرادة حُرّة، فأنت بلا إيمان حقيقي، وما عندك ليس إلا الوهم.

نهض الرجل، ثم نفض ثيابه، وتلفّت حوله. كان مربوع القامة.

ـ لسنا أحراراً لنفكر بالله، هذا ما أعتقده!

ورفع قبّعته احتراماً، ومضى، فيما ظللت في مكاني مثل مقيَّد إلى الأرض. أريد حفظ كلمات هذا القوزاقي، ولا أعرف إلى ذلك سبيلاً، لكنني أشعر أنها تنطق بالحق.

يداعبني ليل الجنوب الدامس، وأفكّر:

" أحقّاً أنّ جمال الروح البشرية كامن في الحزن حصراً؟ أين ذلك المحور الذي تدور حوله زوبعة بني البشر؟ أين مغزى هذا الجري المحموم؟".

عند اقتراب الشتاء كنت أحاول دائماً أن أبقى قريباً من الجنوب، حيث الجوّ أكثر دفئاً، وإذا ما فاجأني البرد والثلج في الشمال، لجأتُ إلى الأديرة. بالطبع، كان الرهبان، في بادئ الأمر، ينظرون إلي شَزَراً، لكنْ ما إن أتفانى في العمل حتّى يلينوا، فهم يشعرون بالرِّضا عندما يعمل الإنسان بجدٍ، ودون مقابل. تستريح قدماي، ويظلّ يعمل رأسي ويداي. وعندما أتذكّر كلّ ما رأيته في الصيف، أتمنّى أن أستخرج من هذا العبء غذاءً نقيّاً لروحي، فأَزِنُ الأمور، أحلّلها، راغباً في أن أفهم الأسباب، لكنني أتخبّط أحياناً في كل ذلك، حتى تسيل دموعي.

أشعر أنني متخَم بأنين الأرض وحزنها، فيخمد عنفواني، وأُصبحُ كئيباً، صامتاً، يزداد غضبي على الجميع، وعلى كلّ شيء. أحياناً كان يتملّكني يأس قاتم، فأعيش أسابيع كأنني نَعِسٌ، أو أعمى، لا أرغب بشيء، ولا أرى أيّ شيء. شرعت أفكّر: لِمَ لا أكفّ عن هذا التجوال، وأعيش مثل الجميع، فأنأى بنفسي

عن الألغاز، وأخضع لقوانينَ سَنّها غيري؟ إنّ نهاري مظلم مثل ليلي، وأعيش وحيداً في الأرض مثل الهلال في السماء، غير أنني لا أستطيع أن أنير أيّ شيء. وكمن يبتعد عن نفسه أحياناً، فيرى أمامه شاباً قويّ البنية، يقف على مفترق طرق، وهو غريب عن الجميع، لا يعجبه شيء، ولا يصدّق أحداً. لماذا يعيش؟ لماذا هو معزول عن العالم؟

وبردت روحي...

تردّدتُ كذلك على أديرة النساء مدّة أسبوع أو اثنين. و في واحد من تلك الأديرة الواقعة على ضفاف نهر "الفولغا" جرحتُ قدمي بفأسٍ وأنا أُقطّع الأخشاب، فعالجتني عجوز طيّبة هي الأمّ فيوكتيستا. كان الدير صغيراً لكنه ثريّ، والأخوات فيه شَبِعات، معتزّات بأنفسهنّ. كنّ يُثرنَ غضبي بتصنّعهنّ، وابتساماتهنّ المعسولة، وحناجرهنّ المنتفخة.

مرّةً، وأنا أصلّي العشاء، سمعت منشدة الخورس تغنّي بصوت أخّاذ. كانت فتاة طويلة القامة، وجهها ينضح حمرة، عيناها سوداوان صارمتان، شفتاها زاهيتان، وصوتها قويّ وشجاع، تغنّي كأنها تسألك، وتتراءى لي في هذا الصوت دمعة حاقدة.

كانت قدمي تتماثل للشّفاء، وأنا عازم على الرحيل، لأني استعدتُ قدرتي على العمل. وذات يوم كنت أزيل الثلج عن الدروب، وإذا بمنشدة الخورس تمشي بهدوء، كأنها متجمّدة، تضمّ يُمناها إلى صدرها وفيها سُبْحة، بينما تتدلّى يسراها مثل حبل؛ تعضّ بأسنانها على شفتها، وتقطّب حاجبيها، شاحبة الوجه. انحنيت تحيّة لها، فشمختْ برأسها عالياً، ونظرت إليّ، كأنني سبّبتُ لها

شراً عظيماً ذات يوم.

استفزّتني بذلك، ولم أكن أحترم تلك الراهبات الشابّات.

قلت لها:

- ما لك، أيّتها الفتاة، يبدو أن حياتك ليست سهلة؟

توقّفتْ، واحمرّ وجهها، وقالت:

- ماذا قلت؟

- هل يصعب عليك أن تتغلّبي على نفسك؟

وإذا بها تردّ عليَّ فجأة، بهدوء وحقد:

- أوو... أيّها الشيطان!

وأسرعتْ بالذهاب، سوداءَ مثل قطعة غيم في يوم عاصف.

لا أستطيع تفسير سبب كلامي لها: ففي تلك الفترة كثيراً ما كان يخطر ببالي مثل هذه الأفكار. إذ ما إن تومض فكرة في ذهني حتّى تنطلق كشرارة لتصيب عين أحد ما. كنت أتخيّل كلّ الناس كذّابين، متصنّعين.

وبعد مدّة، صادَفْتُها مرّة ثانية على درب أخرى، وازداد حقدي عليها، فما لها تتدثّر بالسواد، وممّن تختبئ؟ وعندما صارت بمحاذاتي، قلت لها:

- هل تريدين أن نهرب من هنا؟

نفزتِ الفتاة، ثمّ شمختْ برأسها عالياً، وانتصَبتْ مثل سهم، حتّى ظننت أنها ستصرخ. لكنها سارت بمحاذاتي، وسمعت منها جواباً لم أنتظرْه:

- سأخبركَ في المساء.

تملّكتني الدهشة، وظننت أنني أخطأت السمع، إلا أن

كلامها تردّد كرنين الجرس، بالرغم من صوتها الخافت. ومع أن كلامها أثار ضحكي، فقد ارتبكتُ، غير أنني طمأنْتُ نفسي فيما بعد، ظنّاً مني أن تلك الجريئة تمزح.

عندما جُرِحتْ قدمي، خصّصوا لي غرفة ضيوف صغيرة، تقع تحت السلَّم، فبقيت أعيش فيها.

وفي مساء ذلك اليوم كنت مستلقياً على السرير، أفكّر في أنّ الوقت حان لأُلقي عصا الترحال، وأذهب إلى مدينة ما، وأعمل في فرن. ولم أكُنْ أريد أن أفكّر بالفتاة.

وإذا بأحدهم يطرق طرقاً خفيفاً على الباب. ولمّا نهضت وفتحته، رأيت الراهبة العجوز تتحني لي، وتقول:

- تفضّلْ!

فهمت إلى أين، ولم أسألها عن شيء، بل سرت وأنا أتوعَّد:

" هكذا، إذاً؟ لأزهقَنَّ روحك، يا عزيزتي!"

سلكنا منعرجات، وممرّات، إلى أن وصلنا المكان. ففتحت العجوز الباب، ودفعتني أمامها هامسة:

ـ سأرافقك فيما بعد...

ثمّ ومَضَ عود ثُقاب، وأضاء وجهاً أعرفه، وسمعت صوتاً يقول:

ـ اقفلِ الباب.

فقفلتُه. ثم تلَمّستُ الوِجاق، واتّكأت عليه، قائلاً:

- ألَنْ تشعلي الضوء؟

تضاحكت الفتاة بصوت خافت، وسألتني:

- أيّ ضوء؟

قلت في نفسي:

ـ يا لكِ من تافهة!

ظللتُ صامتاً. أكاد لا أتبينّ الفتاة التي تبدو في الظلام مثل سحابة سوداء في سماء ليلة غائمة. سألتني بصوت متسلّط:

ـ لماذا أنت صامت؟

خطر لي: " يبدو أنها ثريّة "، فقلت:

- تكلّمي أنت!

- هل كنتَ جادّاً، عندما تكلّمتَ عن الهرب؟

فكّرت كيف أجيبها بأشدّ الطُّرق إيلاماً، فتريَّثت، يا لي من نذل، وأجبتها بهدوء:

ـ لا، بل كنت أختبر تقواك...

أشعلتُ عود ثقاب آخر، فأضاء وجهها، ورأيت عينيها السوداوين تنظران إليّ بجرأة.

انتابني شيء من الرهبة، وأمعنت النظر في الظلام، فوجدت الفتاة طويلةً، سوداء، تقف وسط الغرفة، منتصبة القامة على نحو غريب.

همستْ بحرارة:

ـ لا لزوم لاختبار تقواي، فأنتَ لم تُدْعَ إلى هنا لهذا الغرض، وإذا كنتَ لا تفهم ذلك، فاغربْ عن وجهي...

كان همسها فظّاً، لا ينطوي على معابثة، بل فيه شيء جدّيّ. وكان في الجدار أمامي نافذة، مثل ثغرة تُفضي إلى أعماق الليل، تكره أن تنظر إليها. كنت أشعر بالاستياء، وأُحسُّ بأنني أخطأت في أمرٍ ما، فأزدادُ رهبة، حتّى راحت تصطكّ ركبتاي. قالت:

ـ ما من مكان أفرّ إليه، فقد أجبرني عمّي على العيش هنا.

إنني لا أقوى على الحياة في هذا المكان، سأشنق نفسي...

وصمتتْ، كأنها سقطت في هاوية.

ارتبكت تماماً، فيما هي تزداد دنوّاً مني، وتتنفّس بصعوبة.

قلت:

ـ ماذا تريدين، إذاً؟

ها هي تقف إلى جانبي تماماً، ووضعت يدها المرتعشة على كتفي، فانتابتني الرعشة أيضاً، وخارت ركبتاي، واقتحم الظلام حنجرتي، وأخذ يخنقني.

جال في خاطري: " قد تكون ممسوسة؟"

أمَّا هي فراحت تشهق، وتتنفّس بحرارة في وجهي، هامسة:

ـ لقد رُزقتُ بولد، فأخذوه مني، وألقوا بي في هذا المكان. لا يمكنني البقاء هنا. فقد زعم عمِّي وزوجته أن ابني قد مات، إنهما وصيّان عليّ. ربما قتلاه، أو تخليَّا عنه، تصوَّرْ، أيها الرجل الطيب! ما زال أمامي عامان لأبلغ سن الرشد، ثم تسقط عنّي وصايتهما، ولكنني لا أستطيع البقاء هنا!

كانت ترتعد كلّها، من رأسها حتى أخمص قدميها، فأشعر بالذنب تجاهها، وأشفق عليها. غير أنني أخاف منها أيضاً. فهي تشبه مجنونة، وأنا، إزاء ما تقوله، بين مصدّق ومكذّب. كانت تهمس عبر الغصّات:

ـ أريد طفلاً، لأنني ما إن أحبل حتى يطردوني من الدير حالاً! إنني بحاجة إلى طفل. لئن كان الأوّل قد مات، فإنني أريد أن ألد طفلاً آخر، ولن أسمح بأن يسلبوني إياه، بأن ينهبوا روحي! أطلب منكَ حسنة ومساعدة، يا أيّها الإنسان الطيبّ، فلتساعدْني بقوّتك،

أَعِدْ لي ما سُلِبَ مني... صدِّقني، كُرمى للمسيح، فأنا أُمّ، ولستُ ساقطة، لا أريد إثماً، بل ابناً، ولا تسليةً، بل ولادة!

كنت كأنني في حلم. صدّقتُها. ما كان بإمكاني ألاّ أصدّق، مادام أمامي امرأةٌ تدافع عن حقها دفاعاً يجعلها تدعو رجلاً غريباً، وتقول له بصراحة:

- إنهم يمنعونني من ولادة إنسان، فلتساعدْني!

تذكّرت أمّي التي لم أعرفها، فقد تكون قوّة الأنثى نفسها هي التي رَمَتْ بها في أحضان أبي؟ حضنتها وقلت لها:

ـ سامحيني، لقد ظننت بك السوء... سامحيني، كُرمى للعذراء!

ولكنْ عندما نسينا أنفسنا، ومارسنا حقّ الزواج المقدّس، عادت تريكني فكرة ماكرة: "وماذا لو كانت قد خدعتني، ولستُ أوَّلَ من أوقعت به؟"

روت لي قصّة حياتها، فقالت إنها ابنة حدّاد، وعمّها مساعد سائق، رجل سكّير قاسٍ، يعمل في الصيف على متن سفينة، ويظلّ في الشتاء عاطلاً عن العمل، أمّا هي فلا مكان لها تعيش فيه. لقد غرق والداها، عندما شبّ حريق على متن سفينة، فتيتّمت وعمرها ثلاثة عشر عاماً. ولماّ بلغت السابعة عشرة من عمرها ولدت طفلاً من ابن أحد السّادة. كان صوتها الهادئ ينساب في روحي، فيما يدها الدافئة على عنقي، ورأسها على كتفي. وبينما أستمع إليها تلعق قلبي دودةُ الشكّ الحقيرة.

لقد نسينا، أن مَن ولدت المسيح ورافقته إلى الجلجلة طوعاً، كانت امرأة، نسينا أنها أمُّ جميع أبناء الماضي المقدّسين والرائعين.

وفي لجّة طمعنا الحقير أضعنا قيمة المرأة، وجعلنا منها تسلية لنا، وحيواناً أليفاً ينجز الأعمال. ولهذا لم تَعُدِ المرأة تلد مَن ينقذ الحياة، ولا تبذر في الأرض إلا المشوّهين، تُنجِب ضعفنا البشري.

حكت لي عن الدير، فعرفت أنها ليست وحدها من تعيش فيه قسراً.

وفجأة تقول متودِّدة إليّ:

ـ عندي صديقة هنا. إنها فتاة طيّبة، ونقيّة، من عائلة ثريّة. ليتك تعرف كم تعاني! حبّذا لو أنها تَحبَلُ أيضاً، حتّى إذا ما طردوها بسبب ذلك، ذهبتْ إلى عرّابتها.

فكّرتُ: "يا إلهي... ما أشقاهنّ...".

ومرّة أخرى تصدّع إيماني بسعة علم الله، وبعدالة الشرائع، فهل يجوز أن يوضَعَ الإنسان في هذه الحال من أجل نصرة الشريعة؟

كانت كريستينا تهمس في أذني بصوت خافت:

ـ ليتك تفعل معها الشيء نفسه...

قتلتني بكلماتها هذه، فكنت مستعداً لتقبيل قدميها! لأنني أدرك أنه لا يمكن لامرأة أن تقول ما قالت، إلا إذا كانت طاهرة، تقدِّر قيمة الأمومة. اعترفت لها بشكوكي، فدفعتني عنها، وراحت تبكي بصوت خفيض في الظلام، ولم أتجرّأ على مواساتها. قالت تلومني:

ـ أتظنّني لم أخجل عندما دعوتك؟ هل تظنّ أنه يهون عليّ أن أطلب صدقة من رجل وأنا جميلةٌ، وقويّة؟ لقد رأيتك رجلاً صارماً، جدّيّ العينين، قليل الكلام، لا تتحرّش بالراهبات الشابّات، وغزا الشيبُ مفرقيك. كما لا أعرف لماذا تصوّرتك طيبّاً وصالحاً. وحين

قلتَ لي كلمتك الأولى بذلك القدْر من القسوة، بكيتُ وظننت أنني أخطأت. وأخيراً تجرّأت

- ليباركني الله! - ودعوتك.

قلت:

- سامحيني.

قبّلتْني، وقالت:

- سامحك الله!

وفي هذه اللحظة طرقت العجوز الباب هامسة:

- افترِقا، سوف تُقْرَعُ الآن أجراسُ صلاة الفجر.

وفيما كانت تمضي بي عبر الممرّات، قالت:

- ليتك تعطيني روبلاً واحداً!

كدت أضربها.

أمضيت مع كريستينا حوالي خمسة أيام، وكان مستحيلاً أن يستمرّ ذلك مدّة أطول، فقد أخذت مغنّيات الخورس والراهبات يتحرَّشن بي، ثم إنني أردت أن أخلو بنفسي، كي أتأمّل ما حدث. كيف يمكن منع امرأة من إنجاب الأطفال، إذا كانت تلك رغبتَها، وما دام الأطفالُ كانوا وسيظلّون بداية حياة جديدة، وحَمَلة قوى جديدة؟ هناك أمرٌ آخر كان عليّ أن أتفاداه. فقد أرتْني كريستينا صديقتها، وهي فتاة ناحلة، شقراء، زرقاء العينين، تشبه زوجتي أولغا. وجهها نقيّ، وتنظر بحزن عميق إلى كلّ ما حولها. شعرت بميل إليها، واستمرّت كريستينا تلحّ عليّ. كان الأمر مختلفاً في نظري هذه المرّة. ذلك أن كريستينا لم تكن عذراء، بينما يوليا بريئة، ويجب أن يكون زوجها بريئاً مثلها. ما

كان لي ثقة بنفسي، ولم أكن أعرف من أكون، ولم يَحُلْ ذلك بيني وبين كريستينا، ولكنْ كان يمكن أن يحول بيني وبين صديقتها، لا أعرف لماذا، لكنّه كان سيعيقني.

ودّعتُ كريستينا، فبكت قليلاً، وطلبت منّي أن أراسلها، لتخبرني عندما تتأكّد من حملها، وأعطتني عنواناً سرّيّاً. وبعد الفراق بمدّة قصيرة كتبتُ إليها، فردّت عليّ برسالة جيّدة، ثم كتبتُ إليها ثانية، ولكنها لم تُجبْ. وبعد مُضيّ حوالي عام ونصف عام كنت في "زادونييه"، فاستلمت منها رسالة أخّرها البريد مدة طويلة، تخبرني فيها بأنها ولدت طفلاً مرحاً ومُعافى، أسْمته "ماتفي"، وأنها تعيش عند عمَّتها، فيما توفّيَ عمّها بسبب السُّكْر. تقول في الرسالة: "الآن أصبحت سيّدة نفسي، وإذا أتيتَ سأستقبلك بسرور". كنت أتمنّى أن أرى ابني والمرأة التي هي زوجتي بالمصادفة، إلا أنني حينها كنت قد وجدت طريقي الصحيح، فرفضتُ طلبها، بدعوى أنني لا أستطيع، وأنني سأزورها فيما بعد.

بعد ذلك تزوجتْ هي من رجل يتاجر بالكتب واللوحات، وسافرت لتعيش معه في مدينة "ريبنسك".

وجدتُ في كريستينا، ولأوّل مرّة، إنساناً لا يسكن روحَهُ الخوف، ومستعدّاً للدفاع عن نفسه بكلّ ما أوتيَ من قوّة، إلا أنني في حينها لم أُقدِّر هذه السمة حقّ قدرها العظيم.

بعد ما وقع بيني وبين كريستينا، حاولت أن أعمل في المدينة، لكنّ ذلك لم يناسبني، فشعرت بالضيق، والاختناق.لم يعجبني في بسطاء الناس المهَرة عُريُ أرواحهم، وطريقتُهم السافرة في انصياعهم لأرباب العمل. كلّ واحد منهم يتصرّف وكأنه ينادي:

"خذوا جسدي، التهموه، امتصّوا دمي، فما من مكان في هذه الأرض لأذهب إليه!". شعرت بالملل معَهم، إنهم يسكرون، يتشاتمون لا لشيء، ينشدون أغاني مضجرة، ويحترقون في العمل ليلاً ونهاراً، بينما يدفّئ أولياء نعمتهم شحمَهم بجوارهم. كان الفرن ضيّقاً، قذراً، ينام الناس فيه كالكلاب، لا شيء لديهم سوى الفودكا والفسق، تلك هي سعادتهم كلّها. إذا تكلّمتُ عن سوء الأوضاع الحياتية، رأيتُهم ينصتون إليّ، يحزنون، ويوافقونني. وإذا قلت إنه يجب أن نبحث عن الله، تنهدّوا، لكنّ كلماتي لا تؤثّر فيهم تأثيراً قويّاً. وأحياناً لا أعرف لماذا يَشرعون فجأة يسخرون منّي، بل ويسخرون بحقد.

لم أكن أُحبّ المدن. كنت لا أحتمل صخبها الجشع، واتّجارها الرذيل بكلّ شيء. فسكّان المدن الغارقون في مشاغلهم غرباء بالنسبة إليّ. هناك فائض من الحانات، وعدد زائد من الكنائس، وجبال من المنازل، ولكنّ الأماكن تظلّ ضيّقة، فالناس كثيرون، إلا أنهم جميعاً لا يعيشون من أجل أنفسهم، لأن كلاً منهم مرتبط بعمل ما، ويجري طول حياته على دربٍ واحدة، مثل كلب مربوط بسلسلة من حديد.

أسمعُ نبرة الإرهاق في كلّ صوت. وحتّى رنين الأجراس يصدح بلا أمل، فأشعر بكلّ جوارحي أنْ لا شيء كما ينبغي له أن يكون، ليس كما ينبغي!

مراراً كنت أضحك من نفسي، فيَالي من مشرِّع! لكنّه ضحكٌ خالٍ من السرور، ذلك أنني لا أرى إلا خطأً في كلّ شيء، خطأً يعجز عقلي عن إدراكه، ويزداد ثقلاً عليّ، فأهبط نحو القاع.

وفي اللّيالي أتذكّر حياتي الحرّة، وأَكثرُ ما أتذكّره وضوحاً هو نومي أثناء الليالي في الحقول.

ففي الحقول تظهر الأرض كُرويّة، مفهومة، وقريبة من القلب. إذا ما استلقيتَ فوقها يخيّل إليك أنك مستلقٍ على كفٍّ، وأنك صغير، وبسيط مثل طفل، يلفُّك غسق دافئ، وتغطيّك سماءٌ ملأى بالنجوم، وأنت تسبح مع الأرض بمحاذاة النجوم.

يمتلئ الجسد المرهق بما تبثّه الأعشاب، والأزهار من أنفاسٍ قويّة، ويخيّل إليك أنك نائمٌ في مهدٍ، تهزّهُ بهدوء يدٌ خفيّة كي تنام.

تسبح الظلال، فتلامس سيقانَ الأعشاب، وحولك خشخشة وهمسٌ، فيما يخرج سنوّر من وكْرٍ في مكان ما، ويصفر بهدوء. وينهض شيء مظلم في أقصى الأرض، لعلّه فَرَسٌ في الليل، يتوقّف قليلاً، ويذوب في بحر الظلام الدافئ. ثمّ يعود ليظهر ثانية، وبهيئة مختلفة، في مكان آخر...

وهكذا يتحرّك حرّاس نوم الأرض الخرسان طول الليل، يتحرّكون عبر الحقول بلا نأمة، ظلالاً لطيفة في ليالي الصيف. وتشعر أن الحياة بالقرب منك، على امتداد الأرض، تلْبد في غفوة مرهفة، فتحسُّ بالخجل من أن جسمك جعّد بثقله العشبَ.

يطير طير ليلي دونما ضجّة، كأنه قطعة من الأرض نُفِخَتْ فيها الحياة، فانطلقت على جناحَي أمنية تسرع لبلوغها.

أصوات حركة فئران... وأحياناً تتدحرج على يدك مسرعةً كتلةٌ صغيرة، طريّة، وإذا بك ترتعش، ويتعمّق إحساسك بوفرة الكائنات الحيّة، وتنتعش الأرض نفسها تحت قدميك ريّانة،

قريبة، وحميمة.

وعندما تسمعها تتنفّس، تتمنّى أن تعرف الحلم الذي تراه، وما ينضج سرّاً في صميمها من طاقات، وكيف ستنتظر غداً إلى الشمس، وبِمَ ستُفْرِحها هذه الأرضُ الحسناء التي تعشقها الشمس.

كأنك تذوب وأنت تلتصق بصدرها، ويكبر جسدك وهو يتغذّى بحليب أمّك الحبيبة الدافئِ الفوّاح.

فترى نفسك مرتبطاً بالأرض إلى الأبد، وتفكّر بامتنان:

- "حبيبتي!".

ينبثق من الأرض تيّار خفيٌّ من الطاقات الخيّرة، وتسري في الجوّ جداول من الروائح الزكية، فتشبه الأرضُ مبخرةً في السماء، وأنت فيها الجمر والبُخور.

تومض النجوم مسرعة، لتكشف عن كامل جمالها قبل شروق الشمس، فيُسكِرُك، ويداعبك الحُبُّ والنعاس، ويخترق روحك شعاع ساخن من أمل وضّاء: ثمّة إله رائع في مكان ما!

"ابحثوا تجدوا" - قول جميل، وعلينا ألا ننسى هذه الكلمات، لأنها حقّاً تليق بالعقل البشري.

ما إن أطلّ الربيع على المدينة حتى رحلتُ، فقد قررّت أن أزور منطقة سيبريا التي لطالما أثنوا عليها أمامي. وفي الطريق إلى هناك استوقفني رجل ألْهَمَ روحي مدى حياتي، فقد أرشدني إلى الطريق الصحيحة المؤدّية إلى الله.

التقيتُه على الطريق بين مدينة "بيرم" و "فيرخوتوريْه". كنتُ مستلقياً على طرف الغابة، وقد أشعلت ناراً، ورحت أُعِدُّ الشاي. حرارةُ منتصف النهار، هواءٌ مفعَم بروائح دبق الأشجار، كثيفٌ،

لـزجٌ، يجعـل التـنفُّس صـعباً. حتّـى الطيـور كـانـت تـشعر بـالقيظ، فاختبأتْ في عمق الغابة وهي تغرّد، وتبني حياتها بسرور. هـدوء يعـمُّ أطراف الغابة، كـأنّ كـلَّ شـيء سيذوب تحـت أشـعة الـشمس بعـد قليـل، وتـنساب مـن الأشـجار، والحجـارة، وجـسدي المتراخـي سيول كثيفة، ملوّنة، على الأرض.

وفجـأة رأيـت رجـلاً آتيـاً مـن جهـة "بـيرم"، يغنّـي بـصوتٍ قـويّ، مرتجف. رفعت رأسي قليلاً، ورحت أنصت، فإذا بي أرى عابر سبيل يمـشي، ضـئيل الجـسم، يرتـدي ثوبـاً أبـيض، يتـدلّى علـى خـصره إبريق، وعلى ظهره حقيبة من جلد البقر، و إناءٌ نحاسيّ. كان يسير سـيراً حثيثـاً، ويـومئ لـي برأسـه مـن بعيـد، متـضاحكاً. لعلّـه عـابر سبيل عاديّ، فثمّة كثيرون من أمثاله .

إنهم أناسٌ ثقيلو الظلّ، يَعُدُّونَ التجوال حرفةً تُطعِم، وهم جَهَلَة، مهذارون، يكذبون دائمـاً أشـدَّ الكـذب، سـكيّرون، ولا يتورّعـون عن السرقة، إذا ما سَنحت لهم الفرصة. كنت أكرههم مـن أعمـاق روحي.

دنا الرجل منّي، وخلع سترته، وهزّ رأسه، فقفزت ضفيرته قفزة مضحكة، وراح يثرثر مثل زرزور.

ـ السلام عليك، أيّها الإنسان! يا له من حَرّ، إنّه يفوق حرّ جهنّم باثنتين وعشرين درجة!

سألته:

- وهل مضى زمن طويل على عودتك من هناك؟
- مضى ستُّ مائة عام!

كان صوته حيويّاً، مرِحاً، وكان صغيرَ الرأس، عالي الجبين،

تغطّي وجهه تجاعيدُ رقيقة، مثلَ شبكة العنكبوت. لحيتُه نظيفة وَخَطَها الشَّيب، فيما تشعُّ عيناه العسليتان ذهباً، كأنه في ميعة الصِّبا. جال في خاطري: "يا له من محتال ظريف!".

وأردف يتابع كلامه:

ــ يا لمنطقة "الأورال"! يا لجمالها! كم تفنَّن الله في تزيين أرضها، وكم أحسن رعاية تلك الغابات، والأنهار، والجبال!

وبسرعة وتصنُّعٍ أنزل عدَّة السفر التي يحملها. وعندما رأى إبريقي يغلي، سارع بإنزاله عن النار وسألني، كأنه صديق قديم:

ـ هل أضيف شايي، أم نشرب شايك؟

لم يتسنَّ لي أن أُجيب، فقد قرّر:

ـ فلنشرب شايي، لديَّ شاي جيّد، فهو هديّة من زوجة أحد التّجّار، إنّه شاي فاخر!

تضاحكتُ:

ـ يا لك من متصنِّع!

فقال:

ـ لم ترَ شيئاً بعد! لقد أضناني الحرُّ، لكنِ امْهلني لأستريح، وعندها سأمحو تجاعيد وجهك!

تبيّنتُ فيه شيئاً يذكّرني بسافيلكا، فرغبت في أن أمازحه. وما هي إلا خمس دقائق، حتى رحت أستمع إليه فاغر الفم، ذلك أن حديثه لم يكن غريباً عليّ، ولكنْ، في الوقت نفسه، لم يسبق لي أن سمعته. كنت أُنصت إليه، وكأنه ليس هو من يتكلّم، بل قلبي مَن يغنّي أفراح أيّامه البهيجة.

ـ انظرْ... أليس هذا عيداً، أليست جنّةً؟ تشمخ الجبال بكبرياء

نحـو الـشمس، وترتفـع الغابـات إلى قمـم الجبـال. إن نقطـة الغبـار الصغيرة تتطلق بأجنحة من تحت قدميك نحو نـور الـشمس، والـكلّ يُنشد تراتيـل الـسرور، فلمـاذا أنـت، أيّهـا الإنـسان، أنـت يـا سـيّد الأرض، تجلس مكتئباً؟

تـساءلتُ في سـريرتي: "مـا هـذا الطـير الغريـب؟"، وسـألته، مختبراً:

- وإذا ما تملّكتك أفكار حزينة؟

فأشار إلى الأرض:

- ما هذا؟

- إنها الأرض.

- كلا، انظرْ إلى الأعلى!

- أهو العشب؟

- أعلى منه!

- لعلّه ظلّي!

فقال:

- إنـه ظـلّ جـسدك، أمّـا الأفكـار، فهـي ظـلال روحـك! فمِمَّ تخاف؟

- أنا لا أخاف شيئاً.

- كـذّاب! فلـو كنـتَ لا تخـاف، لكـانت أفكـارك يَقِظـة، بهيجة. إن الحزن يولدُ من الخوف، أمّا الخـوف فمـن ضـعف الإيمـان. هـكذا!

ملأ الكأسين شاياً، ومضى يقول بلا توقّف:

- يخيَّل إليّ أنني رأيتك من قبل؟ هل زرتَ "فالام"؟

- زرتها.

- متى؟ لا، ليس هناك. خُيّلَ إليّ أنني رأيتك فيها من قبل، أيّها الأمغر، إنّ وجهك مميّز. نعم! لقد رأيتك في "سولوفكي"!

- لكنني لم أزرْ "سولوفكي".

- لم تزرْها؟ خسارة! فيها ديرٌ عريق، وعظيمُ الجمال. زُرْه!

- إذاً، أنت لم تلتَقِني من قبل!

قلتها، وأنا أشعر بالأسف على ذلك، لا أعرف لماذا.

فصاح:

ـ وما قيمة ذلك! لم ألتقِكَ من قبل، وهاقد التقيتُك الآن! لعلّ شخصاً كان يشبهك. لكنْ سيّان.

فضحكت:

- كيف، سيّان؟

- ولِمَ لا؟

- لكنْ هذا أنا، والآخر هو الآخر.

- وهل أنت خير منه؟

- لا أعرف.

- وأنا أيضاً لا أعرف!

أنظرُ إليه ويتملّكني نفاد صبر، أريده أن يتكلّم. وإذا به يستعيد ذكرياته مسرعاً، وهو يرشف الشاي:

- صحيح، كان ذاك أعور، وهذا ما كان يحرجه كثيراً. لعلّ كلّ أولئك العوران والعرجان أنانيون، غيرُ طبيعيين قلباً وقالَباً! كمن يقول لي: إنني أعور، أو أعرج، مثلاً، ولكنْ عليكم، أيها الناس، ألا تلْتفتوا إلى ذلك! كان ذلك الرجل من هذا النوع، إذ قال

لي: "الناس كلُّهم أوغاد، يرون أنّ لديّ عيناً واحدة، فيقولون لي، أنت أعور. لهذا فإنهم أنذال!". أقول له: "أنت بالذات، يا عزيزي، نَذْلٌ، وحقير، فلتختَرْ ما يحلو لك منهما، إن لم تكن أحمق! ليتك تفهم أنه ليس مهمّاً كيف ينظر إليك الناس، بل المهمّ كيف تراهم أنت. فما نحن، يا صديقي، بعميان، ولا عوران، إلا لأننا نظلّ نتأمّل الناس، ونبحث عمَّا هو مظلم فيهم، نبحث في ظلام غيرنا، ونطفئ نورنا. لِمَ لا تنير بضوئك ظلام الآخرين كي يطيب لك النظر إلى كلّ شيء. إنّ الإنسان لا يرى الخير إلاّ في نفسه، ولهذا يبدو له العالم كلُّه صحراء مأساويّة".

أُنصت إليه مثلما ينصت تائه في الغابة ليلاً إلى قرع النواقيس، وأخاف أن أُخطئ، فيكون ذلك بوماً ينعق؟ أُدركُ أنه رأى الكثير، وروّضَ في نفسه الكثير، ولكنْ يبدو لي أنه يُنكِرني، وأنه يسخر مني بطريقة غامضة، وتضحك عيناه الفتيتان... فبعد أن التقيت أنطوني صار يصعب عليّ تصديقُ ابتسامة إنسان.

سألته عمَّن يكون، فقال:

اسمي "يهوذييل"، مهرِّج مرِحٌ في نظر الناس، وصديق لنفسي، طيِّب في نظري!

- هل أنت من رجال الدين؟

- كنت خوريّاً مدة قصيرة، ثمّ حرموني، وجسوني في دير "سوزدال" ستَّ سنوات! تسألني لماذا؟ لقد كنت أعظ الناس في الكنيسة، فأساؤوا فهمي بسبب بساطتهم. فكان أن عاقبوهم بالجَلْد، أمّا أنا فحاكموني، وهكذا انتهت القصّة. وبِمَ كنتُ أعظهم؟ لم أعد أذكر. لقد مضى على ذلك زمن طويل، ثماني

عشرة سنة يمكن أن ينسى المرء خلالها ما حدث. لقد عشت بأفكار مختلفة، ولكنها جميعاً لم تكن في مكانها.

يضحك، فيتألّق الضحك في كل تجعيدة من تجاعيد وجهه، وينظر حوله كأنه هو من خلق جميع الجبال والغابات.

عندما تراجع الحَرّ، تابعنا سيرنا معاً، فسألني في الطريق:

- وأنت من تكون؟

ومرّة أخرى طاب لي، مثلما فعلت أمام أنطوني يوماً، أن أستعرض أمام عينيّ كلّ أيامي السابقة، وأن أنظر كَرَّة ثانية إلى وجوهها الزاهية. حكيتُ له عن طفولتي، وعن لاريون وسافيلكا، فيما العجوز يقهقه، ويصيح:

- آه، أيها الناس الطيبّون! أهكذا، يا مهرجيّ الله؟ إنهم، يا عزيزي، أصيلون، إنهم أزهار أرض روسيا! آه، يا عشّاق الله!

لا أفهم هذا الثناء، وأستغرب فرحه، أمّا هو فلا يستطيع المشي من شدّة الضحك، يتوقّف، ويلقي رأسه إلى الخلف، وصوته يرنّ، ويصيح نحو السماء مباشرة، كأن له هناك صديقاً طيباً، يشاطره فرحه.

قلت له بلطف:

- إنك تشبه سافيلكا إلى حدّ ما.

يصيح:

- أُشبهُه؟ هذا جيّد للغاية، يا أخي، إذا كنت أشبهه! آه، يا عزيزي، لو لم تقضِ الكنيسة الأرثذوكسية على الناس الحيويين أمثالنا منذ زمن بعيد، لرأيتَ في أرض روسيا غيرَ ما تراه الآن!

أشعر أن كلامه غامض.

أحكي له عن تيتوف، فيسخر منه، كأنه يرى حمي أمامه.

- لقد رأيت أمثاله كثيرين! يا له من بقّة طمّاعة، غبية وجبانة...

وعندما استمع إلى قصتي عن أنطوني، أطرق قليلاً، ثم قال:

- هكذا! هذا توما *. ما كلّ توما كبير العقل، أحياناً يكون توما هو الغباء بذاته!

وراح يطوّح بيديه، يطرد دبّوراً، ويقول له:

- اذهبْ، اغربْ عن وجهي! يا له من أخرق، يكاد يدخل في عيني... انصرفْ!

أتلقّف كلماته بانتباه، لا أُفلِتُ منها شيئاً، أظنّ أنها كلّها بنات فكرة كبيرة واحدة. أتكلّم كأنني في اعتراف؛ لكنني أتعثّر أحياناً إذا ذكرت الله، وأشعر بشيء من الخوف، وبشيء من الأسف. لقد بهَتَتْ صورة الله في روحي خلال هذه المدة، أريد أن أنظّفها من سُخام الأيام، لكني أرى أنني أمحو هذه الصورة تماماً، فيختلج قلبي رعباً.

غير أن العجوز يشجّعني بإيماءة من رأسه:

- لا بأس عليك، لا تَخَفْ! إذا سكتَّ كذبت على نفسك، لا عليّ. تكلّم، تكلّم! لا تشفق على ما هو ملكك، اكسرْه لتصنع غيره!

كان يردّ على كلّ أحاديثي برهافة كالصدى، فأزدادُ شعوراً

---

* توما شخصية روسية تشبه شخصية جحا عندنا. ويقابل هذا المثلَ قولُنا: "ما كلُّ ما يلمع ذهباً". ـ م

بالراحة إلى جانبه.

خيّم علينا الليل.

قال:

ـ توقّفْ! ولنَبْحثْ عن مكان نستريح فيه.

وجدنا مأوى لنا، تحت صخرة كبيرة انفصلت عن الجبل الأمّ، عليها شجيرات تدلّت أغصانها مثل ستارة مظلمة، فاستلقينا في فيئها الدافئ، وأشعلنا ناراً، ورحنا نُعِدُّ الشاي.

سألته:

– ماذا ستقول لي، يا أبَتِ؟

فابتسم.

– سأقول لك كلّ ما أعرف! لكنْ، لا تبحث عن التأكيد في كلامي. فأنا لا أريد أن أعلّمك، بل أريد أن أحكي لك. إذ يؤكّد مَنْ يجد سَيْر الحياة خطيراً، وحجمَ الحقيقة ضارّاً. هؤلاء يرون أن شعلة الحقيقة تزداد سطوعاً، ولذلك يزداد عدد من يشعل سراجها في قلوبهم، يرون ذلك ويخافون! وسرعان ما يقبضون على مقدار ما يناسبهم من الحقيقة، يجعلون منه كُرةً صغيرة، يُطبِقون عليها اليد بشِدّة، ويصيحون على الملأ: هذه هي الحقيقة، الغذاء الروحي النقيّ، وهكذا هي! هكذا ستبقى إلى أبد الآبدين! ويجلس الملعونون على وجه الحقيقة، يخنقونها قابضين على عنقها، ويعيقون نموّ قوتّها بشتى الوسائل، إنهم أعداؤنا وأعداء كل المخلوقات! أمّا أنا فأستطيع أن أقول شيئاً واحداً: هذا هو الواقع اليوم، ولكنني لا أعرف كيف سيكون غداً! لأنه، كما ترى، ليس في الحياة سيِّدٌ شرعيّ حقيقيّ، فهو لم يأتِ بعد، ولا أعرف

كيف سيتصرَّف حين يأتي، ما الخطط التي سيُقرُّها، وما التي سيهدمها، وأيَّ كنائس سيشيد؟ لقد قال القدِّيس بولص ذات مرّة: "كلّ شيء يسير نحو الأحسن". كثيرون اقتنعوا بهذه الكلمات، وآلَ جميعهم إلى الضعف، لأنهم توقّفوا في مكانهم! لماذا هذه الصخرة عاجزة؟ لأنها جامدة لا تتحرَّك، يا أخي! ولا يجوز أن تقول للإنسان: توقّفْ هنا! بل: انطلقْ من هنا قُدُماً!

كانت أوّل مرة أسمع فيها حديثاً كهذا، فوجدته غريباً، إنه يحمل الإنسان على إنكار نفسه، بينما أنا أبحث عن يقين. فأقول:

- ومَن هذا السيّد إذاً، أهو الله؟

ابتسم العجوز قائلاً:

- كلا، إنه أقرب إلينا! لا أريد أن أسمِّيه، خيرٌ لك أن تخمِّنه بنفسك! فإن أوّل وأكثر من آمنوا بالمسيح هم من عرفوه بقلوبهم قبل أن يلتقوه، وبفضل قوّة إيمانهم ارتقى إلى عرش الألوهية.

كأنه يبقيني أمام الباب، دون أن يفتحه ليريني ما يُخفي خلفه، وتزداد لهفتي، وينتابني شيء من الاكتئاب. تبدو لي كلمات العجوز غامضة، ورغم أن شراراتٍ رهيبةً تومض فيها أحياناً، فإنها تبهرني دون أن تنير ظلامَ روحي. تخيِّم علينا ليلة مقمرة، وتحيط بنا ظلال سوداء، والغابة فوقنا تصعد إلى الجبل بصمت، وتتألّق النجوم بين الأغصان فوق قمم الجبال مثل طيور من نار. يترقرق جدول على مقرُبة منّا، وينعق بوم في الغابة بين الحين والحين، وفوق كلِّ شيء في هذا الليل ترنّ كلمات العجوز. إنه عجوز رائع! ها هو يزيلُ عن وجهه حشرةً، يضعها على كفّهِ، ويسألها:

- إلى أين يا مدلّلة؟ آ؟ اهرعي إلى العشب، أيتها المخلوقة!

يعجبني هذا، فأنا أيضاً شديد الحب لمختلف الحشرات، وحياتُها الخفية، بين الأعشاب والزهور، تثير اهتمامي دائماً.

أطرح على العجوز أسئلة مختلفة، أريده أن يتكلّم بمزيد من البساطة والإيجاز، لكنني الاحظ أنه يتجاوز تساؤلاتي، كأنه يقفز فوقها. يروقني هذا الوجه الحيّ، يُداعبه وهج النار الأحمرُ بلطف، فيرتعش كلُّه بسرورٍ رغيد، أشتهيه. أحسد هذا الإنسان، فقد عاش ما يزيد على ضعف ما عشته، لكنَّ روحه صافية، على ما أظنّ.

قلت له:

- قال لي أحدهم إن الإيمان كذبة، فماذا تقول أنت؟

أجابني:

ـ أقول إن ذلك الإنسان لم يكن يعرف ماذا يقول، إذ إن الإيمان شعور عظيم وخلاّق! إنه وليد فرط قوّة الحياة في الإنسان. عظيمة هذه القوّة، ودائماً تثير العقل البشريّ الفتيّ، تحثّه على الفعل. لكنّ الإنسان مقيَّد، ومحدود في أفعاله، تواجهه شتّى ضروب المعوّقات من الخارج، يُطلَب إليه أن يُنتج الخبز، والحديدَ على الدوام، عوضاً عن استخراج الكنوز الحيّة من أعماق روحه. فهولم يألفْ بعدُ، بل لم يتعلّم بعدُ استخدام قواه، يخاف من تمرّد روحه، فيختلق الغيلان، ويخشى ظلال روحه المتخبّطةِ، لأنه لا يدرك حقيقتها. أقول إنه يصلّي لصور إيمانه، لظلّه.

لا أقول إنني فهمت مرماه في تلك اللحظة، غير أنني غضبت بشدّة، وفكّرت:

"والآن لن أدعك تتحرّك من هذا المكان قبل أن تجيبني على

السؤال الأساسي!"

سألته بحزم:

- ولماذا تتحاشى الحديث عن الله؟

رفع حاجبيه، وراح ينظر إليّ، ثم قال:

- ولكنني، يا عزيزي، لا أنفكّ أتكلّم عنه طول الوقت! ألا تشعر بذلك؟

ونهض على ركبتيه، ينيره ضوء لهيب النار، ثمّ مدّ يده إليّ، وقال بصوت خفيض، ومؤثّر:

- مَن هو الله الذي يصنع المعجزات؟ أهو أبونا، أَمْ ابن روحنا؟

أذكر أنني ارتعدتُ، والتفتُّ، فقد تملّكني الرعب، إذ رأيت في العجوز شيئاً من الجنون. تستلقي حولي تلك الظلال السوداء منصتةً، يَزحف حفيف الغابة نحوي من كلّ حَدْبٍ وصَوب ليطغى على طقطقة الفحم الخافتة، وخريرِ الجدول الهادئ. ساورتني رغبة بأن أركع أيضاً، أمّا هو فراح يقول بصوت مرتفع، كمن يجادل:

- ليس عجزُ البشر هو مَنْ خلق الله، بل فائضُ قوّتهم، والله لا يعيش خارجنا، يا أخي، بل في داخلنا! غير أنهم استلّوه من داخلنا خوفاً من تساؤلات الروح، ونَصَّبوهُ فوقنا بغية تخفيف كبريائنا وحريتنا التي لا تتّفق والممنوعات. أقول: لقد حوّلوا القوّة إلى ضعف، وأوقفوا نموّها عُنْوَةً! ثمّة تسرُّعٌ في صنع نماذج الكمال؛ إن في ذلك ضرراً لنا، وبلاءً. إلاّ أن الناس ينقسمون إلى قبيلتين: تتكوَّن إحداهما من صانعي الإله الأبديين، والثانية من عبيد أزليين، مأخوذين أبداً بالسعي لفرض سلطتهم على القبيلة الأولى، وعلى الأرض قاطبة. لقد استولوا على هذه السلطة، وراحوا يؤكّدون أنّ

الله موجود خارج الإنسان، الله المعادي للناس، القاضي، والسيِّد في الأرض. إنهم شوّهوا وجه روح المسيح، وأنكروا وصاياه، لأن المسيح الحيَّ ضدّهم، ضدّ سيطرة الإنسان على القريب!

يتكلّم العجوز كمن يخلخل ضرساً مريضاً في روحي، يحاول قلعه، فأتألّم، وأريد أن أصرخ:

- "ليس هذا ما أبغيه!"

أما هو فبهيجُ الوجه، ثملٌ، ومشحون بالفرح، أرى جنون كلامه، ولكنّني أتأمّل العجوز بإعجاب عبر ما في روحي من ألم وحزن، وأُنصِت إلى حديثه بشغف.

ـ إلاّ أن صانعي الله أحياء خالدون، إنهم عادوا الآن بجدٍّ وسرّيّةلخلق إله جديد، هو الإله ذاته الذي تفكّر فيه، إلهُ الجمال، والعقل، والعدالة، والحب!

يَصعقني بحديثه، يُنهِضني على قدميّ، كأنه يضع سلاحاً في يدي، ويتململ حولي ظلٌّ خفيف يلامس وجهي بجناحيه، فينتابني الرعب، وأشعر بالأرض تميد تحت قدمَيّ، فأفكّر:

" وماذا لو كان الشيطان هو حقّاً من يُغوي الناس بأحاديثه الساخرة، وما هذه إلا أحابيله الماكرة، ليوقعني في شِباك إثمٍ عظيم؟"

قلت له:

- اسمع، من هم صانعو الله؟ من هو السيِّد الذي تنتظر؟

ضحك بلطف، مثل امرأة، وأجاب:

ـ صانع الله هو الشعب المسكين! الشعب المسالم الذي لا يُحصى عدداً! هو الشهيد الأعظم، أعظم من جميع مَن مجّدتهمُ

الكنيسة، هذا هو الله الذي يصنع المعجزات! الشعب الخالد، إنني مؤمن بروحه، وأثق بقوّته. هو منبع الحياة الوحيد الذي لا ريب فيه، أَبُ الآلهة كلّها، ما مضى منها، وما هو آت!

جال في خاطري: "عجوز مجنون".

حتى ذلك الحين كنت أظن أنني أتسلّق جبلاً، وإنْ بخطى بطيئة، وقد لامَسَتْ كلماتُه روحي، أكثر من مرّة، بإصبع من نار، فشعرت بالحروق، والوخزات الكاوية الشافية، وإذا بقلبي الآن يغدو ثقيلاً فجأة، وأتوقّف في الطريق ذاهلاً ذهولاً مريراً. تتّقد في قلبي نيران مختلفة، تارة يساورني حزن، وتارة فرحٌ غامض. أخاف الخدعة، وأشعر بالارتباك. سألته:

ـ أحقّاً أنت تتكلّم عن الفلاحين؟

فيجيب باعتزاز، وبصوت مرتفع:

ـ نعم، أقصد كلّ شعب الأرض الكادح، وكلّ قوّته التي هي المنبع الأبدي لخلق الله! ها هي إرادة الشعب تستفيَق، ليتّحد الشيء العظيم، المشتّت قسراً، ويبحث الكثيرون اليوم عن طريقة لصبّ كلّ قوى الأرض في قوّة واحدة، فيتكوّن منها إله الأرض النيّرُ، الرائع الذي يحيط بكلّ شيء علماً!

كان يتكلّم بصوت مرتفع، وكأنّني لست وحيداً، بل كأنّه يتوجّب على الجبال، والغابات، وعلى كلّ شيء حيّ، مستيقظٍ في هذا الليل، أن يسمعه. كان يتكلّم، ويرتعش مثل طير يتأهّب للطيران، فيُخيَّل إليّ أنه حُلُمٌ، حُلُمٌ يُذلّني.

أستدعي في ذاكرتي صورة إلهي، وأنظّم أمام وجهه صفوفاً داكنة من الناس المتردّدين، المرتبكين: أيصنع هؤلاء اللهَ؟ أتذكّر

أحقـادَهم التافهـة، طمعَهـم الجبـان، عيونَهم الباهتـة مـن المآسـي، وأجسـامَهم المحنيّـة تحـت وطـأة الـذّل والـشقاء، كَلَلَهـم الروحـيَّ، وخَرَس أفكارهم، وشتّى ضروب التطيُّرات: أهذه الحشرات قادرة على صنع إله جديد؟ وينشأ في قلبي غضبٌ، وضحكٌ مرير، وأُدرك أن هذا العجوز سَلَبَ منّي شيئاً. قلت له:

ـ يا أبتِ، لقد أطلقتَ الضلال في روحي، مثلَ عنزة في مزرعة، هذا جوهر أحاديثك كلّها! لكنْ، أيُعقل أن تتجرّأ على قول هذا الكلام لجميع الناس؟ أعتقد أنّ ذلك إثم عظيم، وما من شفقة في قلبك على بني البشر! لعلّهم يبحثون عن المواساة، وليس عن الشكّ، فيما تزرع أنت الشكّ!

فيبتسم:

ـ ستسلك طريقي!

تجرحني هذه الابتسامة. فأقول:

ـ كذّاب! فأنا لن أرفع الإنسان إلى مصافّ الله أبداً!

يقول:

ـ لا داعي لذلك، لا ترفعْه، وإلاّ نصَّبتَ سيّداً على نفسك! فأنا لا أتكلّم عن الإنسان، بل عن قوّة روح العالم كلّه، عن الشعب!

ثار غضبي، وشعرت بالاشمئزاز من صانع آلهة يرتدي حذاءً من القشّ، يأكله القمل، سكرانُ أبداً، وقد نال قسطه من الضرب والجلْد.

قلت له:

ـ صَهْ! لستَ إلا كافراً ومجنوناً! فما هو الشعب؟ إنه قذر الجسد والأفكار، يفتقر إلى العقل والخبز، ويبيع روحه بقرش...

وإذا بشيء عجيب يقع؛ فقد هبَّ العجوز ناهضاً على قدميه، وصاح:

- هس!

ثم راح يلوّح بيديه، ويضرب الأرض بقدميه، يكاد يرفس وجهي. حين كان يشبه نبياً، كان يقف بعيداً عنّي، وما إن تَبَيَّنْتُ المضحك فيه حتّى عاد إنساناً، وأصبح قريباً منّي. ومضى يصيح:

-- هس، يا فأر العنابر! حقّاً، إن دمَ الأسياد العفِنَ يجري في عروقك. يا لك من لقيطٍ خسيس! أتدري عمّن تتكلّم؟ هذا حالكم جميعاً، أيُّها المتعجرفون، المتطفّلون، يا مَن تنهبون الأرض، إنكم لا تعرفون مَن تنبحون، أيُّها الكلاب الجربانون! لقد أَكَلْتمُ الناس، ونهبتموهم، ثمّ اعْتليتم ظهورهم، ورحتم تشتمونهم، لأنهم مبطئون!

وراح يتقافز فوقي، ويقع ظلّه عليّ، يلامس وجهي ببرود، فأتراجع مستغرباً، أخاف أن يضربني. إنني أطول منه بمرّتين، وقوّتي تعادل قوّة عشرة من أمثاله، لكنني لا أقوى على جعله يتوقّف. كأنه نسي أن الليل يحيط بنا، وما من أحد حولنا، وأنني إن ضربته سيبقى راقداً مكانه حتى يموت. وتستعيد ذاكرتي كيف شتمني يوماً رئيسُ كهنة فتيٌّ، مذعورٌ، وميخائيلَ المتوحِّش، وغيرَهما من أتباع المذهب القديم. وها هو العجوز الآن يشتمني أيضاً، لكنّ لهيب غضبه شيء آخر. كان من سبقوه أقوى منّي، لكنني ما كنت أسمع في كلامهم الخوف، أما هذا فضعيف، إلاّ أنه لا يهاب شيئاً، ويصيح في وجهي كأنني طفل، وغضبُه كغضب الأمّ، لطيفٌ لطفاً غريباً، مثل رعدٍ في مستهلّ الربيع. تُربكني شجاعة العجوز الغامضة، ويُحرجني أنني أغضبته كلّ هذا

الغضب، وإن كان غضبه مضحكاً. لقد جرحني بشتيمته، فلم يكن يروقني أن ينعتني أحد باللقيط. غير أنني أستطيبُ غضبه. ذلك أننيَ أفهم أن من يغضب هو من يؤمن إيماناً صادقاً بعقيدته. وهذا الغضب ينزلُ على النَّفْسِ برداً وسلاماً، لأن فيه كثيراً من الحب، والغذاء الحلو للقلب.

أتَمَلْمل تحت قدميه، فيما هو يصيح من فوق:

- ماذا تعرف عن الشعب؟ إنك أحمقُ، أعمى، أتعرف التاريخ؟ اقرأْ هذه السيرة، فهي أرفع من كلّ ما سواها! إنها سيرة أبينا القدّيس، الشعبِ الشهيد! حينها قد يحالفك الحظّ، وتُدرك من يقف أمامك، وما هي القوى التي تتعاظم حولك، أيُّها الشحاّذ على أرض الغرباء! أتعرف ما هي روسيا؟وما هي اليونان، بلاد الهيلين، وما روما أيضاً؟ أتعرف بإرادة وعزيمة مَن شُيِّدتْ تلك الدول جميعها؟ وعلى عظام مَنْ تقوم الكنائس؟ وبلسان مَن يتكلّم كلّ الحكماء؟ إنّ كلّ ما هو موجود على وجه الأرض، وفي ذاكرتك، هو من صنيع الشعب، ولم يَقُم هؤلاء السادة إلا بصقل ذاك الصنيع.

ظللتُ مطرقاً، يطيب لي أن أرى رجلاً لا يخشى الدفاع عمّا يؤمن به.

أمّا هو فجلس يلهث، ويتصبّب عرقاً، وقد تضرّج حمرة. أرى الدموع في عينيه. لقد صعقني هذا المنظر، لأنني حين كنت أقسو على معلميَّ السابقين، ما كانوا يُظهِرون لي دموعهم. راح يصيح:

- انصتْ، يا شحّاذ، لأحكي لك عن الشعب الروسي!

قلت: خيرٌ لك أن تستريح.

- اسكتْ! – قال لي وهو يلوّح بيده مهدداً. ـ اسكتْ، وإلاّ ضربتُك!

لم أتمالك نفسي، وأخذت أقهقه ضاحكاً.

- أيُّها الجدّ العزيز! يا لك من أعجوبة لا توصف! سامحْني، كُرمى للمسيح، إذا ما كنت قد أزعجتك!

- أيّها الغبيّ، وكيف لك أن تزعجني؟ لكنَّك، يا شقيّ، أسأت بالكلام إلى شعب عظيم... يحقُّ للأسْياد أن يشتموا الشعب إرضاءً لضمائرهم، فهم غرباء على هذه الأرض، أمّا أنت فمن تكون؟ كان يطيب لي النظرُ إليه في تلك اللحظة، فقد بدا معتزّاً بنفسه، بل وصار صارماً، وازداد صوته خشونه وعمقاً، وراح يتكلّم بانسياب وتنغيم، كأنه رسول يرتّل، رافعاً وجهه نحو السماء، مكوِّراً عينيه. بدا أطول قامةً، رغم أنه كان راكعاً. وشرعت أُنصت إلى حديثه بابتسامة وريبة، لكنني سرعان ما تذكّرت كتاب أنطوني – تاريخ روسيا ـ وكأنَّ صفحاته عادت لتنفتح أمامي من جديد. وفيما هو يغنّي لي حكايته الرائعة، رحت أتابعها بخيالي في صفحات الكتاب، فأجد كلَّ شيء صحيحاً، لكنّ المعنى يختلف.

وعندما وصل إلى انهيار دولة كييف الروسية، سألني:

ـ هل سمعت؟

قلت:

ـ شكراً.

ـ فلتعرف الآن أنه لم يكن لهؤلاء العمالقة من وجود، بل كان الشعب يجسِّد بطولاته فيهم، وبهذه الطريقة يحفظ ما بذله من جهد

عظيم في بناء بلاد الروس.

وأردفَ يتكلّم عن منطقة سوزْدَل.

ـ أذكر كيف راحت الشمس تبزغ من مكان ما، وراء الجبل، بينما يختبئ الليل في الغابات، لتستيقظ الطيور، فتحوم الغيوم فوقنا أسراباً ورديَّة، ونحن نلتصق بالصخرة، نفترش العشب النديَّ، أحدنا يستعيد الزمان القديم، والآخر يتعجّب وهو يَعُدُّ إنجازات البشر التي لا تحصى، ولا يصدِّق حكاية الاستيلاء على أرض الأعداء المليئة بالغابات.

كان يخيَّل إليَّ أن العجوز رأى بأمّ عينه ما يحكيه؛ وكيف تدقُّ الفؤوس في أيدٍ قويّة، وكيف يجفِّف الناس المستنقعات، ويشيِّدون المدن والأديرة، ويمضون قُدُماً مع تيارات الأنهار الباردة إلى أعماق الغابات الكثيفة، يتغلَّبون على البراري لتصبح أرضاً أفضل حالاً. أما الأمراء، أسياد الشعب، فيقطِّعون هذه الأرض، ويفتتّونها إلى أجزاء صغيرة، ويقاتل بعضُهم بعضاً بقبضات الشعب، وينهبونه. وإذا بالتتّر يأتون من السهوب، ولم يكن بين الأمراء الروس مَن يقاتل من أجل حريّة الشعب، ولا مَن يتحلّى منهم بالشرف، أو القوّة، أو العقل، بل سلَّموا الشعب لجيوش التتّر، وتاجروا به مع الخانات كمن يتاجر بالبهائم، فاشتروا بدم شعبهم إمارتهم عليه. وبعد ذلك، ما إن تعلّموا أن يكونوا ملوكاً مثل التتّر، حتّى راح بعضُهم يبيع بعضاً ليذبحَهمُ الخانات.

كان الليل حولنا لطيفاً، كأنه أختُنا الكبرى العاقلة. وشرع صوت العجوز يتقطَّع تعباً. وأدركتْه الشمس وهو لا يزال يجول في سوالف الماضي، ينير أمامي الحقيقة بكلماته الملتهبة.

سألني:

- هل ترى ماذا صنع الشعب، وكيف كانوا يتشفّون منه، إلى أن أتيتَ لتشتمه بكلماتك الحمقاء؟ أكثرُ ما رَوَيْتُه لك كان عمّا فعله الشعب مُكْرَهاً، ولكنني، بعد أن أنال قسطاً من الراحة، سأحكي لك عمّا كانت تحيا به روحه، وكيف كان يبحث عن الله!

ثمّ تكوّر، وغفا مثل طفل صغير.

أما أنا فجافاني النوم، وظللت جالساً كأنني على جمر. كان الصباح قد حلّ، فقد أشرقت الشمس عالياً، وتعالى تغريد العصافير متنوّعَ الألحان، واغتسلت الغابة بالندى، وراحت تضجّ شفّافةَ الخضرة، تستقبل النهار.

بدأ الناس يمشون على الطريق، أناس عاديّون إلى أبعد حدّ، يسيرون خافضين رؤوسهم، لا أرى فيهم جديداً، ولم يزدد قدْرُهم في نظري بأيّ حال من الأحوال.

معلّمي نائم، يشخر، فيما تجمَّدتُ إلى جانبه غارقاً في أفكاري، والناس يمرّون واحداً تلو الآخر، يرمقوننا شَزَراً، لا يجيبون بإيماءة رأس ردّاً على التحيّة.

ويخطر ببالي:

- "أحقّاً أنّ هؤلاء هم أولاد أولئك الأتقياء، الذين عمّروا الأرض، وسمعتُ عنهم ما سمعت للتّو؟"

اختلط النوم باليقظة في رأسي المتعب، وأدركت أن هذا اللقاء سيكون بالنسبة لي تحوّلاً حاسماً. تقلقني كلمات العجوز عن الله، ابنِ روح الشعب، لا أستطيع أن أسلّم بها، ولا أعرف روحاً أخرى

غير التي تسكن فيّ. وأفتّش في ذاكرتي عن كلٍّ من عرفتهم، أبحث فيهم متذكّراً كلماتهم التي تتضمّن كثيراً من الأمثال، وقليلاً من الأفكار. ومن جهة أخرى، أرى حياة مظلمة من الأعمال الشاقّة شقاءً لا ينتهي من أجل لقمة العيش، شتاءاتٍ من الجوع، أيّاماً فارغة إلا من الأسى المطبق، وأنواعاً شتّى من إذلال الإنسان وإهانة روحه.

"أين إلهُ هذه الحياة، أين مكانُه فيها؟"

كان العجوز نائماً، تراودني رغبة في أن أَخضَّه، وأصرخ:

"تكلَّمْ!"

بعد قليل استيقظَ من تلقاء نفسه، وراح يزمّ عينيه، ويبتسم قائلاً:

- ها هي الشمس تقترب من الظهيرة! آن لي أن أرحل!

- إلى أين في هذا الحَرّ؟ لدينا خبز وشاي وسُكّر. بل ولا يمكنني أن أدعَك ترحل قبل أن تعطيني ما وعدتني به!

يضحك:

- أنا نفسي لن أتركك، أيّها الشرِّير!

ثم قال ساهماً:

- كُفَّ عن التسكّع، يا ماتفي، فقد فات أوانُه، وفي الوقت نفسه لم يأتِ أوانُه بعدُ، بالنسبة إليك. يجب عليك الآن أن تتعلّم، هذا هو الوقت المناسب!

- ألم أتأخَّرْ على ذلك؟

ـ انظرْ إليّ، عمري الآن ثلاثة وخمسون عاماً، ولا أزال أتعلّم القراءة والكتابة من الأولاد!

- أيّ أولاد؟

- موجودون! ليتك تعيش معهم عاماً، أو أكثر. اذهب إلى أحد المصانع القريبة، إنه على بعد حوالي مائة فرسخ من هنا، ولي هناك أصدقاء طيبّون!

قلت له:

- في البداية، عليك أن تقول لي ما كنتَ تريد قوله، وبعد ذلك أفكّر إلى أين أذهب.

سرنا معاً على درب محاذية للطريق، وعدت أسمع ثانية صوته الرنّان، وكلماته الغريبة:

- المسيح أوّلُ إله شعبيّ بحقّ، لقد وُلد من روح الشعب، مثلما ينبعث طائر الفينيق من النار.

وما لبث أن اشتعل العجوز حماسة، وراح يلوِّح بيده الصغيرة أمام وجهه، كمن يتلقّف كلماتٍ جديدةً من الهواء، ويغنّي:

- لطالما ظلَّ الشعب يرفع على أكتافه أشخاصاً معيَّنين، بل يَهِبهُم شقاءه، وحريَّتَه دون حساب، ويعلو بهم فوق نفسه مُنتظِراً بخنوع أن يروا من أعالي الأرض سبل العدالة. لكنَّ مَنِ اختارهمُ الشعب ما إن بلغوا ما استطاعوا من قمم، حتّى سكروا وأفسدهم ما هم عليه من سلطان، فظلّوا على القمم، ناسين مَن أوصلهم إليها، وتحوّلوا إلى عبءٍ ثقيل على كاهل الأرض، وليس إلى خلاص سعيد لها. ولمّا رأى الشعب الأولادَ الذين أرضعهم من دمه وقد صاروا أعداء له، فَقَد إيمانه بهم، وكفَّ عن تغذيتهم بحرّيّته، وتركهم وحيدين، يتساقطون، فتتحطّم عَظَمَتُهم وقوّة ممالكهم.

لقد أدرك الشعب أن شريعة الحياة لا تكمن في أن يرتقي بأحد أفراده عالياً، ويتخلّى له عن حريّته ليعيش بعقل ذلك الفرد، بل الشريعة الحقّة هي أن يرتفع الجميع إلى القمم، وأن يتأمَّل كلُّ واحد سبل الحياة بعينيه. وكان اليوم الذي أدرك فيه الشعب ضرورة المساواة بين الناس هو يوم ولادة المسيح! وقد حاولت شعوب كثيرة أن تجسِّد أحلامها بالعدالة في شخص حيّ، وأن تخلق إلهاً واحدَاً للجميع بالتساوي، وكم من مرّةٍ كان أشخاص هنا وهناك يخضعون لتيَّار الفكر الشعبيّ، فيحاولون أن يقيِّدوا هذا الفكر بكلماتٍ قوّية ليعيش أبداً. وعندما اجتمعت هذه الأفكار كلّها، انبثق منها إلهٌ حيٌّ هو الابن الغالي على الشعب، عيسى المسيح!

كان ما قاله لي عن المسيح، الإلهِ الفتيِّ، قريباً من فؤادي، لكنني لم أتمكَّن من فهم ماهية الشعب الذي أنجب المسيح.

أخبرته بذلك فأجابني:

- إذا أردت أن تعرف فهمْت، وإذا أردت أن تؤمن عرفت!

سرنا معاً على مهلٍ مدة ثلاثة أيام بلياليها. كان يعلّمني طول الوقت، مستشهداً بالماضي.

لقد روى لي كلّ تاريخ حياة الشعب حتى ذلك اليوم، وتحدَّث عن زمن الفِتْنة[5]، وكيف قامت الكنيسة بمطاردة الدراويش

---

[5] مصطلح يطلَق على مرحلة من تاريخ روسيا تغطّي أواخر القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر. فلما كان القيصر إيفان الرهيب (1530 - 1584) قتل ابنه، فإن الحكم آل بعد وفاته إلى أخيه فيودَر الذي سرعان ما وافته المنية. وبعد ذلك حكم غودونوف من=

"سكوموروخ" المرحين الذين كانوا يوقظون ذاكرة الشعب، ويبذرون الحقيقة فيها.

قال: أتفهم من هو سافيلكا الذي حدّثتني عنه؟

- أفهم.

- هكذا! فلتتذكّر؛ إن الشيء الصغير جزء من الكبير، والشيء الكبير هو مجموع أجزاء صغيرة!

وصلنا إلى دير "ستيفان فيرخوتورسكي"، فقال لي العجوز:

ـ سأفترق عنك هنا، فقد اختلفَتْ طريقانا.

لا أريد الابتعاد عنه، لكنني أرى أنه لا مفرّ من ذلك. فأفكاره تتملّكني، وقد أيقظ أعماقي، وكأنه حَرَثَ روحي بمحراث.

سألني:

ـ ما لك ساهمٌ؟ اذهب إلى المصنع، اشتغل هناك، وتحدَّث مع أصدقائي. صدقنّي، إنك لن تخسر! فهمْ رجال واضحون، لقد تعلّمتُ على أيديهم، وكما ترى، فأنا لست غبيّاً، أليس كذلك؟

ثمّ كتب قُصاصة، ودسّها لي.

ـ بالله عليك، فلتذهب إلى هناك! لا أريد بك سوءاً، سترى ذلك! إنهم أطفال، ونشيطون، ألا تصدّقني؟

قلت: العينان الصغيرتان تريان الكثير، ولكنْ هل كلُّ ما يُخَيّل لهما موجود؟

= خارج السلالة، واستمرّت الاضطرابات والمؤامرات إلى أن تولّى السلطة عام 1613 ميخائيل رومانوف، مؤسس السلالة القيصرية التي حكمت روسيا حتى الثورة الشيوعية عام 1917. — م.

صاح: تأمَّل بكلّ ما فيك! بقلبك، وبروحك! هل أقول لك صدِّقْهم؟ قلت لك اعرفْهم!

تبادلنا القبلات، ومضى. كان يمشي بخفّة، كأنه ابن عشرين، ولا شيء بانتظاره سوى الأفراح. شعرت بالملل وأنا أنظر في إثر هذا الطير الذي يطير مبتعداً عني إلى حيث لا أدري، ليغرِّد هناك أغنيته من جديد. رأسي مشوَّش، تتزاحم فيه الأفكار تزاحُمَ التجّار في السوق عند الصباح الباكر، بطيئةً، نعِسَةً، خرقاءَ، لا تستطيع أن تنتظم على أيّ نحو من الأنحاء. لقد اختلطت الأشياء اختلاطاً غريباً، فصار لفكرتي نهاية من ابتكار غيري، ولفكرة غيري بدايةُ فكرتي. أشعر بالحزن، وينتابني الضحك، كأن كياني الداخليّ مضعضَع كلّه.

منذ خرجت من "فيرخوتوريه"، وسألت إلى أين تؤدّي الطريق، قيل لي:

- إلى مصنع "إيسيتسكي".

ذلك هو المكان الذي أرسلني العجوز إليه، ولذلك انعطفت، في اتجاهٍ آخر حالاً. فأنا لا أريد الذهاب إلى هناك.

أتجوَّل في القرى، وأتأمَّل. الناس عابسون، ووقحون. لا أرغب بالحديث مع أحد. ينظر الجميع إليّ بريبة، كأنهم يخشون أن أسرق شيئاً.

أفكّر وأنا أنظر إلى الفلاحين البائسين: "صنَّاعُ الله!"، وأسألهم: إلى أين يؤدِّي هذا الطريق؟"

- إلى مصنع "إيسيتسكي".

"ما هذا، وهل كلُّ الطرق تؤدِّي إلى هذا المصنع؟".

أفكّر وأتنقّل بين القرى والغابات، أزحف مثل جُعْلٍ في العشب، وأرى هذه المصانع من بعيد. دخانها يتصاعد، لكنها لا تغريني. يُخيَّل إليّ أنني أضعت نصف ذاتي، ولا أستطيع أن أفهم ماذا أريد؟ تسوء حالي. يتقلّب في روحي أسفٌ رماديّ، كسولٌ، وتَتَّقِدُ شراراتُ ضحكة شرِّيرة، فأشعر برغبة في أن أسيء إلى جميع الناس، وإلى نفسي أيضاً.

فجأة قرَّرت، دون أن أنتبه لنفسي: سأذهب إلى المصنع، فليأخذه الشيطان!

وهكذا وصلت إلى ما يشبه جهنّم قذرة، هي وهدة بين الجبال، تكسوها أشجار مقطوعة، وتلتصق فيها بالأرض بيوت يتصاعد فوق أسطحتها اللهب، وترتفع مداخنها عالياً في السماء، يتسرّب الدخان والبخار فيها من كلّ مكان، والأرضُ ملطّخة بالهُباب، يتردَّد صوت المطارق الأصمّ، يترجرج الهواء المكتظّ بالدخان تحت وطأة الضوضاء، والقرقعة، والضجيج الوحشيّ. وفي كلّ مكان يتناثر الحديد، والأخشاب، والآجرّ، والدخان، والبخار، والروائح القذرة. وفي هذه الحفرة الممتلئة بكل ما هبَّ ودبَّ من الأشياء الثقيلة يتراءى أشخاص سود مثل قِطَعِ الفحم.

قلت في نفسي:

- "شكراً لك، أيها العجوز، فقد وجَّهتني وجهة حسنة!"

كانت تلك أوّل مرّة أرى فيها مصنعاً عن كثب، فشعرت بالصمم، وضاقت أنفاسي.

رحت أجوب الشوارع، بحثاً عن الحدّاد "بطرس ياغيخ"، ولا أسأل أحداً حتى يردَّ علي بغلَظَة، وكأنّ الجميع قد تشاجروا فيما

بينهم منذ الصباح، ولم تَصفُ نفوسُهم بعدُ.

أصيح بيني وبين نفسي:

"يا لهم من صُنَّاع إله!"

رأيت رجلاً يمشي نحوي، يشبه دبّاً، ملطّخاً من رأسه حتى أخمص قدميه، يلمع وسخُ ثيابه الثخين تحت أشعة الشمس. سألته إن كان يعرف الحدّاد "بطرس ياغيخ".

- ماذا؟

- بطرس ياغيخ.

- ولِمَ تريده؟

- إنني بحاجة إليه.

- أنا هو!

- مرحباً!

- مرحباً. إذاً، وماذا بعد؟

- معي رسالة إليك.

كان رجلاً أطول مني قامةً، عريض اللحية والمنكبين، جسيماً، وجهُه ملطّخ بالسّخام، لا تكاد تظهر عيناه الرماديتان، الصغيرتان من تحت حاجبيه الكثيفين. قبّعته هابطة على قَذاله. شعره قصير. يشبه الفلاح، ولا يشبهه.

يبدو أنه يقرأ بصعوبة، فقد تجعّد وجهه، وارتعش شارباه. وفجأة انفرجت أساريره، ولمعت أسنانه البيضاء، واتّسعت عيناه الطفليتان، الطيبتّان، وشعّ جلد خدَّيه، وراح يصيح:

ـ أها ـ ا ـ ا! ما زال حيَّاً، ديكُ اللّه، إذاً! حسناً. اذهبْ، يا فتى، إلى نهاية الشارع، ثمّ انعطِفْ إلى اليسار نحو الغابة، تجدْ بيتاً أخضر

النوافذ عند سفح الجبل. هناك اسألْ عن أستاذ اسمه ميخايلا، إنه ابن أختي. أرِه الرسالة، وأنا لن أتأخّر، هيّا!

كان يتكلّم مثل جنديّ ينفخ في البوق. ثمّ أنهى كلامه، ولوّح لي بيده، ومضى. قلت في نفسي: "حتّى هذا مُسَلٍّ، ما دام يقع لأوّل مرّة!".

استقبلني في البيت شابٌّ ناتئ العظام، يرتدي قميصاً من الكتّان، ومريلة شمّر كمّيها، يداه بيضاوان، نحيلتان. قرأ الرسالة، وسألني:

- كيف صحّة الأب إيّونا؟
- حمداً لله.
- أَلَمْ يَعِدْ بزيارتنا؟
- لم يخبرْني. وهل اسمه إيوّنا؟

رمقني الشابّ بريبة، وقرأ الرسالة ثانية، ثمّ سألني:

- ما اسمه، إذاً؟
- لقد سمّى نفسه يهوذييل.

ابتسم الشابّ.

إنه لقبٌ، وأنا مَن أناديه به.

قلتُ في نفسي: "هكذا، إذاً".

كان شَعره سابلاً، طويلاً مثل شعر شمّاس، ووجهُه شاحب، وعيناه زرقاوان، عكرتان، ومظهرُه جملةً يوحي بأنه غريب عن قطعة الأرض القذرة هذه. راح يتمشّى في الغرفة، ويقيسني بنظراته، كأنني قطعة من قماش. فلم يرُقْني ذلك.

قال: منذ متى تعرف إيوّنا؟

- منذ أربعة أيام.

- أربعة أيام؟ ـ كرّر جوابي، – هذا جيّد.

سألته:

ـ لماذا هو جيّد؟

فأجاب بهزّة من كتفيه:

- هكذا!

- ولماذا ترتدي المريلة؟

- كنت أجلّد كتباً! سيأتي خالي بعد قليل، ونتعشّى. هل تريد أن تستحمَّ بعد السفر؟

يعنُّ لي أن أتواقح معه، لأنه يبدو لي شديد الوقار بالقياس إلى سنّه، فأقول:

- وهل يغتسل الناس عندكم؟

رفع حاجبيه:

ـ وكيف لا؟

ـ لم أرَ أحداً نظيفَ الوجه!

زمّ عينيه، ونظر إليّ بهدوء، قائلاً:

ـ الناس هنا لا يلهون، بل يعملون، ولا وقت لديهم للاغتسال باستمرار.

رأيت أنني انقضضت عليه مثل ذبابة على حلاوة، لكنْ ما إن هممت بالإجابة حتّى أدار ظهره، ومضى. بقيت جالساً كالأحمق، ورحت أتأمل ما حولي. كانت الغرفة كبيرة، نظيفة، في زاويتها طاولةٌ عليها طعام العشاء، وعلى جدرانها رفوف من الكتب، إنها كتب دنيوية، ولكنْ هناك أيضاً كتاب "العهد القديم"،

والإنجيل، وكتاب تراتيل سْلافيّة قديم. خرجتُ إلى الفناء، وشرعت أغتسل. ثمّ جاء الخال وقد ازدادت قبّعتُه ارتداداً إلى قَذاله، وهو يلوِّح بيديه، ويمدّ رأسه إلى الأمام مثل ثور.

قال:

- سأغتسل، هيّا صُبَّ لي الماء!

صوتُه غليظٌ مثل صوت بوق، وكفّاه كإناءين كبيرين للحَساء. أزال بعضاً من السّخام عن وجهه، فبدا عريضاً، أحمر، معدنيَّ اللون.

جلسْنا نتعشّى، فراحا يأكلان ويتحدّثان عن أعمالهما، لا يسألان مَن أنا، ولماذا أتيت. إلا أنهما يعتنيان بضيافتي، وينظران إليّ بلطف.

فيهما كثير من الوقار الذي يدلّ بوضوح على الثقة بالنفس، فأرغب في أن أزعزع هذه الثقة فيهما، إذ بِمَ هما أفضل مني؟

سألتهما:

- هل أنتما منشقّان؟

أجاب الخال:

- نحن؟ كلا.

- أأنتما أرثوذكسيّان، إذاً؟

عبس ابن الأخت، فيما هزّ الخال كتفيه، وتضاحك ساخراً.

- لعلّ علينا أن نقدّم له هويّاتنا، يا ميخايلا؟

أُدرِكُ أنني أتصرَّف بغباء، ولكنني لا أرغب في أن أكفّ عن ذلك.

- لم آتِ من أجل رؤية هويَّاتكم، بل من أجل رؤية أفكاركم!

راح الخال يصيح:

ـ أفكارنا؟ حالاً، يا صاحب السعادة! هيّا، اصطفّي، أيتها الأفكار!

ويقهقه كثلاثة مهور.

يتكلّم ميخايلا بهدوء، وهو يصبّ الشاي.

- على هذا النحو تماماً أفهم مجيئك. لستَ أوّل من أرسله إيّونا إلينا، فهو يعرف الناس، ولا يرسل رجلاً تافهاً.

أمّا الخال فدفع جبيني بكفّه، وتابع صراخه:

- كن أكثر سروراً! ولا تبدأ اللعب بورقٍ قويّ، وإلا خسرت!

يبدو أنهما يَعدّان نفسيهما صاحبَي روح ثرية، فيما أبدو لهما شبيهاً بشحّاذ، ولهذا يتأهبّان لأن يرويا روحيَ العطشى بحكمتهما. لا أرغب بالشّجار معهما، ولا بمجادلتهما، فأنا لا أجد ما أعلّق عليه، ولا أُحسِن ذلك، وهذا ما يزيد استفزازي، فأسألهما عبثاً:

ـ ما معنى: رجل تافه؟

يجيبني الخال:

ـ هو مَن تستطيع أن تحشوَهُ بما يحلو لك؟

وإذا بميخايلا يقترب منّي فجأة، ويستفسر بصوت لطيف:

ـ هل تؤمن بالله؟

ـ أؤمن.

ولكنني ارتبكت بعد جوابي، فليس هذا ما أريد! أحقاً مؤمن أنا؟

سألني ميخايلا ثانية:

ـ وهل تحترم الناس؟

أجبت: كلا .

قال:

ـ ألا تظنّ أن الله خلقهم على صورته وشاكلته؟

أمّا الخال، وليأخذْه الشيطان، فيتضاحك ساخراً، مثل طشْتٍ معدنيّ يلمع تحت الشمس.

جال في خاطري: "كلا، يجب أن أواجه هؤلاء الناسَ بالصدق، سأتمزّق أمامهم إرَباً، وليجْمعوها!"

قلت:

ـ لقد ارتَبْتُ في قوّة الله وأنا أراقب الناس.

مرّة أخرى، ليس هذا ما أريد، فأنا ارتبت بالله قبل أن أرى الناس. كان ميخايلا ينظر إلى وجهي ساهماً، مكوِّراً عينيه، فيما يتمشّى الخال في الغرفة بخطوات ثقيلة، يُمسّد لحيته، ويخور بصوتٍ خفيف. وأشعر بالحَرَج أمامهما، لأنني أُذلُّ نفسي بالكذب. فتمتلئ روحي بالحيرة والقلق، وتحوم أفكاري مثل سربٍ نحلٍ مذعور، فرحت أطردها بانزعاج، كمن يريد أن يُنزِل حمله. ظللت أتكلّم وقتاً طويلاً، غيرَ آبهٍ لترابط حديثي، وربما كنت أتقصّد خلط كلماتي، فإن كانا فهيمَين حقّاً، فَهِما كلّ شيء. ثمّ تعبت، وسألتهما بوقاحة:

ـ بماذا، وكيف تداويان روحاً مريضة؟

قال ميخايلا بصوت خافت، دون أن ينظر إليّ:

ـ لا أَعُدُّك مريضاً...

عاد الخال من جديد يقهقه ويزمجر، مثلَ شيطان سقط عن ظهر الوِجاق.

أردف ميخايلا:

ـ أن يمرض الإنسان يعني ألا يشعر بنفسه، ولا يعرف سوى ألمه، ويحيا به! أمّا أنت فواضح أنك لم تضيِّع نفسك، لأنك تبحث عن مسرّات الحياة، وهذا ما ليس متاحاً إلا لإنسانٍ سليم.

ـ ولماذا هذا الأنين في روحي؟

ـ لأن هذا يروقك.

فصرفتُ بأسناني، لأنني لم أَعُدْ أطيق هدوءه.

ـ هل أنت متأكّد أنّه يروقني؟

راح يحدِّق في عينيّ مباشرة، ويدقّ مساميره في صدري على مهل، قائلاً:

ـ عليك أن تعترف، ما دمتَ إنساناً صادقاً، أنك لا تستغنى عن هذا الألم، فهو يضعك فوق الناس، وأنت تصونه لكي يُميّزَك عن الآخرين، أليس كذلك؟

جَفَّ وجهه البليد وتطاول، وتكدَّرت عيناه، وهو يداعب خدَّه بيده، ويُلقي إليّ بنظرة تنظِّفني تنظيفَ الفولاذ بالرَّمل:

ــ كأنك تخاف أن تختلطَ بالناس، ولذلك تتقول في نفسك، وربّما دون وَعي منك: فلتكنْ أوجاعاً، ولكنّها أوجاعي أنا! وما لأحدٍ مثيل لها!

أرغب في مجادلته ولا أجد الكلمات، فهو يصغرني سنّاً، ولا أصدّق أنني أقلُّ منه ذكاءً. ويقهقه الخال مثل خوريٍّ فوق دكّة في حمّام. ويستأنف ميخايلا الحديث:

ــ لكنّ ذلك لا يُميِّزك عن الناس، أنت مخطئ في ظنّك، والجميع يظنُّون هذا الظنّ. ولهذا فإنّ حياتكم عاجزة، ومشوَّهة. إذْ يحاول كلّ واحد منكم أن يتجنّب الحياة ليحفر لنفسه وكْراً في

الأرض يتأمّل منه الحياة وحيداً، فتبدو له من وكْره دنيئةً وتافهة، فرؤيتها على هذا النحو تطيب للمتوحِّدين! وينطبق قولي هذا على جميع الناس الذين، لسببٍ ما، لا يستطيعون أن يمتطوا ظهر أحدٍ من أقاربهم لينطلقوا إلى حيث الطعام أكثرُ لذّةً.

يُغضِبني كلامه، ويجرحني. ويتابع:

- ابتدأتْ هذه الحياة التافهة، التي لا تليق بالعقل البشريّ، منذ اليوم الذي انفصلت فيه أوّل شخصية إنسانية عن قوّة الشعب العظيمة، عن أمّها الجماعة، وخوفاً من الوحدة والعجز، انكمشت هذه الشخصية إلى كتلة من الرغبات تافهةٍ وحاقدة، وسُمِّيَتْ تلك الكتلة "أنا". هذه الـ "أنا" هي أشرُّ عدوٍّ للإنسان! ففي سبيل الدفاعِ عن نفسها، وتأكيدِ ذاتها في الأرض، قتلتِ الـ "أنا"، عبثاً، كلَّ طاقات الروح، وكلَّ قدراتها العظيمة على خلق النِّعم الروحية.

يخيَّلُ إليّ أنني أسمع حديثاً أعرفه، وكلاماً طالما انتظرته في سرّي.

- الفقير روحياً عاجز عن الإبداع. إنه أصمّ في الحياة، أعمى وأخرس، غايتُه الدفاعُ عن النفس، والطمأنينةُ، والأُلفة. ولا يمكنهُ صنعُ أيّ شيءٍ بشريٍّ، وجديدٍ حقّاً إلا بحكم الضرورة، وبعد دفعات عديدة من الخارج، وبصعوبة بالغة، ولا ينال ذلك تقديراً من باقي أصحاب الـ "أنا"، بل ويكون في نظرهم موضع اشمئزاز ونبْذ. وتعود هذه الكراهية إلى أن الـ "أنا" التي انفصلت عن الجماعة تتذكّر صلة القُربى التي تربطها بالكلّ، فتسعى من جديد لجمعِ هذه الشظايا المتناثرة، وتوحيدِها في كلٍّ عظيم.

أستمع إليه وأتعجّب. فأنا أفهم ذلك كلّه، بل لست أفهمه وحسْب، وإنما يبدو لي قريباً مني وصحيحاً. كأنني أنا من فكّرت بذلك منذ زمن بعيد، دون أن أستعمل الكلمات، أمّا الآن فقد جاءت الكلمات، واصطفّت أمامي متناسقة، مثلَ درجات السلّم، صاعدة نحو الأعلى. وأتذكّر أحاديث إيُّونا، فتعود الحياة إليها أمام ناظري زاهية وبهيجة. ولكنني، في الوقت نفسه، أشعر بالارتباك والحرج، كمن يقف على قطعة جليد هشَّة في نهرٍ أيّامَ الربيع. ثمّ خرج الخال في غفلة منّا، وبقينا نحن الاثنين في غرفة ليس فيها ضوء، وكانت الليلة مقمرة، ونفسي تضيئها ظلمةٌ مقمِرة أيضاً.

أنهى ميخايلا أحاديثه قُرابةَ منتصف الليل، ثم سار بي خارجاً عبْر الفِناء لننام في زريبة. وهناك استلقينا على القشّ، فغفا سريعاً، بينما خرجت أنا من البوّابة، وجلست على قِطعٍ من الأخشاب أتأمّل...

ثمّة نجمتان كبيرتان تسبحان في السماء، كأنهما حارسان، وجدارُ الغابة المسنَّن يظهر واضحاً في السماء الزرقاء خلف الجبل. ذلك أن أشجار الغابة فوق الجبل مقطوعة كلّها، والأرض مُجرّحَة بالحفر السوداء. وفي الأسفل، يكشّر المصنع عن أسنانه الحمراء بجشع، ويتعالى ضجيجه ودخانه، ويتراقص اللهب فوق أسطُحه مندفعاً نحو الأعلى، ولا يستطيع الانفصال، فيسيل دخاناً. وتنطلق رائحة الاحتراق، فتضيق أنفاسي.

رحت أفكّر في وحدة الإنسان المريرة. جميل كلام ميخايلا، فهو يؤمن بأفكاره، وأنا أرى صدقها، لكنْ لماذا يجتاحني البرد؟

إن روحي لا تمتزج مع روح هذا الإنسان، فتقف وحيدة كما في صحراء...

وفجأة أرى أنني أفكّر تفكير إيّونا وميخايلا، وأنّ أفكارهما قد سكنتني بقوّة، وإن كان يتململ في داخلي شعورٌ معادٍ لها، ومترقّبٌ فوق كلّ شيء.

أين أنا، وما الذي لي؟ أدور في حيرتي مثل مغزل يزداد سرعة حتّى يملأ سمْعي ضجيجٌ مثل زوبعة خفيضة الصوت.

أزّتْ صفّارة المصنع. كان صوتها في البداية ناعماً وشاكياً، ثمّ راح يزأر خشناً، آمراً. وأطلّ الصباح من الجبال نَعِساً، وشرع الليل يهبط إلى الأسفل خالعاً غلالته الرقيقة عن الأشجار ليلمَّها، ويخفيها في الحفر والشقوق. وظهرت الأرض عارية، منهوبة، لم يبقَ فيها شيء، كأنّ عملاقاً عابثاً قد مرَّ من هنا وهو يقفز ويقتلع صفوفاً من الغابات، مخلّفاً في الأرض جروحاً بليغة. وانتشرت مباني المصنع في هذه الوهدة قذرةً، مطليّةً بالشحم، مدثّرة بالدخان، يتعالى منها الشخير. ويتقاطر إلى المصنع من كلِّ صوبٍ أشخاص قاتمون يبتلعهم واحداً تلو الآخر. فكّرت: "يا لهم من صُنّاع إله القد شبعوا بناء!".

تخطّى الخال البوّابة، وكان منفوش الشعر، يحكُّ جسمه، ويتثاءب، فيطقطق فكّاه، ويبتسم لي وهو يصيح:

ـ آها ـ ا ـ ا، هل استيقظت؟

ثمّ سرعان ما يسألني بلطف:

ـ أم أنك لم تَنَمْ؟ لا عليك، ستنام خلال النهار! هيّا بنا نشرب

الشاي!

قال ونحن نتناول الشاي:

- يا أخي، مرّت عليّ ليالٍ بطولها لم تغمض لي فيها عين. كنت أرغب في أن أصفع كلَّ من حولي! كانت روحي مشوّشة حتّى قبل أن ألتحق بالخدمة في الجيش. هناك ضربني قائد السريّة على أذني اليمنى، فلم أعد أسمع بها. ثمّ ساعدني أحدهم، فليوفّقْه...

لعلّه كان يريد أن يذكر اسم الله، غير أنه توقّف، وعبث بلحيته متضاحكاً. فأحسست بشيء طفولي في هذه الحركة، بل وكانت عيناه أيضاً تتّقدان بشيء طفوليّ، بسيط، بريء.

- يا له من إنسان طيّب! لقد ميّزني، وسألني ماذا حدث؟ قلت: وهل هذه حياة بشر؟ فأجاب: "صحيح، يجب تغييرُ كلٍّ شيء! دعني، يا بيوتر فاسيليف، أعلّمك الاقتصاد السياسي! وبدأ يعلّمني. فلم أفهم في البداية شيئاً، ثمّ سرعان ما تبيَّنْتُ كلّ هذه الفوضى اليوميةِ والأبدية.كدتَ أُجَنُّ من الفرح، ورحت أصيح: يا لكم من أنذال! فالعلم سرعان ما يُفصح عن نفسه، إذ أنك لا تسمع في البداية سوى كلمات جديدة، ثمّ تأتي لحظة، فإذا بكلّ شيء ينتظم، وينقلب إلى نور! إنّ هذه اللحظة العجيبة هي ولادة الإنسان الحقيقية!

غمرتِ الفرحةُ وجهَه، وعَبَّرت عيناه عن بسمة لطيفة، وهو يهزُّ رأسه الحليق، ويقول:

- إن هذا الشعور ينتظرك!

كنت أتمتّع نالنظر إليه، يتعاظم ما هو طفوليٌّ فيه، فينتابني شيء من الحسد.

- لقد أمضيتُ ثلثي حياتي مثل حصان، يؤسفني هذا! لكنْ لا بأس، سأعوّض ذلك بقدْر ما أستطيع! إلا أنني لست حادّ الذكاء. فالعقل مثل اليد، يحتاج إلى تدريب. بينما يداي أذكى من راسي.

أنظرُ إليه، وأفكّر:

" لماذا لا يخاف هؤلاء الناس من أن يتكلّموا عن كلّ شيء؟".

أما هو فتابع:

- لكنْ بالمقابل، فعقل ميخايلا يعادل عقلين! إنه قارئ نهِم! انتظرْ، سيكون له شأن! لقد أطلق عليه خوريّ المصنع لقبَ مطران المهرطقين. لكنه، للأسف، مشوَّش الذّهن حول الله! لقد ورث ذلك عن أمّه. كانت أختي امرأة مشهورة في المجال الدينيّ. فقد تخلّت عن الأرثوذكسية لتصبح من المنشقّين، ثم طردها المنشقّون.

كان يتأهّب للذهاب إلى العمل وهو يتكلّم، فيتَنَقّلُ من زاوية إلى أخرى، ويطقطق حوله كلّ شيء. تنقلب الكراسي، وتهتزّ أرض الغرفة تحت قدميه. منظره يثير ضحكي، ويبعث في الحبَّ تجاهه. فكّرت: "ما هؤلاء الناس؟".

- هل أستطيع قضاء حوالي ثلاثة أيّام عندكم؟

قال:

- تفضَّلْ، ابقَ ثلاثة أشهر، إذا أردت! يا لك من غريب الأطوار! لسنا فقراء، والحمد لله!

حكّ رأسه، وأعلن متضاحكاً:

- مهما حاولتُ، لا أستطيع إلا أن أذكر اسم الله! إنها العادة!

عاد المصنع إلى الصفير، فمضى الخال. أمّا أنا فاتّجهت نحو الزريبة. كان ميخايلا مستلقياً هناك، مقطبّاً حاجبيه، عاقداً يديه

على صدره، أحمرَ الوجه، ليس له لحية، ولا شاربان، عريض الوجه، وإجمالاً كان يشبه عظماً قوياً.

" ما هؤلاء الناس؟"

وغفوت، وأنا أفكرّ بذلك.

حين استيقظت، سمعت ضجيجاً، وصفيراً، وأصواتاً مختلفة، كما في اجتماع الشياطين. أنظرُ، وإذا بي أرى الساحة ملأى بالأولاد، وبينهم ميخايلا يرتدي قميصاً أبيضَ، ويبدو مثل سفينة شراعيّة بين زوارقَ صغيرة. واقفٌ يقهقه. رأسه مشدود إلى الوراء، فاغر الفم، مزموم العينين، ولا يشبه ذلك الإنسانَ البليد الذي كان حتّى الأمس يسمّى ميخايلا. يرتدي الأولاد ثياباً زرقاء، وحمراء، ووردية، يلمعون تحت أشعة الشمس، يقفزون، ويصيحون. شعرت بانجذاب إليهم، فخرجت من الزريبة. وما إن رآني واحد منهم حتى طفق يصيح:

ـ انظروا، يا إخوتي، إنه راهب!

وكمن أضرم ناراً في نشارة خشب، هبّ الأولاد، وراحوا يدورون، ويضجّون، ويتألّقون...

- كم هو أمغر !
- يا لَشعره !
- سيضربك !
- فلتصبْه قرحة، إنه عملاق !
- كأنه برج أجراس، وليس راهباً !
- من هذا، يا ميخايل إيفانتْش؟

ارتبك الأستاذ بعض الشيء، فيما ظلَّ الشياطين يقهقهون،

ولستُ أعرف ما المضحك فيَّ. غير أن عدوَى الضحك أصابتني أيضاً، فأخذت أضحك، وأصرخ:

ـ ابتعدوا، أيها الفئران!

شمسٌ، وضجيجٌ ملوّنٌ يعمُّ الجوّ، وكأنّ كلَّ ما حولنا يرتعش، وينطلق بسرور، وهياجٍ إلى مكان ما، زوبعةً زاهيةً تحملني معها، تُبهرني بنورها، وتحيطني بالدفء.

يحيّيني ميخايلا، يشدُّ على يدي، وهو يقول:

ـ سنذهب إلى الغابة، ألا ترغب بمرافقتنا؟

كلُّ شيء رائع. فقد خطف سترتي شيطانٌ بطينٌ، ثمّ وضعها على رأسه، وراح يطير مثل فراشة في الفناء.

ذهبت إلى الغابة برفقة هذه العصابة من المجانين، فانطبع ذلك اليومُ في ذاكرتي.

تدفّق الأطفال إلى الشارع بخفّة، مثل ريشٍ في مهبّ الريح، ومضوا يصعدون الجبل، وأنا أمشي بجوار راعيهم، أتخيّل أنني لأوّل مرّة أرى أطفالاً ظُرَفاء. نسير، أنا وميخايلا، في إثرهم، فيعطي إيعازاته، وينهرهم، فيما الأولاد لا يصغون إليه، يتدافعون، يتعاركون، يتراشقون بأكواز الصنوبر، ويتجادلون. وحين أخذ منهم التعبُ مأخذَه، التفّوا حولنا، وراحوا يتململون عند أقدامنا مثل الجُعلان، ويشدّون أستاذهم من يده ليسألوه عن الأعشاب والأزهار، فيردّ عليهم بلهجة رقيقة، كأنه ندٌّ لهم، ويرفرف فوقهم مثل شراع أبيض. لا يكفّ أحد منهم عن الحركة، إلا أن بعضاً منهم وقورون، ساهمون، بقدْرٍ لا يتناسب مع سنِّهم، يظلّون بجوار أستاذهم، ويلتزمون الصمت.

ثم عاد الأطفال وهمدوا قليلاً، فقال لي ميخايلا بصوت خافت:

ـ هل خُلِق هؤلاء ليسكروا ويعملوا، ولا شيء آخر؟ إن في كل واحد منهم روحاً حيَّة، ويمكنهم أن يسرّعوا مسار فكرٍ يخلّصنا من أَسْر ما يحيِّرنا. أما إذا ما دخلوا ذلك النفق المظلم، الضيِّق الذي تنقضي فيه أيّام حياةِ آبائهم الضبابية، فإنهم سيؤمَرون بالعمل، ويُمنَعون من التفكير. وسيخضع كثيرون منهم، وربما جميعهم، للقوى الميتة، وسيخدمونها. هذا هو مصدر المصيبة في الأرض، فليس هناك حرّية لنموّ روح الإنسان!

كان يتكلّم ماشياً، وإلى جانبه عدد من الأولاد يصغون إليه. مضحكٌ إصغاؤهم هذا! فماذا بوسع نبتات الحياة الفتية هذه أن تفهم من أحاديثه؟ تعود إلى ذاكرتي صورةُ معلّمي الذي كان يضرب الأولاد بالمسطرة على رؤوسهم، وكان في أغلب الأحيان سكران.

ويردف ميخايلا:

ـ الحياة مليئة بالخوف، ويأكل الحقد المتبادل طاقات روح الإنسان. ما أقبح الحياة! لكنِ امنحوا الأولاد الوقت ليترعرعوا أحراراً، لا تجعلوا منهم بهائمَ عمل. إنّهم، حين يكونون أحراراً مفعَمين بالنشاط، ينيرون الحياة كلَّها، داخلكم وخارجكم، بنيران جرأة أرواحهم الفتية، الرائعة، وبجمالٍ عظيم يشعّ من أفعالهم أبداً!

تحيط بنا في كلّ مكان رؤوس شقراء صغيرة، وعيون زرقاء، ووجوه مضرّجة بالحمرة، كأنها أزهار حيّة في بساط من الخضرة

القاتمة. ضحكٌ، وأصوات رنّانة، كأصوات عصافيرَ مرحةٍ، تبشّر بحياة جديدة.

كلُّ هذا الجمال الحيّ سوف يدوسه الطمع. فما معنى هذا كلّه؟ يولد الطفل لطيفاً، ويكبر ولداً رائعاً يبتهج، ثمّ يغدو رجلاً يشتم ببذاءة، يئنُّ بمرارة، يضرب زوجته، ويخمد آلامه بالفودكا.

يقول ميخايلا، كمن يردّ على أفكاري:

ـ إنهم يحطّمون الشعب الذي هو وحده هيكلُ الإله الحيِّ الحقيقيّ، ومعه يَهلِك مَن دمّروا أنفسهم تحت الأنقاض، وإذ يرون عملهم الدّنيء، يقولون: شيء رهيب! يتراكضون ويجأرون: أين الله؟ ولكنْ هم مَن قتلوه.

أتذكّر أحاديث إيّونا عن تفتيت الشعب الروسي، فتغوص أفكاري بخفّة وروعة في كلمات ميخايلا. غير أنني لا أدرك لماذا يتكلّم بهدوء، ودونما غضب، كأنّ كلَّ هذه الحياة القاسية لم تعد سوى ماضٍ بالنسبة إليه؟

تنبعث من الأرض دافئةً، ناعمةً روائحُ ثملةٌ من الدّبْق والأزهار. وترفرف الطيور وتغرّد.

يتراكض الأطفال، يعكّرون هدوء الغابة، ويزداد وضوحاً أمامي أنني لم أكن أدرك قوّتهم قبل اليوم، ولم أكن أرى جمالهم.

رائع ميخايلا بينهم، بابتسامته الهادئة التي لا تفارق وجهه!

أقول له مبتسماً:

ـ سأبتعد عنكم قليلاً، عليّ أن أفكّر!

ينظر إليّ وعيناه تشعّان نوراً، وترفّ رموشه، فيرتجف قلبي.

نادراً ما حظيت بالحنان، ولأنني أعرف قيمته، قلت له:

ـ يا لك من إنسان طيّب!

ارتبك ميخايلا، وخفض نظره، فأربكني كثيراً. ووقفنا متقابلَين، صامتَين، ثمّ افترقنا. وإذا به يصيح في إثري:

- لا تتوّغلْ كثيراً، فتضلّ الطريق!

- شكراً!

انعطفتُ نحو الغابة، فاخترت مكاناً وجلست. راحت أصوات الأطفال تبتعد، ويغرق ضحكهم في الخضرة الكثيفة، وتتنهّد الغابة. وتئزُّ فوقي السناجب، ويغردّ زرزور. أتمنّى أن تعانق روحي كلَّ ما أعرفه، وما سمعته في الأيام الأخيرة، غير أن كلّ ذلك ذاب ليشكّل قوس قُزَحٍ يعانقني، ويشدّني إلى حركته الهادئة، فيملأ روحي، ويكبر قوس قُزح متجاوزاً كلّ حدّ. ونسيت نفسي، تهتُ في سحابةٍ ناعمة من أفكار خرساء.

وعند دنوّ الليل، عدتُ إلى البيت، وقلتُ لميخايلا إن عليّ أن أعيش معهم، ريثما أتعرفّ على معتقدهم، وأن يجد لي الخال بطرس عملاً في المصنع.

قال:

ـ لا تتعجّل، عليك أن ترتاح، وتقرأ بعض الكتب!

إنني أثق به.

- أعطني كتبك!

- خذها.

- لم يسبق لي أن قرأت كتباً دنيوية، فلتخْتَر لي أنسبها، وليكن تاريخ روسيا، مثلاً؟

- يجب على الإنسان أن يعرف كلّ شيء! قال لي وهو ينظر

إلى الكتب بالقدْر نفسه من الحنان الذي ينظر به إلى الأطفال.

وهكذا تعمَّقتُ في القراءة، فكنت أقرأ أياماً بطولها. لقد قاسيت، وحزنت، لأن الكتب لا تحاورني، ولا تكترث بأمري. أعياني أحد الكتب، وكان موضوعه يدور حول تطور العالم والحياة الإنسانية، إنه كتاب معادٍ للإنجيل. كل شيء فيه شديد البساطة، واضح، لا يمكن الاستغناء عنه، إلا أنني لم أجد لنفسي مكاناً في هذه البساطة، إذ كانت تحيط بي قوى مختلفة من كلّ الجهات، فأبدو وسطها مثل الفأر في المصيدة. لعلّي قرأت هذا الكتاب مرَّتين، كنت أقرأه وأنا صامت، رغبةً منّي في إيجاد ثغرة فيه أتسلّل عَبْرها، لأصبح حُرَّاً، غير أنني لا أجدها.

سألت معلّمي:

ـ كيف هذا؟ أين هو الإنسان؟

قال:

ـ يخيَّل إليّ أيضاً أن ذلك غيرُ صحيح، لكنني لا أستطيع أن أوضّح لك أين يكمن الخطأ! غير أن فكرة تكوين العالم فيه جميلة جداً!

كان يعجبني عندما يجيب بكلمة "لا أعرف"، أو "لا يمكنني أن أقول"، وكان ذلك يقرّبني منه كثيراً. إذ كان ذلك يثبت صدقه. فكونُ المعلّم يسمح لنفسه بالاعتراف بعدم المعرفة، يعني حتماً أن هناك ما يعرفه. كان يعرف أشياء كثيرة لا أعرفها، ويتحدّث عنها ببساطة تثير العجب. كان يحكي لي كيف تكوّنت الشمس، والنجوم، والأرض، وكأنه رأى بنفسه فعل النار الذي أنجزته يدٌ حكيمة، مجهولة!

لم أكن أفهم إلهه، إلا أن ذلك لم يُثِرْ قلقي، فقد كان يسمّي شيئاً ما باسم قوّة العالم الرئيسة. بينما كنت، في سريرتي، أضع الله في مكان هذا الشيء، فيبدو لي كلُّ شيء على ما يرام.

كان يقول مبتسماً:

- لم يُصنعِ الإلهُ بعد!

كانت مسألة الإله سببَ المجادلات الدائمة بين ميخايلا وخاله. فما إن ينطق ميخايلا بكلمة "الله" حتّى يغضب الخال بطرس:

- ها قد بدأ! لا تصدّقْ ما يقوله، يا ماتفي! لقد أصيب بالعدوى من أمّه!

- انتظر، يا خالي! إن الله مسألة المسائل، في نظر ماتفي!

- لا تكذبْ، يا ميخايلا! أما أنت، يا ماتفي، فلتُلقِ به إلى الشيطان! ما مِن آلهة! إنها غابةٌ مُضلِّلة؛ الدين والكنيسة وما شابه ذلك، غابةٌ مضلّلة، وفيها قطّاع طرق! كلُّها خداع!

ويردّ ميخايلا بإلحاح:

ـ كان الإله الذي أتكلّم عنه موجوداً يوم كان الناس يصنعونه من مادّة أفكارهم، ليُنيروا به ظلمة وجودهم؛ غير أنهم، عندما انقسموا إلى عبيد وأسياد، وتفرقّوا شعوباً وقبائلَ، عندما مزّق الناسُ أفكارهم وإرادتهم، مات الإله، تحطّم الإله!

أخذ الخال بطرس يصيح فرحاً:

- أسَمِعتَ يا ماتفي؟ عليه الرحمة!

حدَّق ميخايلا في وجه خاله، وأردف بصوت خفيض:

ـ أكبر جريمة ارتكبها أسياد الحياة هي أنهم حطّموا قوّة الشعب الخلاّقة. وسيأتي وقت تعود فتتجمّع فيه إرادة الشعب كلُّها

في بؤرة واحدة، ولا بدَّ أن تظهر فيها عندئذ قوّةٌ عجيبة لا تُقهَر، فينبعث الإله من جديد! ذلك هو الإله الذي تبحث عنه، ، يا ماتفي!

يلوّح الخال بيديه مثل حطّاب.

ـ لا تصدّقْه، يا ماتفي، إنه يكذب!

يلتفت إلى ابن أخته، ويقول له بلا رحمةٍ:

ـ لقد حشوتَ رأسك بأفكار الكنيسة، يا ميخايلا، مثل من يسرق الخيار من مزرعة غيره، وجئتَ تشوِّش أفكار الناس! فإذا كنت تقول إن على الشعب الكادح أن يجدّد الحياة، فلتجدّدها أنت، ولا تلتقط ما لبسه الخوارنة حتّى البلى، ثمّ رموه!

إنني أستمتع بالاستماع إلى هذين الرجلين، فهما يثيران عجبي بما بينهما من احترام، يتجادلان بحرارة دون أن يؤذيَ أحد منهما صاحبه بحقدٍ أو شتيمة. كان الخال بطرس يتضرَّج غضباً، أحياناً، ويرتجف، فيما يخفض ميخايلا صوته، كمن يحاول طرح رجلٍ جسيم على الأرض. لقد كان يتبارز أمامي رجلان ينكران الله، وهما مفعمان بإيمان صادق.

فأسأل نفسي: "ما هو معتقدي؟"، ولا أعرف الجواب.

إن حياتي مع ميخايلا جعلت أفكاري بخصوص مكانة الإله بين الناس تذبل، وتفقد قوّتها، وتتجرّد من عنادها السابق الذي حلّت محلّه أفكار كثيرة أخرى.

وبدلاً من سؤالي: أين الله، برز سؤال جديد هو: من أنا، ولماذا أنا موجود؟ ألكي أبحث عن الله؟

أدرك أن ذلك عديم المعنى.

كان العمال يأتون إلى ميخايلا في الأماسي، ويدور بينهم

حديث شيقّ. فيحكي لهم المعلّم عن الحياة، ويعرّي شرائعها الشرِّيرة، إذ كان يعرفها جيداً، ويشير إليها بجلاء. وكان العمال شباباً جفّفتِ النار عروقهم، وتشرَّبت جلودُهم بالسّخام، وجوههم داكنة، وعيونهم مفعمة بالقلق. كلهم متعطّشُون لشيء جدّيّ. يُنصتون عابسين. وللوهلة الأولى خُيِّلَ إليّ أنهم مكتئبون، ومتردِّدون. ثمّ وجدتهم في الحياة يجيدون الغناء، والرقص، وممازحة الفتيات.

كانت أحاديث ميخايلا والخال تتناول المواضيع ذاتها دوماً: سلطةُ المال، إذلالُ العمال، طمعُ الأسياد، وضرورةُ إلغاء تقسيم الناس إلى طبقات.

إلا أنني لم أكن عاملاً، ولا سيّداً، لا مال لديّ ولست أبحث عنه، ولهذا فإن تلك الأحاديث لم تكن تلمس فؤادي. كان يبدو لي أن الناس يولُون الأموال أهمية أكثر مما تستحق، وبذلك يُذّلون أنفسهم. وصرت أتجادل مع ميخايلا، وأحاول أن أثبت له أنه يتوجَّب على الإنسان أوّلاً أن يجد ملاذاً لروحه، وحينها يعرف مكانته في هذه الأرض، ويحظى بالحرية. كنت أتكلّم كثيراً وبحرارة، وكان العمال ينصتون إلى كلامي باهتمام، وطيبة خاطر، مثل قضاة نزيهين، وكان أكبرهم سناً يوافقونني الرأي.

ولكنْ ما إن أُنهي كلامي حتّى يتكلّم ميخايلا، وهو يبتسم ابتسامته الهادئة، فيمحو كلامي.

ـ أنت على حقّ حين تقول إن الإنسان يعيش في حيرة، ولا يعرف إن كان الإلهُ، أو روحُ الإله، صديقاً له أم عدوّاً، لكنك غيرُ محقّ عندما تؤكّد أننا، نحن العبيد، المكبّلين بسلاسل العمل اليومي الثقيل، نستطيع أن نتحرّر من ربِقة الجشع، دون أن نحطّم السجن

المادّي... علينا، قبل كلّ شيء، أن نكتشف قوّة عدوّنا الأقرب، وأن ندرس ألاعيبَه. ولكي نتمكّن من ذلك لا بدّ أن يجد بعضُنا بعضاً، وأن نكتشف في كلٍّ واحدٍ منّا الشيءَ الذي يجمعه بالكلّ، وهذا الشيءُ الذي يوحّدنا هو قوّتنا البديعة التي لا تُقهَر! لم يكن للعبيد إلهٌ يوماً، بل كانوا يؤلّهون شريعة البشر التي تلقّوها من قوّة خارجية، ولن يكون للعبيد إله في يوم من الأيام، فهو يولد في لهيب إدراكنا اللذيذ لما هناك من قربى روحية بين الفرد والجماعة! فالكنائس لا تُبنى من الخشب الفاسد والحطام، بل تُبنى من حجارة متينة، كاملة. والعزلة هي انفصالك عن الجماعة الأمّ، وهي دليل على ضعف الروح وعَمَاها، ففي الجماعة تُلاقي الخلود، أمّا العزلةُ فليس فيها سوى العبوديةِ الحتمية، والظلامِ، والموت، والكآبة التي لا عزاء فيها.

وعندما يتكلّم على هذا النحو يخيَّل إليّ أنّ عينيه تريان نوراً عظيماً في الأفق، فيستدرجني إلى دائرته، وترى الجميع ينظرون إليه بسرور.

كان يزعجني ذلك في بادئ الأمر، فيخطر لي أنهم يسيئون فهم أفكاري، وما من أحد يرغب بالتعمّق فيها رغبتَه بالتعمّق في أفكار ميخايلا.

كنت، أحياناً، أبتعد عنهم خلسة، لأجلس في زاوية ما، وأناجي كبريائي بهدوء.

لقد صادقتُ التلاميذ، فكانوا في الأعياد يلتفّون حولي أنا والخال بطرس، مثل عصافير الدوري حول حزَمِ سنابل القمح. وبينما

يبتكر شيئاً ما، أراهم يسألونني عن كييف، وموسكو، وعن كلِّ ما رأيت. ولكنْ، كثيراً ما كان يسألني أحدهم سؤالاً يجعل جفوني ترفُّ عجباً.

كان بينهم صبيٌّ هادئ وجدّيّ هو فيديا ساتشكوف. فقد كنت أتمشّى معه في الغابة ذات مرة، أحكي له عن المسيح، وإذا به، فجأة، يصرّح بوقار:

ـ لم يخطر ببال المسيح يوماً أن يبقى مدى الحياة صغيراً في مثل سنّي! ليته بقي صغيراً، وظلّ يفضح الأثرياء، ويساعد الفقراء، ولم يصلبوه لأنّه صغير! ليتهم أشفقوا عليه! أمّا ما فعله، فقد جعله كمن لم يكن موجوداً...

كان عُمرُ فيديا قرابة أحد عشر عاماً، وكان وجهه شاحباً شفّافاً، وفي عينيه ريبة.

أما الآخر، مارك لوبوف، وهو تلميذ في المرحلة الأخيرة، فتىً نحيل الجسم، كثيف الشعر، حادّ الطباع، فكان ولداً عابثاً، يزعج الجميع، تارة يصفر بهدوء، وتارة يقرص الأولاد، أو يضربهم، أو يدفعهم، مثلَ راعي غنمٍ فتيّ. لقد رأيته مرّة يعذِّب صبيّاً متواضعاً يوشك أن يبكي.

قلت له:

ـ مارك، وماذا لو ردّ عليك الصاع بالصاع؟

ألقى عليّ هذا الـ "مارك" نظرة، وقال متضاحكاً بسخرية:

- لن يردّ! إنه متواضع وطيّب.
- ولماذا، إذاً، تعذبّه؟
- لا لشيء.

ثم أطلق صفيراً، وأردف:

- إنه متواضع!

سألته:

- وماذا في ذلك؟

- ولماذا يعيش المتواضعون؟

قال ذلك بهدوء عجيب، وكأنّه واثق، وهو بعدُ في الثانية عشرة من عمره، بأن الناس المتواضعين موجودون كي يزعجهم الآخرون.

كلُّ واحد من هؤلاء الأطفال حكيمٌ على طريقته، وأنا أزداد اهتماماً بهم، وتفكيراً بمصيرهم. ماذا فعل الأطفال ليستحقّوا ما ينتظرهم من حياة شاقّة ملأى بالقهر؟

أتذكّر كريستينا وولدي، أتذكّرهما وتنبت في روحي فكرة شرّيرة:

"ألهذا تمنعون المرأة من أن تكون حُرَّة في ولادة أطفالها، ألأنّكم تخافون أن تلدَ أحداً خطيراً عليكم، ومعادياً لكم؟ ألستم تغتصبون حرّيّة المرأة لأنكم تخشون أن تلد ابناً حرّاً، لا يمتُّ لكم بصِلة؟ فعندما تربوّن أطفالكم، وتعلّمونهم الحياة، تملكون الوقت والحقَّ كي تُعموهم، ولكنكم تخافون أن يكون هناك طفل لا أهل له، يترعرع بعيداً عن الأنظار، فقد يكبر ويصبح عدوّاً لدوداً لكم!".

كان في المصنع شخص ليس له أحد – يدعى ستيوبا ـ وهو شابٌّ أسودُ مثل جُعْل، أَنْمشُ الوجه، عديمُ الحواجب، مزمومُ العينين، ماهرٌ في كلِّ شيء، دائمُ المرح.

بدأ تعارفُنا في يوم من أيام العيد، حين دنا منّي، وسألني:

ـ أيها الراهب! هل أنت ابنٌ غيرُ شرعي؟ أنا مثلك!

وسار إلى جانبي. كان في حوالي الخامسة عشرة من عمره، أنهى المدرسة، ويعمل في المصنع. سار وهو يزمّ عينيه، وراح يسألني:

ـ هل الأرض واسعة؟

شرحت له بقدْر ما استطعت، وسألته:

- ولماذا تسأل؟

- لأن ذلك يهمّني! لماذا عليّ أن أقبع في مكان واحد؟ فأنا لست شجرة. وحين أتعلّم حرفة الحدادة سأذهب إلى روسيا، إلى موسكو، وإلى أين أيضاً؟ سأذهب إلى كل مكان!

كان يتكلّم كمن يهدّد أحداً بقوله:

"ها أنا قادم!"

شرعت أراقبه بعد هذا الحديث، فرأيت أن الولد يتوق إلى الأمور الجدّيّة. إنّه يحشر نفسه بين رفاق ميخايلا وهم يتبادلون أحاديثهم، يُنصت إليهم، ويزمُّ عينيه، كمن يسدّد ليختار في أيّ طريق يسير.

حتى عبثه كان مميّزاً، يحاول من خلاله أن يُفسِد أشياء تخصّ من هم أقربُ إلى المدراء، تارة يُخفي أداة ما، وتارة يخرِّب شيئاً، أو يصبّ الرمل في الآلات.

قال لي مرّة، ونحن نتناول الغداء:

- مملٌّ هذا المكان، أيُّها الراهب!

- لماذا؟

- لا أعرف، ولكنَّ حياة الناس هنا فقيرة! العمل، ولا شيءَ سوى العمل! ليتني أتعلّم بسرعة، لأرحل بعيداً عن هذا المكان!

عندما يتحدّث عن السفر المنتظَر، تتّسع عيناه، وتنظران بشجاعة إلى الأمام، فيشبه حينها غازياً لا يؤمن بشيء إلاّ بقوّته. لقد أعجبني هذا المخلوق، وكنت أشعر بالنضج في كلامه.

"لن يضيع هذا الإنسان!" – ذلك ما كان يجول في خاطري وأنا أرمقه. وسرعان ما تئنّ روحي ألماً على ابني: كيف هو اليوم، ومنْ سيكون في هذه الأرض؟

غدوت ألمح في نفسي ارتعاشةَ أحاسيسَ جديدةٍ، فأشعر وكأن شعاعاً حادّاً، رقيقاً، ينبعث صوبي، منبثقاً من كلّ واحد من الناس، فيلمسني خفيةً، ويلامس قلبي دون أن أشعر به، وأزداد رهافة في تلقّي هذه الشعاعات الخفيّة. وأحياناً، عندما يجتمع العمّال عند ميخايلا، أشعر بأن أنفاسهم تصنع سحابة حارّة من الأفكار، ثمّ تدثّرني هذه السحابة، وترتقي بي على نحو غريب. وفجأة يبدأ الجميع يفهمونني ما إن أنطق، وأنا واقف بين الناس كأنهم جسدي، وأنا روحهم وحرّيّتُهم في هذه الساعة. وكأنّ حديثي هو صوتهم. وأحياناً أعيش وكأنني جزء من جسد أحد ما، وأسمع صرخةَ روحٍ تنطلق من شفاه الآخرين، فأظلّ سعيداً ما دمتُ أسمعها، ثمّ تصمت مع مُضيِّ الوقت، فأعود إلى وحدتي من جديد.

أتذكّر توحُّدي مع الله في صلواتي سابقاً. كم كان يسرُّني أن أختفي من ذاكرتي، ولا أعود موجوداً! على أنني لم أكن أنفصل عن نفسي حين أذوب في الناس، بل أشعر وكأنني أكبُرُ، وأرتفع فوق ذاتي، وتتضاعف قوّة روحي مرّاتٍ ومرّات. وعندها يأتي نسيان الذات، إلا أن هذا النسيان لم يكن يُفنيني، ولا يزيد على أن يُطفئ أفكاري المريرة، وخوفي على عزلتي.

لقد جاءتني هذه الفكرة ضبابيةً ومجرّدة، ورحت أشعر ببذرة جديدة تكبر في روحي، ولا أقدر على فهمها. كلّ ما ألاحظه هو أنني أتوق إلى الناس بقوّة لا تكلّ.

كنت حينها أعمل في المصنع بأجرٍ يوميّ قدْرُه أربعون كوبيكاً. أقوم بنقل أثقال مختلفة، من حديد، ونفايات، وآجرّ، أعتلُها على كتفي، أو أجرّها في عربة. لقد كنت أكره هذا المكان الجهنّميّ بكل قذارته، وصخبه، وضجيجه، وحَرّه الذي ينهك الجسد.

لقد تشبّثَ المصنع بالأرض، فأطبق عليها، وراح يمتصها بجشع لا يرتوي طول الأيام والليالي، يخنقه الطمع، فيعوي ويبصق من أشداقه الساخنة دمَ الأرض الناريّ. وما إن يبرد الدّمُ ويسودّ حتى يعود المصنع ليصهر الحديد ثانية، يصفر ويزمجر وهو يسطّح الحديد الأحمر، فيتناثر الشّرر، ويهتزّ كلّه وهو يُخرِج قضباناً طويلة، حيّة، كأنها عروقٌ تنسحب من جسد الأرض.

أرى في هذا العمل الشرس شيئاً مرعباً، يبلغ الجنون. ثمّة وحش يعوي، وينهب أعماق الأرض مخلّفاً هاويةً تحته، يعرف أنه سيهوي إليها يوماً، فيملؤه الغضب، ويجأر بآلاف الأصوات:

- أسرِعوا، أسرِعوا، أسرِعوا!

ووسط هذا اللهيب، وسط مطرٍ من شررٍ ناريّ، يعمل أشخاصٌ اسودَّتْ سحناتهم، فيخيَّل إليك أنْ لا مكان لهم هنا، لأنّ كلّ شيء حولهم يُهدّدُ بأن يجعلهم رماداً، ويسحقهم بحديد ثقيل. كلّ شيء هنا يُصِمُّ الآذان، ويُعمي البصر، فيما يجففّ الدمَ في العروق حرٌّ لا يطاق، أمّا هم فيتابعون عملهم بهدوء، منهمكين بحركات واثقة،

كأنهم في بيوتهم، مثل شياطين في جهنّم لا يهابون شيئاً، ويعرفون كلّ شيء.

ثمّة سواعد قويّة تقلّب عتّلات صغيرة، وفي كل مكان حول الناس، وفوق رؤوسهم، تتحرّك مخيفةً، ومطيعةً أشداقٌ وأذرعُ آلات عملاقةٍ تلوك الحديد... ومن الصعب أن يتبيَّنَ لك عقلُ مَنْ، وإرادةُ مَنء تقف وراء كلّ هذا! فتارة يخيَّل إليك أن الإنسان لَجَم المصنع ومضى يتحكّم به على هواه، وتارة ترى الناس جميعاً والمصنعَ بأَسره يخضعون للشيطان، فيما هو يقهقه قهقهةً احتفالية قذرة، أمام عبثية هذا الجهد الشاقّ الذي يقوده الجشع.

يقول العمّال بعضُهم لبعض:

ـ انهضوا، لقد حان وقت العمل!

ولكنني لا أفهم، أهُمُ الناس مَن يُصرّون على العمل، أم أنَّ العمل يُثقِل عليهم ويسحقهم؟ قاهرٌ وعسير هذا العمل، لكنّ عقل الإنسان ذكيٌّ ومكّار!

أحياناً، وسط ضجيج الآلات وضوضائها الجهنمية، يفاجئك انطلاق أغنية مرحة، منتصرة، لا مبالية، فأبتسم في سريرتي

وأتذكّر إيفان الغشيم* وهو يمتطي ظهر التنّين صاعداً إلى السماء ليصطاد طائر النار العجيب.

عمّال المصنع دواءٌ لوجعي، وإن كانوا أصحاب طبع حادّ، شجعاناً، ورغم بذاءتهم وسلاطة لسانهم، وأنهم سكّيرون أحياناً،

---

* إيفان الأحمق، بطل القصص الروسية الفولكلورية، وهو رمز الإنسان الروسي البسيط الذي ينتصر على الأشرار في النهاية. — م.

فإنهم أحرار، لا يعرفون الخوف. إنهم لا يشبهون الجوّالين، وعبيدَ الأرض الذين كانوا يُحرجونني بتردُّدهم، وتَشتُّت روحهم، وحزنهم اليائس، واحتيالهم التافه في علاقتهم مع الله، وفيما بينهم.

إنهم رجال جريئون في أفكارهم، وإن كان العمل الشاقُّ يجعلهم موتورين، يتخاصمون، بل يتقاتلون فيما بينهم، لكنهم إذا ما جار عليهم رؤساؤهم أوشكوا أن يهبّوا في وجوههم هبّة رجل واحد.

أمّا أولئك الشباب الذين يتردّدون على ميخايلا، فتراهم في المقدِّمة دوماً، صوتهم أعلى من أصوات الآخرين، ولا يهابون شيئاً قَطّ. في الماضي لم أكن ألتفتُ إلى الناس، لأنني لم أكن أفكِّر بهم. أمّا الآن فأتأمَّلهم راغباً باكتشاف ما هم عليه من تنوّع، طامعاً برؤية كلّ واحد منهم على انفراد. تارة أبلغ مرادي، وتارة لا. فأحاديثهم مختلفة، ولكلٍّ واحد منهم وجهه، غير أن عقيدتهم واحدة، وهدفهم واحد، إنهم معاً يبنون شيئاً واحداً على مهل.

تجد كلّ واحد منهم بين الناس ذكيّاً وطيِّباً، مثل مرج وسط غابة متشابكة الأغصان في نظر من ضلّ الطريق، وكلّ واحد منهم يستقطب من العمّال أكثرهم ذكاءً، وجميعُ رفاق ميخايلا متكاتفون، يمثّلون في المصنع ما يشبه حلقةً تجمعها روابطُ روحيَّة، وهالةٌ من الأفكار تتَّقد وتضيء.

في البداية استقبلوني بخشونة، كانوا يسخرون مني، ويصيحون في وجهي:

- أنت، أيَّتها الذبابة المَغْراء! أيُّها البقّة المقدَّسة! أيها الطفيْليّ! التَّنْبَلْ!

لم يخلُ الأمر من أن يدفعني أحدهم أحياناً، لكنني لم أكن أطيق ذلك، ولم أتوانَ لحظة عن إطلاق العنان لقبضتي في تلك الحالات. غير أن استخدام القبضة لا يُكسِب المرءَ احتراماً، ولا يجعله محطّ انتباه الناس، رغم إعجابهم بالقوّة. وفي إحدى المرّات كدتُ أنال نصيبي من الضرب، لولا تدخُّلُ "غافريلا كوستِن"، رفيق ميخايلا، وهو عاملُ لِحامٍ شابٌّ، جميلُ الطلعة، ومعروف جيِّداً في أوساط المصنع.

فقد هجم عليّ ستة رجال، ما كانت لتأخذهم بخاصرتيَّ رحمةٌ، لولا أنه وقف إلى جانبي، وقال:

- لماذا تسخرون من الرجل، يا رفاق؟ أليس عاملاً مثلنا كلنّا؟ ليس في تصرّفكم عدلٌ، يا رفاق، وهو تصرّفٌ يؤذيكم أنتم! فقوّتنا تكمن في صداقتنا المتينة...

لم يقلِ الكثير، لكنَّ ما قاله كان متميّزاً بجماله وبساطته، كأنه يكلّم أطفالاً: فقد كان كلّ زملاء ميخايلا يستغلّون أيّ فرصة لنشر أفكاره. وهكذا أحرج كوستِن خصومي، ولمس فؤادي، فتكلّمت أنا أيضاً:

- لم أسعَ للترهّب من أجل أن أشبع الخبز، بل لأن روحي ظمأى! كنت أعيش، و في كلّ مكان أرى العمل الأبديَّ، والجوع اليوميّ، والاحتيال، والجريمة، والمصائب، والدموع، والوحشيّة، وشتّى أنواع الظلام الروحيّ. فمَنِ الذي شرّع ذلك، وأين هو إلهنا الحكيم العادل، أفلا يرى عذاب عباده الذي بدأ منذ الأزل ولا نهاية له؟

اجتمع كثير من الناس، وأخذوا ينصتون إليّ بجديّة؛ وعندما أنهيت حديثي ظلّوا صامتين. ثمّ قال الخرّاط العجوز "كريوكوف" لكوستِن:

ـ يبدو أن للراهب رؤيةً أعمق من رؤيتك ورفاقك! إنه يرجع إلى البدايات، أرأيت؟

كنت أتلذّذ بسماع هذه الكلمات عندما ربت "كريوكوف" على كتفي، وقال:

ـ تكلّم يا أخي، كلامُك جيّد! وليتك تقصِّر شعرك بمقدار ذراع، فلعلّ منظر شعرك يثير ضحك الناس، فضلاً عن أنه وسِخ.

وصاح أحد الظُّرفاء:

ـ ثم إنه يُعيقك في العراك!

إنهم يمزحون، وهذا يعني أنّ غضبهم قد خمد. أينما وجدتَ الضحك، وجدتَ الإنسان. فالبهائم لا تعرف الضحك.

أخذني كوستِن جانباً، وقال:

ـ كن حذراً في كلامك هذا، يا ماتفي، وإلا أودى بك إلى السجن!

تعجَّبت قائلاً:

ـ ماذا؟

فضحك، وقال:

ـ إلى السجن... هل تعرفه؟

ـ لماذا؟

ـ جزاءَ انتقاداتك!

- هل تمزح؟

- اسألْ ميخايلا، أمّا أنا فعليّ أن أستيقظ باكراً للذهاب إلى العمل.

ثم مضى. وبقيت شديد التعجّب من كلامه، ولا أصدّقه، لولا أنّ ميخايلا أكّد في المساء كلّ ما قاله لي كوستِن. فقد ظلّ المساءَ بطوله يحدّثني عمّا يتعرّض له الناس من تنكيل قاسٍ، فتبيّن لي أن الكلام الذي أقولُه كان الناس يعاقَبون عليه بالإعدام، وأهلَكتِ الأعمالُ الشاقّة آلافاً منهم في سيبيريا، لكنَّ التعذيب الوحشيّ لا يتوقّف، فيما المؤمنون يزدادون عدداً في الخفاء.

حينها تسامى في روحي كلُّ شيء، وشعَّ بنور جديد، واتَّخذتْ كلُّ أحاديث ميخايلا ورفاقه معنىً آخر في نظري. قبل كلِّ شيء، إذا كان الإنسان مستعدّاً للتضحية بحرّيته وحياته في سبيل ما يؤمن به، فهو صادق في إيمانه حتماً، وشبيهٌ بشهداء المسيحية الأوائل.

وفي تلك اللحظة تضافرت كلمات ميخايلا كلُّها، وتفتَّحت كالورود، لتدخُل روحي.

لا أريد أن أقول إنني تقبّلت كلماته حالاً، وفهمت أعماقها في تلك اللحظة، لكنني في ذلك المساء شعرت لأوّل مرّة بقربها من روحي، وتخيّلت حينها الأرض كلّها بيتَ لحم مرويةً بدم الأطفال. وأدركت رجاء العذراء الحارَّ حين رأت جهنّم، وراحت تتوسل إلى الملاك ميخائيل:

- أيّها الملاك! اسمحْ لي أن أتعذّب في النار! دعني أتقاسمْ معهم هذا العذاب!

إلا أنني لا أرى هنا آثمين، بل أتقياء يريدون أن يحطّموا جحيم

الأرض، وهم على استعداد لتحمُّل شتّى أنواع العذاب في سبيل ذلك.

قلت لميخايلا:

- ربّما لم يعد هناك نُسّاكٌ قديّسون اليوم، لأن الإنسان اختار الدنيا بدلاً من أن يتخلّى عنها؟

أجابني:

- لا بدَّ أن الإيمان الحقيقيّ هو بالضرورة مصدرُ عمل الخير!

فرجوته:

- أشركوني، إذاً، في هذا العمل!

كان كلُّ شيء في داخلي يتّقد. قال:

- كلا، انتظرْ وفكّر بالأمر، مازال الوقت مبكّراً! فإنك بطبعك هذا، إذا ما وقعت في أنشوطة العدوّ الآن، شددتَ الحبل على عنقك لمدّة طويلة، وبلا نفع. بل، على العكس، يجب عليك، بعد كلامك هذا، أن ترحل حالاً. لديك الكثير من المسائل التي لم تحلّها بعد، ولستَ حُرّاً لكي تشارك في عملنا! لقد تملّكك ما لمستَ من جمالٍ وعظَمةٍ في هذا العمل الذي تجلّى أمامك بكلّ قوّته، وكأنك تقف الآن في ساحة ترى وسطها معبداً يشيَّد بكلّ ضخامته وجمالهِ، ولكنه يشيَّد بعملٍ يوميّ، هادئٍ وسرّيّ، وإذا ما انخرطتَ بهذا العمل الآن، دون أن تحيط علماً بمخطّطه العامّ، غابت معالم المعبد عن ناظريك، وتلاشت صورته التي لم تترسَّخ في روحك بعدُ، وخُيِّل إليك أن العمل أقلُّ ممّا لديك من قدرات.

سألته بنبرة حزينة:

- لماذا تثبِّط عزيمتي؟ فقد وجدت مكانةً لنفسي، ويسرّني أن أرى أنني قوّة نافعة... فأجابني بهدوء وحزن:

- إنني لا أعُدُّك قادراً على الحياة وَفق خطّةٍ غامضة عليك، وأرى أنك لم تتضج بعدُ لإدراك العلاقة بين روحك وروح الشعب الكادح. إنك تمثّل في نظري، منذ الآن، فكرةَ الشعب التقدّمية التي صقلَتْها تجربة الحياة، غير أنك لا تنظر إلى نفسك بهذه الطريقة، فأنت مازلت تتخيّل نفسك بطلاً، مستعداً لَمَنْحِ مساعدتك الرحيمة للضعيف بسبب فائض القوّة لديك. ما زلت تنظر إلى نفسك على أنك كائن مميَّز؛ ففي نظر نفسك أنت البداية والنهاية معاً، ولستَ استمراراً لما هو رائع، وعظيم، ولانهائيّ!

أخذت أفهم لماذا يحني قامتي نحو الأرض، وأشعر بوجود حقيقة مبهمة في كلماته.

يقول:

- عليك أن تعود إلى الترحال من جديد، لكي ترى حياة الناس بعينين أخريين. إنك لا تتقبّل الكتاب، لأن القراءة لا تعطيك الكثير، فما زلتَ لا تؤمن بأنّ ما في الكتب ليس العقل البشري، بل فيها ما لا نهاية له من أنواع التعبير عن توق روح الشعب إلى الحرية. إن الكتاب لا يسعى إلى السيطرة عليك، بل هو يعطيك سلاحاً لتحرِّر نفسك، بينما أنت لا تعرف بعدُ كيف تُمسك بهذا السلاح!

صحيح ما يقوله: فقد كنت أستهجن الكتاب في ذلك الحين. كنت معتاداً على كتب الكنيسة، ولا أفهم الأفكار الدنيوية إلا بصعوبة بالغة. لقد كانت الكلمة المنطوقة تعطيني أكثر ممّا تعطيني الكلمة المكتوبة. والأفكار التي كنت أفهمها من الكتب لم تكن تتعدّى سطح روحي، فتتلاشى سريعاً، وتذوب في لهيبها.

وما كانت تلك الأفكار تجيبني على سؤالي الرئيس: ما هي الشرائع التي يحكم بها الله، ومادام قد خلقني على صورته وشاكلته، فلماذا، إذاً، يُذلُّني ضدّ إرادتي التي هي إرادته أيضاً. ويعيش إلى جانب هذا السؤال سؤال آخر، دون صراع معه، هو: هل هبط الإله من السماء إلى الأرض، أم أن قوّة الناس هي التي رفعته إلى السماء؟ وسرعان ما تضطرم فكرة صنع الإله كقضية أبدية تهمّ الشعب بأَسره.

تنشطر روحي شطرين: فأنا أتوق للبقاء مع هؤلاء الناس، وفي الوقت نفسه أريد أن أذهب للتحقّق من أفكاري الجديدة، للبحث عن المجهول الذي سرق حريتي، وعكّر صفو روحي.

راح الخال بطرس يقنعني أيضاً:

ـ عليك، يا ماتفي، أن تغيب لبعض الوقت، فثمّة حديث خطير بخصوص ما تقول...

وما لبثتِ القضية أن حُلّت، دون أن يكون لي في ذلك يدٌ. فقد جاءنا ذات ليلة خيّال من مصنع آخر، وأخبرنا بأن رجال الدرك يقومون في مصنعهم بحملات تفتيش، وأنهم ينوون المجيء إلى هنا.

قال ميخايلا متحسّراً:

ـ آه، سيقبضون علينا قبل الأوان!

دَبَّتْ بدايات لَهْوَجةٍ، فراح الخال بطرس يصيح بي:

ـ هيّا، يا ماتفي، هيّا! لا عمل لك هنا، فلستَ أنت من أكل الدِّبس ليعلق بشاربيك، لا تبقَ جالساً!

ويُلحُّ ميخايلا في نصحي وهو يحدّق في وجهي:

ـ خيرٌ لك أن ترحل. فليس في بقائك نفع، وقد يصيبك أذى!

أُدركُ أنهما يريدان التخلّص مني، فأتضايق. ولكنّي، في الوقت نفسه، أشعر أنني أخاف من الدرك، أخافهم قبل أن أراهم! أعرف أنه لا يليق بالمرء أن يتخلّى عن الناس في اللحظة العصيبة، ولكنّي أرضخ لإرادتهم.

لقد رحّلوني. وها أنا أصعد الجبل باتجاه الغابة، أخترق النباتات المتشابكة بين جذامير الأشجار، أتعثّر، كأن أحداً يحاول القبض على كعبَيّ، فيما يتبعني إيفان بيكوف مسرعاً، وهو فتى قليل الكلام، يحمل على ظهره حملاً ثقيلاً من الكتب التي كُلّف بإخفائها في الغابة.

وصلنا جرياً إلى طرف الغابة، فوجد الفتى المخْبأ المُعدَّ لحمله، وشرع يُفرِغ الكتب فيه. كان مطمئنّاً .وكنتُ مرعوباً. سألته:

_ أ لن يأتوا إلى هنا؟

ـ من يدري! فقد يأتون إلى هنا. يجب عليّ أن أسرع!

كان فتىً أخرق، كأنه مقطوعٌ بفأس من خشبة بلّوط، كبير الرأس، إحدى كتفيه أعلى من الأخرى، يداه طويلتان جداً، وصوته غليظ. قلت:

ـ هل أنت خائف؟

- مِمَّ؟

- من أن يأتوا، ويقبضوا عليك؟

- يهمُّني ألاّ يجدوا ما خبَّأت، أما الباقي فلا يهمّ!

وضع كل الكتب في الحفرة بحرص. ثم طمرها وسوّى الأرض فوقها، ونثر عليه بعض العيدان، وجلس على الأرض، قائلاً عندما رآني أتأهّب للذهاب: انتظرْ، سيأتونك الآن برسالة.

- أيّ رسالة؟
- لا أعرف .

رحت أسترق النظر من خلف الأشجار إلى الوادي، فأسمع المصنع يحشرج مثل رجل قويّ تحت قبضةٍ تخنقه. ويخيّل إليّ أن الناس يجري بعضهم في أعقاب بعض، عبْر شوارع البلدة في الظلام، يتعاركون، يشخرون غاضبين، ويكسر بعضهم عظام بعض. وفي هذه الأثناء راح إيفان يهبط إلى الوادي على مهل.

- إلى أين؟
- إلى البيت !
- وإذا ما قبضوا عليك؟
- إنني جديد في العمل، قد لا يعرفونني، ولكنْ لا يهمّني إذا ما قبضوا عليّ، لأن الناس يخرجون من السجون أكثر ذكاءً.

وفجأة سألني أحدهم بصوت مرتفع، وجليّ:

ـ وكيف تخشى الدَّرك، ولا تخشى الله، يا ماتفي؟

وأُلقي نظرة إلى إيفان، فأراه واقفاً ينظر إلى الوادي ساهماً:

- ماذا قلت؟
- في السجن يقرؤون كثيراً من الكتب...
- ولا شيء سوى ذلك؟
- وهل هذا قليل؟

تتّقد في داخلي كذبة، وتشتعل أسئلة خجلة، مثل شرارات واخزة. أشعر بالحَرّ، رغم برودة الليل.

- سأذهب معك!
- ليس مسموحاً لك بذلك! ـ قال إيفان بحزم، ـ لأنهم سيقبضون

عليك حتماً، ما دامت هذه المشكلة كلّها بدأت بسبب كلامك!

- كيف ذلك؟

- لقد وشَىَ بك الخوري لدرك فيرخوتوريه.

جلست على الأرض، وحدّثت نفسي:

ـ إذاً، لا بدّ لي من الرحيل!

لكنَّ خوفي يؤخِّرني. همس إيفان:

ـ هناك مَن يركض نحونا!

أنظرُ إلى سفح الجبل، فأرى ظلالاً كثيفة تزحف صاعدة صوبنا، فيما السماء غائمة، والبدر في المحاق، يَظهر الهلال تارة، ويختفي وراء الغيوم تارة أخرى، والأرض كلّها تدور حولنا، وتزيد هذه الحركة الخرساء وطأةُ الشعور بالقرف والخوف لديّ. أراقب الظلال وهي تتدفّق على الأرض سيولاً تغطّي الأحراش وروحي بأغطية سوداء. ويتراءى لي رأس أحدهم، وهو يتقافز بين أغصان الشجيرات، كأنّه كُرَةٌ.

أخذ إيفان يصفر بهدوء، ثم قال:

ـ هذا كوستيا!

أعرف كوستيا، إنه صبيّ في الخامسة عشرة من عمره، أزرق العينين، أبيض الشعر، هزيل الجسم. لقد توقّف عن الذهاب إلى المدرسة منذ عامين. وميخايلا يدرِّبه ليصبح مساعداً له، يعلّم معه في المدرسة.

أُدرك أنني أتقصّد التفكير بهذا لأغطّي خوفي وخجلي بأفكار جانبية.

وبقفزةٍ ظهر كوستيا، يلهث متقطعّ الأنفاس.

- وصلْنا! إنهم يسألون عنك، أيها الراهب! خذ... لقد أوصاني الخال بطرس بأن أرافقك إلى مَنْسَكِ لوبانوفسكي، فلنمضِ!

نهضت، وقلت لإيفان:

- وداعاً، يا أخي، بلّغ الجميعَ سلامي، وقلْ لهم أن يسامحوني!

دفعني كوستيا، وأمرني بحزم:

- امضِ! لمن يبلّغ سلامك؟ لعلّهم سيسوقون الجميع سَوْقَ الدجاج إلى سُوق الجمعة!

مضينا. فسرتُ وراء كوستيا الذي راح يقصّ عليّ ما رآه هناك في الأسفل. أسير خلفه، ويخيّل إليّ أن أحداً من حولي يشدّني من أطراف ثيابي وكُمّي، وكأنّه يسألني: "إلى أين؟ ورّطْتَ الناس، وترحل؟"

كنت أتكلّم بصوتٍ مرتفع، كمن يكلّم نفسه:

- إذاً، لقد وقع هؤلاء الناس بسببي...

أجاب الصبيّ:

- ليس بسببك، إنما بسبب الحقيقة! فهل أنت الحقيقة؟ ياللك من مغرور!

تُضحِكني كلماته، فهو صغير، ولكنّه يؤثّر فيَّ. أرغب في أن أبرِّء نفسي أمامه، فأوشك أن أعرض أفكاري له، مثل شحّاذ يتناول الفُتات من حقيبته. قلتُ له:

- حقاً، يبدو أنني أعيش كذبة كبيرة...

أما هو فيدمدم، مُنكِراً كلَّ كلمة أقولها، كأنّه ضميري:

- أيّ كبيرة! إنك تبالغ دائماً!

خطر في بالي: "هذه ليست كلماته...". قال:

- لم يسمّك كوستين عبثاً ببرج الأجراس، لكنك لست برج أجراس يدعو لصلاة الظهر، بل أنت برج تدقّ أجراسه تلقائيّاً، لأنه شُيِّد مائلاً، وأجراسه مربوطة ربطاً سيئاً.

صمتَ قليلاً، ثم أعلن فجأة:

- لا أحبُّك، أيها الراهب!

- لماذا؟

- لا أعرف... هل أنت غير روسي؟ إنك لا تعجبني...

في وقت آخر، كنت سأغضب منه... أما الآن فظَلَلْت صامتاً. وشعرت فجأة بالوهن، وبتعبٍ مميت.

يخيّم علينا الليل، وتحيط بنا الغابة. يتكثّف ظلام رطب بين الأشجار ويتجمدّ، فلا يعود في مقدورك أن تميِّز بين الشجر والليل. أحياناً يومض فوقنا شعاع قمريّ ينكسر في قلب الظلام، ثمَّ يختفي. ويخيّم هدوء لا يعكّره شيء سوى طقطقة الأغصان تحت أقدامنا، وهسهسة النباتات اليابسة.

لا يخاف الصبيّ من قول الحقيقة. كلّ هؤلاء الناس، ابتداءً من إيّونا، لا تنطوي قلوبهم على الخوف. بعض منهم فيه الكثير من الغضب، وبعض آخر دائم الفرح، لكنَّ أكثرهم ناسٌ هادئون متواضعون، يخجلون من إظهار ما فيهم من خير.

يسير كوستيا على الدرب، ينبعث من رأسه الأبيض قليل من الضوء. أتذكّر سيرة الفتى القدّيس فارفولومي، وأليكسي الإنسان المخلص لله، وغيرهما. ليس هذا ما أبغيه... تتقافز أفكاري، مثلما تتقافز الطيور المائية من حجر إلى حجر في المستنقع.

سألت الصبيّ:

- هل قرأت سيَر القدّيسين؟

- قرأتها عندما كنت صغيراً، كانت أمّي تجبرني على ذلك. لماذا تسألني؟

- هل يعجبك أولياء اللّه؟

- لا أدري... يعجبني بانتيليمون، والخضر أيضاً. فقد قاتل الثعبان. لا أعرف ما مسرّةُ الناس في أنّ عَشَرَةً منهم صاروا قدّيسيين؟

يكبر كوستيا أمام عينَيّ. يقول:

- لو آمنَتْ بالمسيح بنتُ مَلِكٍ، أو بنتُ أحد الأثرياء، ثم اضطهدوها، هل كان ذلك يُحسّن معاملة الملكِ، أو الثريّ مع الناس في يوم من الأيّام؟ فالسِّيَر لا تذكر أن ملوكاً ظالمين تابوا!

وينطق، بعد صمت قصير:

ـ لا أعرف أيضاً ما كانت حاجة المسيح للعذاب، فقد جاء ليقضي على المظالم، ولكنّ النتيجة كانت...

ثمّ فكّر قليلاً، وأضاف:

ـ لم يكن هناك أيّ نتيجة!

شعرت برغبة في أن أضمّه. فقد أشفقتُ على كوستيا، والمسيحِ، وأولئك الناس الذين ظلّوا في القرية، أشفقت على عالم البشر كلّه، وعلى نفسي. أين مكاني يا ترى! وإلى أين أسير؟

أخذ ظلام الليل الصيفيّ القصير ينقشع تدريجياً، و ضوءٌ خفيف يتدفّق من الأعلى سيولاً عبر أغصان أشجار الصنوبر.

قلت: ـ ألم تتعب، يا كوستيا؟

فأجابَ الصبيُّ بحيوية:

- أنا؟ كلا. فأنا أُحبُّ المشيَ في الليل، أجوبه ماشياً كأنه بلاد بديعة.

خلدنا إلى النوم عند الفجر. وغطس كوستيا في النوم كمن يغطس في نهر، فيما ظللت أتجوّل في أفكاري، مثلما يدور تتريٌّ[6] شحَّاذ حول كنيسة في الشتاء، عندما تهبّ نسمات البرد قارسة في الخارج، ولكنّ نَبيَّه لا يسمح له بدخول الكنيسة.

ومع قدوم الصباح، كنت قد بَيّتُّ في نفسي شيئاً، فقلت للصبيّ عندما استيقظ:

- سامِحْني، لأنَّك سرت معي عبثاً، فأنا لن أذهب إلى المنْسَكْ، لا أريد الاختباء!

رمقني بنظرة جدّية، وقال:

- لكنك اختبأت، وانتهى الأمر!

ثم لوّح بغصنٍ، وقال دون أن ينظر إليّ:

- وداعاً، يا طائر الحَمام!

أومأت برأسي، وأجبت:

- وداعاً!

ثمّ ولّيت مبتعداً. وعندما التفتُّ، وجدتُه واقفاً بين الأشجار يودّعني، فصاح:

- هاي! وداعاً!

شعرت بالسعادة لأنه كررّ هذه الكلمة بنبرة أكثر لطفاً.

---

[6] التتر مسلمون. — م.

سرتُ أياماً كثيرة مثل مريض، يملؤني مللٌ ثقيل. يَشبُّ في روحي حريق هادئ، وتشتعل روحي مثل مرج في غابة، بينما تسير أفكاري بمحاذاة ظلّي، تارة تزحف أمامي، وتارة تجرّ نفسها في إثري مثل دخان الحريق. لا أذكر، أ كنت أشعر بالخجل، أم بشيء آخر. لا أستطيع الجزم الآن. ووُلدتْ في رأسي فكرة سوداء، وراحت، في مكان خارجي ما، تتلوّى حولي مثل خفّاش، وتقول:

"إنهم كفرة، وليسوا صنّاع إله...".

لكنني أذكر أنّ أثقل وأوسع ما كان يعتمل في داخلي من أفكارٍ هو ذلك السكون الأخرس، والهدوء الكسول، العميق الذي يشبه مستنقعاً عكِراً، تسبح فيه، بل في عمقه الكثيف، أفكار خرساء كأنها أسماك خائفة، تتلوّى ولا تستطيع الخروج من العمق الخانق إلى السطح، نحو الضوء. قلّما كنت أستوعب ما يدور حولي في الخارج، أذكر لقاءاتي مع الناس، كأنها حُلُمٌ. وصلت إلى سوقٍ شعبيةٍ بالقرب من مدينة "أومْسك"، واستيقظت هناك...

كان رجل أعمى يجلس في غبار الطريق، ينشد أغنية، فيما يقف دليلُه إلى جانبه على ركبتيه، ويعزف له على الهارمونيكا. والعجوز ينظر إلى السماء بعينيه الفارغتين، ويُنشد كلماتِ أغنيته بصوته الصَّدئ، على الطريقة القديمة:

في زمن القيصر إيفان فاسيليف...

وترافقه الهارمونيكا بصوتٍ أصمّ:

ـ أووو...

جلستُ إلى جانب الأعمى على الأرض، فمدَّ لي يده مستعطياً،

وأنزلها بعد قليل، دون أن يتوقّف عن الغناء:

ـ وكان يا ما كان يرْماك، ابن تيموفي...

وتردّ الهارمونيكا:

ـ آ ـ آ...

وشيئاً فشيئاً يجتمع على أنغام الأغنية أناس ساهمون، يُنصتون بجدّية إلى الموروث القديم، ويخفضون رؤوسهم نحو الأرض.

يلفحني دفء جافٌ، وأرى بريقَ عيون فضولية. يسأل أحدهم:

- وهذا، ألا يغنّي؟

- انتظرْ، سيغنّي فيما بعد!

لقد سمعت كثيراً من أغاني قطّاع الطرق، إلا أنني لم أكن أعرف مؤلّفيها، ولا عمّن تتحدّث، أمّا الآن فقد فهمت أن هذه الأغنية تخاطبني بلسان ألوف من الناس القدماء، قائلة:

- أيها الإنسان، سوف أغفر لك ذنْبَك العظيم الذي اقترفته بحقّي، مقابل خدمة صغيرة تسديها إليّ.

تزداد نظرات الناس إليّ فضولاً، فتُشعل روحي.

أنهى العجوز أغنيته، فنهضت، وقلت:

- أيها الأرثذوكسيون! كان هناك قاطع طريق يؤذي الناس وينهبهم... ثمّ انتَبَهُ ضميرُه ومضى ليُنقذَ روحه. فقرّر أن يخدم الناس بقوّته الجامحة، ويا لها من خدمة! وها أنتم الآن تعيشون بين قطّاع طرق لا يتوانون عن نهبكم، فبماذا يساعدونكم على سدّ الحاجات؟ وما الخير الذي يقدّمونه لكم؟

التفّ الناس حولي كأنهم يعانقونني، وراح اهتمامهم يزيد كلماتي قوّةً، ويمنحها الصوتَ والجمال، فأستسلم لها، ناسياً كلَّ

شيء؛ ولا أشعر إلا بأنني أزداد ثباتاً على الأرض بين الناس، فهم يرفعونني فوق أنفسهم، ويحثّونني بصمت:

"تكلّمْ! قُلِ الحقيقة كلّها، كما تراها!".

وطبعاً، جاء شرطيٌّ وراح يصيح: "تفرقّوا !"، ثمّ سأل عن سبب الصياح، وطلب منّي إبراز هُويّتي. وعندها ما لبث الناس أن أخذوا يذوبون مثل سَحابة صيف، حتّى إذا ما سألهم الشرطيّ عمّا كنت أقوله، أجابه بعضهم:

- إنه يتكلّم عن الله...
- يقول أشياء مختلفة...
- أكثر ما تكلّم عن الله...

كان ثمّة عامل ينتحي جانباً، بالقرب من عربة، ويُمعن النظر إليّ مبتسماً بلطف. وحين أخذني الشرطيّ من تلابيبي، شعرت برغبة في أن أدفعه عني، غير أنني رأيت الناس يرمقونني شزراً، كمن يسأل:

"وماذا ستقول الآن؟".

فتصيبني قلّة ثقتهم بالإحباط.

لكنني تداركت الموقف في الوقت المناسب، فأبعدت يد رجل الحكومة عنّي، وقلت له:

- أتريد أن تعرف ماذا قلت؟

وعُدتُ ثانية أتكلّم عن الحياة الظالمة، فعاد جمهور السُّوق ليؤلّف حشداً كبيراً يضيع الشرطيُّ فيه، ويتضايق. وحينها تذكّرت كوستيا وشبابَ المصنع، فشعرت بفخر وسرور عظيم، وعدت قويّاً كأنني في حلم... وإذ يصفر الشرطي، تومض وجوهٌ مختلفة، وتتّقد

عيون كثيرة، ويتمايل الناس مثل موجة ساخنة ويدفعونني، فأبدو خفيفاً وسطهم. وفي هذه الأثناء أَمسَكَ أحدهم بكتفي، وراح يهمس في أذني:

- اهربْ، اهربْ!

ومضوا يدفعونني ويدفعونني... حتى وجدت نفسي في فناء دارٍ ما، وإلى جانبي يقف رجل أسود اللحية، وفتى بلا قبّعة على رأسه. قال الأسود:

- اهربْ عبر أعواد السور!

وانسللت عبْر سور، ثمّ عبْر سور آخر، فكان ذلك يضحكني، ويسعدني.

وخطر ببالي: "آها - ا - ا، هكذا أنتم، إذاً؟"

أمّا الأسود فيحثّني:

- أسرعْ يا رفيق، أسرعْ!

اسأله وأنا أمشي:

- من أيِّ جماعة أنتما؟
- من أولئك!

كان الفتى الذي بلا قبّعة يسير خلفه صامتاً. فعبرنا المزارع، ونزلنا إلى وهدة يجْري في قاعها جدول ماء، ثمّ تتعرّج الدرب في الحرش. فأمسك الأسود بيدي، وقال وهو يضحك، وينظر في عينيّ:

- طريق السلامة! سيرافقك "فيديوك" حتّى الطريق الجيدة، فاذهبْ!

قال له الفتى:

- فلْتمضِ أنت سريعاً، وإلاّ اكتشفوا غيابك!

انحنى الأسود، وراح يصعد الجبل، بينما كنّا، أنا وفيديوك، نسير بمحاذاة الجدول. فسألته:

ـ من هذا الرجل؟

– إنه من المَنْفيّين، يعمل حدّاداً. لقد نُفيَ بسبب السياسة أيضاً.

قلت له:

– أعرف هؤلاء الناس!

أشعر بالبهجة. أمّا هو فيظلّ صامتاً.

ألقيتُ نظرة إلى الفتى: وجهه مستدير، وأنفه شامخ، كأنه قُدَّ من حجر، بينما عيناه الرماديتان تنظران بعيداً إلى الأمام. يتكلّم بصوتٍ أصمّ، ويسير بلا جلبة، منتصب القامة تماماً، كأنه يُنصتُ، أو كأنّ قوَّة كبيرة تشدّه إلى الأعلى، عاقداً يديه خلف ظهره، على غِرار ما كان يفعل حميِ عادة.

– وهل أنت من سكان هذه المنطقة؟

– أنا خادم الخوري.

– وأين قبّعتك؟

تلمّس رأسه، ثم سألني وهو ينظر إليّ:

– وما حاجتك إليها؟

– لا شيء. الوقتُ مساء، وسيبرد الجوّ...

أطرقَ قليلاً، ثمَّ تمتم بلا رغبة:

– فليأخذ الشيطان القبّعة، لقدكانت على رأسي!

تزداد الوهدة عمقاً، وتتعالى رقرقة الجدول، وينهض المساء من الحرش.

أشعر بكَدَرٍ في روحي، لكنّ أساريري منفرجة، وأرغب بالحديث إلى إنسان، فأسأله:

ـ لديكم منفيٌّ واحد؟

وهنا أفصح الفتى عن نفسه تماماً، كمن فتح معطفه، وراح يتمتم على مهلٍ بصوت أصمّ:

ـ إنهم أربعة. سيّدٌ من موسكو، وثلاثة عمّال من نهر الـ "دونْ". اثنان منهم عاقلان، ويشربان الفودكا، أما السيِّد والثاني الذي اسمه "راتكوف" فيتكلّمان. ولكنهما يتكلّمان سرّاً مع بعض الناس. ولا يتجرّآن بعدُ على الكلام علناً، أمام الملأ. يوجد كثير من المنفيين هنا. إنهم في كلّ مكان. أنا من بيرسْك، اسمي فيودور ميتكوف. هذا خامس عام أُمضيه هنا. وخلال هذه المدّة بلغ عددهم أحد عشر شخصاً. ثمانية منهم في "أوليخينو"، وثلاثة في "شيشكوفا"...

وأطال العدّ، فأحصى قُرابة الستّين منهم؛ ثمّ فكّر، وقال ثانية، وهو يحرّك أصابعه:

ـ بل وبينهم بعض الفلاحين. وكلّهم يردّدون الشيء نفسه: حياة كهذه لا تنفع! إنها تضيّق الأنفاس. كنت أعيش مطمئنّاً إلى أن سمعت بذلك. أما الآن، فأرى أنني مضطر للانحناء، بالرغم من أنني لست طويل القامة، وهذا يعني أنها حقّاً حياة تضيّق الأنفاس!

يتكلّم الفتى بصعوبة، كأنه ينتزع كلّ كلمة من تحت قدميه. يسير أمامي لا يلتفت، عريض المنكبين، قويّ البنية. سألته:

ـ هل أنت متعلّم؟

ـ تعلّمت، لكنني نسيت. والآن أتعلّم من جديد. لا بأس، أنا

أستطع أن أتعلّم، عندما تحتاج إلى شيء فإنك تستطيع أن تفعله. وأنا محتاج... ليت الأسياد وحدهم يشتكون من ثِقَل الحياة، فليأخذهم الشيطان، دائماً كانت عقيدتهم غير عقيدتنا! ولكن، ما دام أخونا، الإنسان الكادح الفقير، بدأ يشكو أيضاً، فلا بدَّ أن تكون تلك هي الحقيقة! لقد وصلنا إلى حالٍ صار فيه الرجل البسيط أبعدَ نظراً من سيِّده. هذا يعني أن ثمّة شيئاً إنسانياً عامّاً قد بدأ. هكذا يقولون: شيء إنساني، عامّ. وأنا إنسان. إذاً، فطريقي طريقهم. لذلك أفكِّر...

أستمعُ إليه، وأقول في نفسي: "تعلّمْ يا ماتفي ..."

ثم قلت له:

- ما داعي التفكير؟ هذا شأن الله!

توقّف مثل عمود مغروس في الأرض، حتّى إنني دفعته في ظهره، فأدار وجهه نحوي، وسأل بصرامة:

- أتظنّه شأن الله؟ هذا ما أفكِّر فيه. لأنه قيل: احترمْ أباك! وذوي السلطان، إذ يقال إن السلطة من الله أيضاً. كلّ الدلائل تؤكّد ذلك. وهذا يعني أن الشرائع القديمة إذا ما تغيّرت، لابدَّ أن تكون هناك إشارات! فأين هي؟ أمّا الشرائع الجديدة فلا معجزات تدلّ عليها! ولا أيُّ معجزات! كلّ شيء ظلّ على حاله. ففي مدينة "نيجني" اكتشفوا رُفات قدّيسين، وهذه معجزات؛ لكنْ يقال إنها رُفات آخرين؛ لأن لحية القديس سيرافيم كانت شيباء، أمّا اللحية التي وجدوها فهي مَغْراء اللون. إلا أن القضية ليست في اللحية، بل في المعجزة. هل كان هناك معجزات؟ نعم، كان! لكنَّ بعضهم لا يعترفون بذلك، ويعدّون كلّ الإشارات خداعاً. أو يقولون إن الإيمان

هو الذي يصنع المعجزات. أحياناً أتمنّى أن أقضي عليهم، ليكفّوا عن التشويش.

توقّفَ ثانية، وحَولَه بدأ الليل ينهض عن الأرض. يزداد الدرب انحداراً، ويُسرع الجدول الجرَيان، وتتمايل الشجيرات على مهل، وتُصدر حفيفاً خافتاً.

أقول للرجل بهدوء:

ـ اذهبْ، يا أخي!

سار لا يتعثّر في الظلام، وأنا أصطدم بظهره بين الحين والحين. يتدحرج "فيديوكا" نازلاً مثل حَجر، وفي سكينة الليل ترنّ كلماته المخيفة:

ـ إذا آمنتُ قُضيَ الأمر! لستُ رحيماً، كلا! كان لي أخ يخدم في الجيش فشنق نفسه، وكانت أختي تعمل خادمة عند صنّاع (الكوميص[7])

في ضواحي "بيرسْك"، فولدت عندهم طفلاً مصاباً بالكُساح. صار عمره أربع سنوات، لكنه لا يمشي. وهذا يعني أن الفتاة قُضيَ عليها بسبب الطّيش. أين تذهب الآن؟ الأب سكّير، والأخ الأكبر استولى على الأرض كلّها. هذه قصّتي...

نتمشّى معاً بين الشجيرات في الظلام الرطيب، تارة يتوارى الجدول عن أنظارنا، وتارة يعود يجري تحت أقدامنا. تمرق طيور الليل فوق رؤوسنا دونما جلَبة، والنجوم فوقها. أرغب في أن نسرع الخطا، ولكنّ الرجل أمامي ليس على عَجَلة من أمره، ولا ينقطع

---

[7] شراب مخمَّر، يُصنَع في سهوب آسيا الوسطى من حليب الخيل، وأحياناً من حليب النوق.ـ م

عن التمتمة، كأنه يَعُدُّ أفكاره، ويزِن ثقلها.

ـ هذا الأسود، راتكوف، رجل طيّب! يعيش وَفقاً للشريعة الجديدة. يدافع عن المظلوم. مرّة كان رئيسي في العمل يضربني بالعصا، فأسرع وطرحه أرضاً. سجنوه مدّة خمسة عشر يوماً. يومها تعارفنا. وعندما أُطلق سراحُه، سألته: "كيف تستطيع مواجهة الحكومة هكذا؟" فشرح لي شريعته حالاً. ذهبت إلى الخوري، فقال لي: "آها ـ ا ـ ا، يا لها من أفكار تنشرها!".

أخذوا راتكوف إلى سجن المدينة، فقبع فيه ثلاثة أشهر، وأمضيت أنا في السجن تسعة عَشر يوماً. سألوني هناك: "ماذا كان يقول لك؟"، قلت: "لا شيء". "وماذا كان يعلّمك؟"، قلت: "لم يكن يعلّمني شيئاً". فأنا أيضاً لست أحمق! وحين عاد راتكوف، قلت له: "سامحْني، لقد كنتُ أحمقَ". فلم يزِدْ على أن ضحك. قال: "هذا أمر تافه".

ثمّ صَمَتَ دليلي قليلاً، وأردف بصوت أخفضَ، ونبرةٍ جديدة:

ـ كلُّ الأمور عنده تافهة! يبصق دماً ـ أمرٌ تافه! لا يوجد طعام ـ أمرٌ تافه!

وفجأة شتم ببذاءة، واستدار إليّ بصدره، وهو يصفر من بين أسنانه، ويقول:

ـ أستطيع أن أفهم كلَّ شيء. فضياع أخي أمر يحدث في الجيش. وما جرى لأختي ليس بحالة نادرة. لكنني لا أستطيع أن أفهم لماذا عذّبوا هذا الإنسان حتى سال دمه. إنني سأتبعه مثل الكلب، أينما يأمرني أذهب. هو يسمّيني "الأرض"... يناديني: "ياأرض"، ويضحك. إن استمرارهم في تعذيبه يذبحني مثل سكين!

وعاد وأطلق شتيمة فاحشة، كأنه راهب سكران.

انفتحت الوهدة، ونشرتْ جداريها في الحقل، ثمّ أحنتهما وامتزجت بالظلام.

قال لي مرافقي:

- والآن، وداعاً!

أرشدَني إلى الطريق، وعاد أدراجه متوارياً في الظلام، دون قبّعة.

ما إن اختفت خطواته الثقيلة في الظلام، حتّى جلست، لا أرغب بمتابعة الطريق!

خيّم الليل على الأرض ثقيلاً، وغفا طريّاً وكثيفاً مثل الزيت. لا نجوم، ولا قمر في السماء، وما من ضوء حولي، لكنني أشعر بالدفء والنور. ترنّ في رأسي كلمات مرافقي الثقيلة. إنه يشبه جرساً طال بقاؤه على الأرض إلى أن غطّاه التراب تماماً، وأكله الصدأ، ولكنه، رغم رنينيه الأصمّ، يرنّ بطريقة جديدة.

يقف أمامي سكان القرية، ينصتون إليّ بجدية ورهافة، وتومض وجوههم مضطربة، تدفعني جانباً لتبعدني عن أنظار السلطات.

"هكذا إذاً، ـ أفكر متعجّباً، وبصعوبة أُصدِّق أن هذا قد حدث.

ثم أعود للتفكير:

" هذا الفتى يبحث عن إشارات، ولكنه بحدّ ذاته معجزة، مادام استطاع أن يحتفظ بحبه للإنسان، رغم فظاعة الحياة! والحشد الذي كان يستمع إليّ معجزة أيضاً، لأنه لم يُصَبْ

بالصمم، ولا بالعمى، رغم المحاولات الملحّة لجعله يفقد السمع والبصر. إلا أن المعجزة الكبرى هي ميخايلا ورفاقه!".

تنساب أفكاري هادئة، رقراقة، وهذا مفاجئ لي، وغير مألوف. أتفحّص نفسي بحذر، وأفتّش قلبي بهدوء، لأعثر فيه على مكامن القلق والغموض المحيِّر. أبتسم في الظلام الذي لا نأمة فيه، وأخشى أن أتحرك فيفيض ما يطفح به قلبي من سرورٍ غريبٍ عليّ. أُصدِّق ولا أصدِّق هذا الامتلاء العجيب الذي يُفعِم روحي، هذه اللقية التي فاجأتني.

كأنما كان يغفو في ظلام روحي طير أبيضُ، مولود منذ زمن بعيد، وأنا لا أعرف بذلك، بل ولا أشعر به. وحين لمستُ هذا الطير دون قصد منّي، أفاق وراح يغرّد بهدوء عند الصباح، يرفرف جناحاه الخفيفان في قلبي، وتُذيب أغنيتُه الحارّة جليد شكوكي، وتجعل منها دموعَ امتنان. وأتمنّى أن أقول كلمات ما، أن أنهض، وأسير، وأغنّي، وأن ألتقي إنساناً فأعانقه بشوق!

أرى أمامي وجه إيّونا المتألّق، وعينَي ميخايلا الحبيبتين، وابتسامة كوستيا الساخرة الصارمة. لقد بُعِث جميعُ مَن عرفت من الناس الجدد، الغوالي، تلاقوا في صدري، وراحوا يوسّعونه، فأشعر بالسعادة حتى الألم!

كان شيء مشابه يراودني أحياناً، في أثناء صلاة الفجر يوم عيد الفصح، فيتملّكني الحبُّ لله، ولنفسي، وللناس. جلست، ورحت أرتعد، وأفكّر:

"ربّي، أهذا أنت؟ ألست أنت، يا ذروة الجمال، سروري وسعادتي؟".

ظلام شاملٌ، فيه وجوهُ مؤمنين نيّرة، هدوء غامرٌ، ووحدَه قلبي لا يتوقّف عن الغناء.

أداعب الأرض بيديّ، وأربُتُ عليها بكفيّ بغباء، كأنها فرسٌ تشعر بحناني.

لم أستطع أن أبقى جالساً، فنهضت، ومضيت عبر الليل أتذكّر كلمات كوستيا، وأرى أمامي صرامة عينيه الطفولية، ومضيت يُسكرني سروري، وظللت أضرِب في الأرض حتّى أواخر الخريف، وتجمَع روحي هباتِ هذا العالم السخيّةَ والجديدة.

رأيت نازحين أوكرانيين في محطة القطارات في أومسك يُغَطّون بأجسادهم مساحات واسعة من الأرض، إنهم جماعة عظيمة من قوّة العمل! تجوَّلتُ بينهم، واستمعت إلى كلامهم الرقيق، وسألتهم:

- ألا تخشون السفر بعيداً إلى هذا الحدّ؟

أجابني أحدهم، وكان أشيبَ، أحنى العملُ قامته:

- ما من شيء بعيد على هذه الأرض، ما دمنا نشعر بها تحت أقدامنا! الأرض، أيها الرجل، ضيِّقة على مَن يكسِب قُوتَه بعرقِ جبينه. نعم، إنها ضيِّقة عليه!

في الماضي كانت كلمات التفجّع والحزن تنزل على قلبي رماداً، ولكنها الآن تُشعله مثل شرارة ساطعة، فكلّ مصيبة تصيب الآخرين هي مصيبتي، ويؤلمني نقصُ الحريّة الذي يعاني منه الناس.

لا يجد الناس الوقت ولا المكان ليرتقوا روحياً، وهذا أمر مرير، وخطير على من يتقدّمهم، لأنه يبقى وحيداً في المقدّمة، لا يراه الناس، ولا يستطيعون أن يدعموه بقوّتهم، وفي وحدته هذه

يحترق دونما جدوى في لهيب أمانيه.

قلت للأوكرانيين، وكنتُ أعرف لغتهم اللطيفة:

- يطوف الناس في الأرض قروناً، جيئة وذهاباً، بحثاً عن مكان يستطيعون فيه أن يستخدموا طاقاتهم بحرّيّة من أجل بناء حياة عادلة، وأنتم أيضاً تجوبون الأرض منذ قرون، يا أصحاب الأرض الشرعيين، فلماذا؟ مَنْ ذا الذي لا يعطي المكان والأرض للملك فوق عرشه، من ذا الذي فكّك الشعبَ، وطرده عن عرشه، وراح ينفيه من بلاد إلى بلاد، وهو صانع كلّ الإنجازات، هوالبستانيّ الرائع الذي زرع كلّ ما في الأرض من جميل؟

تتوهّج عيون الناس، وتتألّق فيها الروح الإنسانية المستيقظة، ونظري أيضاً يصبح واسعاً ودقيقاً، فما إن أرى على وجه أحدهم سؤالاً حتى أُسرِع في الإجابة عليه، وما إن أرى شكّاً حتى أكافحه. إنني أستمدّ القوّة من القلوب المُنْفَطِرة أمامي، وبهذه القوّة عينها أجعل الجميع قلباً واحداً.

إذا استطعتَ أن تلمس بكلمتك ما يشعر به الجميع، ما هو إنسانيّ حقّاً، موجودٌ سرّاً وعميقاً في روح كلِّ إنسان، حينها تتبثق من عيون الناس قوّة مشعّة، تفعمُكَ وترفعك عالياً فوقهم. ولكنْ إيّاك أن تفكّر أن إرادتك هي من رفَعَك، ذلك أن ما يحلّق بك هو اتحاد جميع الطاقات في روحك، الطاقات التي تعانقك من خارجك، فأنت قويّ بما جسّده فيك الناس من قوّة في هذه الساعة. فإذا ما تفرّقوا انهارت روحهم، وعدتَ لتكون مثل إيّ واحد منهم.

هكذا بدأتُ موعظتي المتواضعة، أدعو الناس فيها لصلاةٍ جديدة، في سبيل حياة جديدة، ولكنني لم أكن بعدُ أعرف إلهي الجديد.

في عيد القدّيس يوحنّا "فمِ الذهب"، أو في أحد أيامِ عيد آخر، كنت أتكلّم في الساحة حين عادت الشرطة تتدخّل وتحاول اعتقالي، إلا أن الشعبَ أخفاني مرة أخرى.

هناك تعرّفت إلى أشخاص رائعين، أحدهم "ياشا فلاضيكن"، وهو طالب في مدرسة دينية، أصبح الآن صديقي الحميم، وسيبقى صديقي مدى الحياة! إن عدم إيمانه بالله لا يمنعه من حُبّ الموسيقى الكنسية حبّاً يُسيل دموعه، كما أن هذا الرائع الغريب الأطوار يبكي وهو يعزف المزامير على الهارمونيكا.

أسأله وأنا أضحك:

- ولماذا تبكي، أيها المهرطق، الملحد؟

فيهزّ يديه، ويصيح:

- أبكي من فرحي، من توقّعي حدوثَ معجزات عظيمة! فما دام أفرادٌ معدودون، حتّى في هذا العالم المضطرِب، القذر، تمكّنوا من صنع كلّ هذا الجمال العظيم، فما بالُك بما ستشهده الأرض، حين يبدأ العالم كلّه، وقد تحرّر روحياً، يعبِّر عن توهّج روحه العظيمة في المزامير والموسيقا؟

ويروح يتكلّم عن مستقبل يراه باهرَ الوضوح، ولا ينفكّ يتعجّب هو نفسه من رؤياه! فامتناني لهذا الصديق كبير بقدْر امتناني لميخايلا.

لقد رأيت عشرات من الأشخاص الرائعين الذين كان كلّ واحد منهم يرسلني إلى صاحبه من مدينة إلى مدينة، فأَمضي مثل من يهتدي بمعالمَ من نار، تضطرم كلّها بلهيب عقيدة واحدة. يتعذّر إحصاءُ تنوّعِ الناس، والتعبيرُ عن البهجة لتي تتأتّى عن رؤية الوحدة الروحية بينهم أجمعين.

عظيم هو الشعب الروسي، ورائعة هي الحياة، تفوق كلَّ وصف!

في مقاطعة قازان تلقّى قلبي الطعنة الأخيرة. تلك الطعنة التي تختتم بناء المعبد.

كان ذلك في صحراء "سيمي أزيور"، بعد مسيرة الصليب التي ينظّمها حَمَلَةُ الأيقونة صانعة المعجزات؛ وذلك يومَ انتظار عودة الإيقونة من المدينة إلى الدير، إنه يوم عيد.

كنت أقف على تلّة فوق البحيرة، أنظر كيف عمّر الناس كلّ مكان، وكيف يتدفّق الجسد البشري أمواجاً قاتمة نحو بوّابة الدير، يتلاطم ويصطدم بجدرانه. والشمس تميل إلى المغيب، أشعّتُها الخريفية حمراء قانية. والأجراس ترتعش مثل طيور تتأهّب لتنطلق وراء تغريدها، وفي كل مكان تحمرُّ رؤوس الناس تحت أشعة الشمس، كأنها أزهار شقائق النعمان المخملية.

وعند بوّابة الدير ينتظرون المعجزة، حيث تستلقي شابةّ وتتجمّد في عربة صغيرة؛ يتجمّد وجهها مثل شمع أبيض، وعيناها الرماديتان شبْه مغمَضتين، وقد تجمّعت حياتها كلّها في اختلاجة رقيقة من رموشها الطويلة.

يقف والدها إلى جانبها، وهو رجل طويل، أجلح، أشيب اللحية، كبير الأنف، وأمُّها ممتلئة الجسم، مستديرة الوجه، ارتفع حاجباها واتّسعت عيناها وهي تنظر إلى الأمام، تحرّك أصابعها، فيُخيَّل إليك أنها توشك أن تصرخ بصوت نفّاذ ومثير.

يقترب الناس من العربة وينظرون إلى وجه المريضة، بينما يقول والدها بصوتٍ ميتٍ، ولحيتُه ترتجف:

ـ أشفقوا عليها، أيها الأرثوذكسيُّون، صلّوا من أجل هذه الشقية، إنها تستلقي منذ أربع سنوات لا تحرك رجليها أو يديها، اطلبوا لها المساعدة من العذراء، يعوّضْكمُ الله جزاءً على صلواتكم المقدّسة، ساعدوا أباها وأمّها في الخلاص من مصيبتهما هذه.

يبدو أنه يطوف بابنته على الأديرة منذ عهد بعيد، وقد فَقَد الأمل في شفائها؛ ولكنّه لا يني يرتِّل الكلمات ذاتها دونما كلل، فتتردَّد بين شفتيه بلا حياة. والناس ينصتون إلى دعائه، وهم يتنهّدون، ويرسمون إشارة الصليب، بينما ترتعش رموش الفتاة، وتظلّل عينيها الحزينتين.

لعلّي رأيت عشرين فتاةً واهنة، وعشراتٍ من الممسوسين، وغيرَهم من المعوَّقين، وكنت دوماً أشعر بالخجل منهم، والحزن عليهم، وأشفق على هذه الأجسام المسكينة، المسلوبة القوى، أشفق على انتظارها المعجزاتِ دون جدوى. على أنني لم أشعر يوماً بالشفقة القويّة التي أشعر بها هذه المرَّة.

كانت شكوى عظيمةٌ، خرساءُ، ترتسم على وجه ابنتهما الأبيض، شبهِ الميت، فيتملّك أمَّها حزنٌ صامت. وقد شعرتُ بالضيق فابتعدتُ، لا أستطيع نسيان ما رأيت.

آلاف من العيون تنظر إلى الأفق، وهمسٌ دافئ، كثيف، يحوم حولي مثل سحابة:

ـ ها قد أحضروها، أحضروها!

يصعد الناس إلى الجبل ببطء متثاقلين، كأنهم موجة بحر

قاتمة، يتألق فوقها ذهب القباب مثل زبد أحمر، ينثر حزم شرارات ساطعة، وتتأرجح أيقونة العذراء بانسياب، مثل طير ناريٍّ، تلمع تحت أشعة الشمس .

تنبعث من جسد الشعب تنهيدتُه الجبّارة نشيداً تطلقه آلاف الحناجر:

- يا حاميتَنا الوفيّة، يا أمّ الرب في السماء!

يُقطِّعُ الإنشادَ هديرُ صيحات:

- أسرعِ الخطا! أسرعْ!

تبتسم البحيرة مبتهجة وسط الغابة الزرقاء، وتذوب الشمس الحمراء غارقة في الغابة، وينبعث رنين الأجراس النحاسيّ فرِحاً. وحَولَنا وجوه مكتئبة، وهَمْسُ صلاة خافتٌ، حزين، وعيونٌ مغْرورقة بالدموع، وأيدٍ تومض وهي ترسم إشارة الصليب.

يساورني شعور بالوحدة. فكلّ ذلك في نظري ضلالٌ خالٍ من الفرح، مليء باليأس العاجز، وبانتظار للرحمة مكلّلٍ بالتعب.

يقترب الناس صاعدين من الوادي، وجوهُهم يكسوها الغبار، يسيل العرق على خدودهم، يتنفّسون بصعوبة، ينظرون بغرابة كأنهم لا يرون شيئاً، ويتدافعون مترنّحين.

أُشفِق عليهم، أشفق على قوّة إيمانهم تتطاير هباء في الهواء.

لا نهاية لسيل المتوافدين !

تتردّد في الهواء صرخةٌ هائجة، ولكنها كئيبة، كأنها تنطق باللّوم:

- ابتهجي، أيتها الخيرّة، ابتهجي !

وثانية:

- أسرِعوا الخطا! أسرعوا !

ثمّة سَحابة كبيرة من الغبار، فيها مئات الوجوه السوداء، وآلاف العيون، كأنها نجومُ درب التبّانة. أرى كلّ تلك العيون شبيهةً بشرارات نارية تنبثق من روح واحدة، متعطّشةٍ لفرحٍ مجهول.

يسير الناس مثل جسدٍ واحد، متلاصقٌ بعضُهم ببعض، متشابكي الأيدي، يحثّون الخطى كمن أمامه طريق طويلة جداً، إلا أنهم مصمّمون على المُضيّ فيها حالاً، وبلا كلَلٍ، للوصول إلى نهايتها.

تستبدّ بروحي رعشةٌ عظيمة، مبعثُها قلقٌ مبهم، فقد اشتعلت في ذاكرتي كلمات إيّونا العظيمة مثل البرق: "الشعب صانع الله؟!"

اندفعتُ أطيرُ نحو الشعب، فألقيت بنفسي إليه من الجبل، وسرت معه أنشِد بكلّ جوارحي:

- ابتهجي، يا قوّةَ كلِّ القوى الخيّرة !

أمسَكوا بي، عانقوني، وأبحر الإنسان منصهراً في الأنفاس الكثيرة الساخنة. لم أكن أشعر بالأرض تحت قدميّ، لم أكن موجوداً، ولا كان الزمن موجوداً حينها، ولم يكُ ثمّة شيء سوى سرور لا حدود له كالسماء. كنت جمرةً متّقدةً من إيمان يلتهب، كنت ضئيلاً وعظيماً، أُشبه كلّ من يحيطون بي ونحن نطير معاً.

- أسرِعوا الخطى !

ويحلّق الناس فوق الأرض، لا قدرة على إيقافهم، مستعدّين لتخطّي جميع العوائق والوديان السحيقة، كلِّ حَيْراتهم ومخاوفهم القاتمة .

أتذكّر كيف توقّف كلّ شيء حولي، ودبّت الفوضى،

فوجدت نفسي بجوار عربة المريضة، أتذكّر الصراخ والشكوى:

- الصلاةَ، الصلاة !

وَقَعَ هَيَجانٌ عظيم، كانوا يدفعون العربة فيهتزّ فيها رأس الفتاة مستسلِماً، وتنظر عيناها مرعوبتين. عشرات العيون تُغرق أشعّتها على المريضة، وتلاقت فوق جسدها الواهن مئاتُ القوى التي بَعَثَتْ فيها الحياةَ رغبةٌ آمرة تريد رؤية المريضة وقد شفيتْ وقامت عن فراش الموت، وكنت أيضاً أُحدِّق في عمق نظراتها، أشارك الجميع رغبتهم الملحّة في أن تنهض، لا لأجلي ولا لأجلها هي، بل لأجل أمرٍ آخر لسنا، أنا وهي، أمامه إلاّ ريش طير في لهيب الحريق.

كان الناس ينفخون قوّتهم في جسد الفتاة اليابس، مثلما يروي المطرُ الأرضَ بقطراته المنعشة، يهمسون ويصيحون:

- قومي، أيتها الغالية، قومي! ارفعي يديك، ولا تخافي! قومي، قومي دون خوف! انهضي، أيتها المريضة! أيتها الغالية! ارفعي يديك !

اشتعلت ظلالٌ ورديَّة على وجهها الميت، وعيناها المتعَبتان، الفرحتان ازدادتا اتِّساعاً، وطفقت، وهي تحرّك كتفيها ببطء، ترفع يديها الراعشتين مستسلمة، وتمدّهما إلى الأمام طائعة، مثل عصفور يطير من عشّه أوّل مرّة.

شهق كلّ ما حولنا، كأن الأرض جرس نحاسيّ قرعه راهب جبليّ بكل ما أوتيَ من قوّة، فارتجف الناس، وارتعدوا وراحوا يصيحون:

- أوقفوها على قدميها! ساعدوها! انهضي، أيتها الفتاة، على قدميك! أنهِضوها !

أمسكنا بالفتاة ورفعناها، أوقفناها على الأرض، سندناها قليلاً، ولكنها راحت تنحني مثل سنبلة في مهبّ الريح، وتصيح:

- أحبّائي! إلهي! أيتها العذراء! يا أحبائي !

فيصرخ الناس:

- امشي، امشي !

أتذكّر وجهاً مغبَّراً يكسوه العرق والدموع، وتشعّ منه قطرات الدمع بقوّة تصنع المعجزات، قوّةٌ هي إيمان الإنسان بقدرته على صنع المعجزات.

سارت الفتاة، وقد شفيتْ للتوّ، بيننا بهدوء. وبجسدها الذي دبّت فيه الحياة من جديد راحت تقترب من الناس، وتبتسم بيضاءَ كلّها مثل زهرة، وتقول:

- دعوني، سأمشي وحدي.

توقّفتْ، وتمايلت، ثم مشت. كانت تمشي كمن يمشي فوق سكاكينَ تمزّق أصابع قدميها. إلا أنها ظلّت تمشي وحدها، خائفة، تضحك مثل طفل صغير، والناس من حولها مسرورون أيضاً، ولطفاء كالأطفال. ويضطرب جسدها، ويرتعش وهي تسير وتمدّ يديها إلى الأمام، تتلمّس بهما الهواء المفعم بقوّة الناس، وتستقبلها من جميع الجهات مئات الشعاعات المضيئة.

لم أعد أتمكّن من رؤيتها عندما بلغت بوّابة الدير، ولَمّا ثُبتُ إلى رشدي قليلاً، وتلفّتُّ حولي، وجدت العيد وضجيجَ العيد في كل مكان، قَرْعُ نواقيسَ، وكلامٌ آمرٌ يتبادله الناس، فيما الفجر ساطع في السماء، يسبغ على البحيرة ثوباً قرمزياً.

مرَّ بجانبي رجل، ابتسم وسألني:

- أرأيت؟

عانقتُه وقبّلته، مثل من يقبّل أخاً عاد بعد طول غياب، ولم نجد كلمة نتبادلها، فافترقنا ونحن نبتسم صامتَين.

... جلست ليلاً في الغابة على ضفة البحيرة، وحدي ثانية، إلا أن روحي ارتبطت هذه المرّة ارتباطاً وثيقاً وأبدياً بالشعب، سيِّدِ الأرض وصانعِ المعجزات.

جلست أسمع كيف يكبر في داخلي كلُّ ما رأيتُ وعرفت، وكيف يشتعل ذلك ناراً واحدة، فأفيض بهذا النور على العالم ثانية ليضطرم كلُّ شيء فيه بمعنى عظيم، ويرتدي ثوباً ساحراً، ويُلهم روحي بالسعي لاحتواء العالم كما احتواني.

لا أجد كلمات أعبّر بها عن بهجة هذا الليل الذي عانقتُ فيه الأرض كلّها بحبّي وأنا وحيد في الظلام، واقفٌ على قمة ما عشتُه، فرأيت العالم مثل سيل ناريٍّ من قوى حيّة تتدفّق هدّارة لتجتمع في قوّة واحدة، لا أستطيع إدراك غايتها.

لكنني أدركت بسرورٍ أن صعوبة بلوغ هذه الغاية هي منبع ما تنعم به روحي ممّا لا نهاية له من صعودٍ، ومباهجَ دنيويةٍ عظيمة، وفي هذه اللانهاية يكمن عدد لا يُحصى من مسرّات الروح البشرية النابضة.

وفي الصباح تبدّتِ الشمس لناظريّ بوجه آخر أيضاً، فرأيت كيف تصهر أشعّتُها الظلامَ بحذر وحنان، وكيف أحرقته، وكشفت حُجُبَ الليل عن الأرض، وها هي تظهر أمامي في زيّها الخريفي الزاهي، البديع، حقلاً زمرّدياً لألعاب الناس العظيمة، ومعركتهم في سبيل حرية هذه الألعاب، ومكاناً مقدّساً تسلكه

مسيرة الصليب نحو عيد الجمال والحقيقة.

رأيتها، أمّي الأرض، في الفضاء بين النجوم، ورأيت كيف تنظر بعيون محيطاتها بفخر إلى الآفاق البعيدة والأعماق، رأيتها مثلَ كأس مترعة بدم بشريّ حيٍّ، قاني الحمرة، لايكفّ عن الغليان، ورأيت مليكها، الشعبَ الخالد الذي لا حدود لقوّته.

إنه يلهم حياتها عظمة أعمالها وآمالها، فصلّيت:

- أنت إلهي وخالق الآلهة أجمعين، نسجتَهم من روائع روحك عبر جهودك، وتمرُّدِ تقصّياتك وأبحاثك!

- لا إله في العالم سواك، أنت الإله الواحد القادر على صنع المعجزات!

- بهذا أومن، وبهذا أعتقد!

وعلى هذا أعود إلى حيث يخلّص الناس أرواح أقربائهم من رِبقة الجهل والأوهام، يوحِّدون الشعب، ينيرون أمامه وجهه المحجوب، يساعدونه على إدراكِ قوّة إرادته، ويدلّونه على الطريق الصحيح الوحيد إلى توحيد الجميع في سبيل القضية العظيمة، في سبيل صنع إله واحد للناس أجمعين!.



М. ГОРЬКИЙ

ИСПОВЕДЬ

..... كان الإله الذي أتكلّم عنه موجوداً يوم كان الناس يصنعونه من مادّة أفكارهم، ليُنيروا به ظلمة وجودهم؛ غير أنهم، عندما انقسموا إلى عبيد وأسياد، وتفرقّوا شعوباً وقبائلَ، عندما مزّق الناسُ أفكارهم وإرادتهم، مات الإله، تحطّم الإله!

... أكبر جريمة ارتكبها أسياد الحياة هي أنهم حطّموا قوّة الشعب الخلاّقة. وسيأتي وقت تعود فتتجمّع فيه إرادة الشعب كلُها في بؤرة واحدة، ولا بدَّ أن تظهر فيها عندئذ قوّةٌ عجيبة لا تُقهَر، فينبعث الإله من جديد! ذلك هو الإله الذي تبحث عنه، ، يا ماتفي!

لقد كان يتبارز أمامي رجلان ينكران الله، وهما مفعمان بإيمان صادق.

فأسأل نفسي: "ما هو معتقدي؟"، ولا أعرف الجواب.

وبدلاً من سؤالي: أين الله، برز سؤال جديد هو: من أنا، ولماذا أنا موجود؟ ألكي أبحث عن الله؟